من نفحات رمضان

دكتور محمود محمد محمد عمارة
جامعة الأزهر

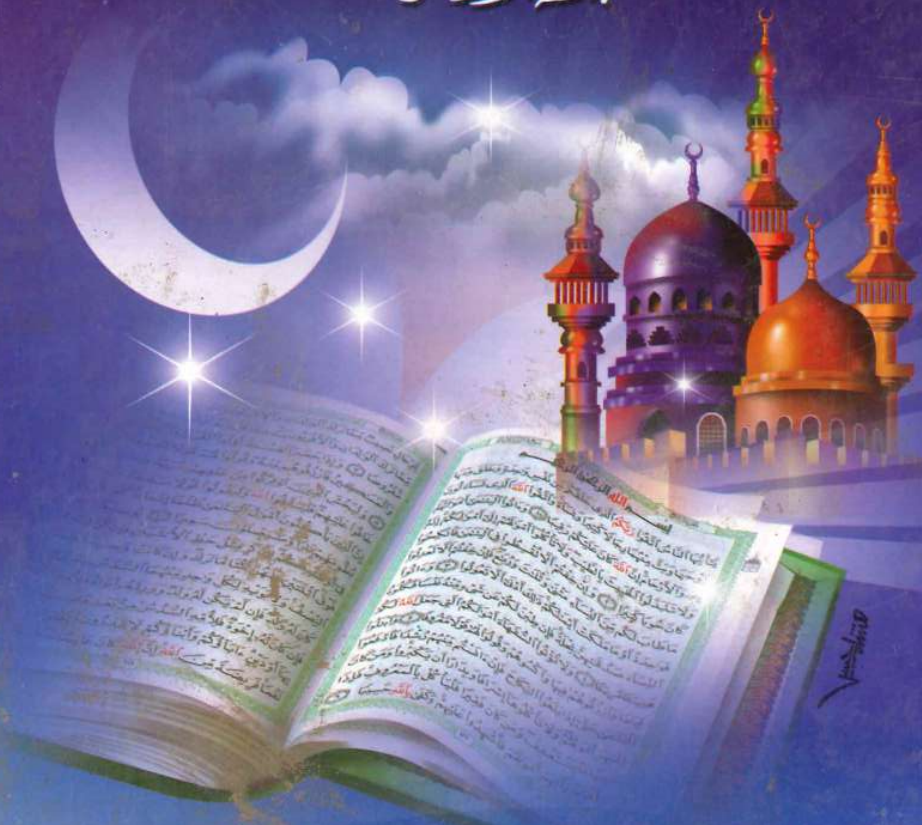

مكتبة الإيمان
بالمنصورة

من نفحات رمضان

دكتور

محمود محمد محمد عماره

جامعة الأزهر

مكتبة الإيمان ـ المنصورة

٠٥٠ / ٢٢٥٧٨٨٢

الإهداء

إلى سماحة الأستاذ الدكتور/ أحمد هليل المكرم

وزير الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية

تقديراً لدوره المرموق فى خدمة الدعوة والدعاة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

[أرأيت الماء الذى ينزل من الأنبوب قطرة قطرة ، يملأ كأسك فى ساعة؟

أما إن كان يخرج منه بقوة واندفاع . فإن الكأس لا تمتلئ أبدًا :

لأن الماء ينبوعنها . ويتطاير منها . فلا يستقر منه شىء فيها] .

وهكذا أحاول أن أذكر أيام « عمّان » ولياليها .

وما حبُّ الديار سكنّ قلبى ولكن حب من سكن الديارًا

ولكن هل أستطيع أن أعبر عما يسبح فى خاطرى؟

متى كانت الكلمات تسع العواطف والأفكار؟!

بل متى كانت تسجل كل مشاهد الكون . فضلا عن مشاعر النفوس؟

أتقدر أن تسجل ألوان الغروب . . حتى لا يفوت قارئ قصيدتك « أيها الشاعر» أو ناظر لوحتك « أيها الرسّام » شىء منها ؟

كم قال الشعراء . وكم كتب الكتّاب فى « الحب» فهل أحاطوا بمعانى الحب: هل أدركوا أسرار الجمال .

هل تحيط كلمة « الحب » بكل أشكال الحب؟

الأم تحب ولدها .

وهذا يحب من الشعراء « البحترى ».

والثالث يحب من البلاد مكة .

والرابع يحب البحر .

وقيس يحب ليلى!

أفهذا كله « حب واحد» ؟!

وحب الله الذى هو جوهر الإيمان . . أترونه يشبه ما ذكرتُ من أنواع الحب ؟

إن الإنسان يحس:

يسمع صوتا . أو يرى لونا :

يحس . . ثم « يدرك» أن هذا الصوت صوت إنسان ، أو حيوان ، وأن هذا اللون لون نبات أو جماد:

الإحساس أولاً . . ثم الإدراك . . ثم يأتى الفهم والمعايشة . . ثم يبتعد الإنسان عن هذه الأحداث فينساها كلها أو بعضها ا . هـ.

وقد رأيت فى عمان . . وقد سمعت.

وكان من الوفاء أن أذكّر بما رأيت وبما سمعت تبصرة وذكرى.

وأمرى على ما يقول شيخنا « **على الطنطاوى** » : هل رأيتم حبات العقد الجميل؟ مصفوفة فيه . متناسقة . مؤتلفة ومختلفة : يأتى جمالها من اختلافها وائتلافها.

لأن « الضد يظهر حسنه الضد » فانقطع خيط العقد. وتناثرت حباته . فأقبلت تبحث عنها : تجمعها .

فأمسكت بأقلها . وضاع منك أكثرها: تدحرج حتى سقط فى النهر . أو وقع فى البئر [1].

وهأنذا أحاول أن أمسك « بالأقل » قبل أن يسقط فى النهر أو يقع فى بئر النسيان وإن كان ما بقى من الذكريات كاف فى دلالته على أصالة « الأردن» والتى تبدو مطمح كل راغب ومطمع كل طالب .

---

(١) المنقول هنا لشيخنا « على الطنطاوى »

براعة الاستهلال

بدأت صلتي بالأردن الشقيق عن طريق مجموعة من الطلاب الأردنيين ممن كانوا يدرسون في جامعة أم القرى وقد صاروا من بعد من حملة الدكتوراة [١].

ولقد كانت لي مع بعضهم أحداث متجددة ووقائع متعددة . وبخاصة وقت ظهور نتائج الامتحانات خرجت منها بدروس منها :

١ ـ أن من الطلاب ملتزمًا ولكنه لا يستسلم.

٢ ـ يملك إرادة حرة . ولكنه لا يتمرد على مدرسه

٣ ـ مقتنع بسلامة رأيه لكنه لا يخرق النظام.

٤ ـ وأن المدرس قد يتعلم من تلاميذه .

وقد يحتد الخلاف بين الاثنين وهذا شيء طبيعي ولكن المحق منهما قادر على أن يفرض احترامه على الآخرين: لأنه ينطق بلسان محمد ﷺ . . ويلوح بسيف محمد ﷺ .

وهو بهذه الخاصية لا يموت . . فهو من أبنـاء الخلـود !

ورب ضارة نافعة:

رب خلاف أورث الائتلاف على ما يقول الشاعر:

دخلنا كارهين لها فلما ألفناها . . خرجنا مكرهينا!

كان ذلك هو انطباعي في علاقتي مع « جل» طلاب الأردن إن لم يكن مع «كلهم» وهكذا دخلت « الأردن» أفق حياتي . . أو دخلت أنا في أفقها من خلال هذا الاحتكاك والذي دقت به طعما للحياة لم يكن لي به من قبل عهد

---

(١) منهم على سبيل المثال د/ ياسر الشمالي ، و د/ عبد الرزاق أبو البصل بجامعة اليرموك، و د/ فنيخل جامعة البلقاء

مرة أخرى :

إنه الوفاء فى زمان قلّ فيه الأوفياء :

إذا ما المرء لم يحفظ ثلاثا فبعه . . ولو بكف من رماد

وفاء للصديق وبذل مال وكتمان السرائر فى الفؤاد

وفاء: تجد فى ممارسته متعة . . حين تجمعك دعوة الزيارة إلى لقاء الأحبة:

صبًا إليها . . وفى أكبادنا ظمأ يكاد يقتلنا . . لولا تلا قينا

مع مجلة « هدى الإسلام »

ثم كان لى من بعد شرف الاشتراك فى تحرير مجلة « هدى الإسلام » الغراء استجابة لدعوة الزميل العزيز سعادة د/ **عيسى العمرى**.

عن طريق هذا الخطاب المرفق.

وكانت هناك دعوة مماثلة من الصديق العزيز د/ **أحمد هليل** أيام كان أمينًا عامًا/ للوزارة ومشرفًا على تحرير المجلة . . والذى صار من بعد وزيرًا للأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية.

هذا الرجل الذى عرفته، ثم لما رأيته « اعترفت » . اعترفت : كيف كان جديرًا بحب من تعامل معه.

والذى تذكرك رؤيته بمعنى البطولة فى الإسلام . . البطولة التى تحمل البطل. لا عن الدفاع بسيفه عن حياته . وإنما هو يدافع بحياته عن سيفه الذى يبقى من بعده يرهب الله به أعداء الإسلام.

ولقد صار بهذا الإيثار : ذلك الرجل الذى يضع نفسه أقل مما يرجو.

فوضعه الناس فوق الرؤوس .

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة الأردنية الهاشمية
وزارة الأوقاف والشئون والمقدسات الإسلامية
الرقم: ٢/ ٢/ ١٠/ ٩٦٤٧
التاريخ: ٣٠/ ٢/ ١٤١٣ هـ
وفق: ٢٩/ ٨/ ١٩٩٢

المحترم سعادة الدكتور/ **محمود محمد عمارة**

مصر ـ منوف شارع (١٠)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بمناسبة انتهاء السنة الهجرية لعام ١٤١٢ هـ واستقبال عام جديد، يسعد إدارة تحرير مجلة هدى الإسلام أن تبعث إليكم بخالص التحيات، وأملنا بكم أن تتكرموا بتزويدها بما يفتح الله عليكم من الأبحاث والمقالات مساهمة كريمة منكم في تحقيق رسالة هذه المجلة في بث الوعي الديني وترسيخ العقيدة الإسلامية السمحة في العقول والقلوب والدعوة إلى الله سبحانه بالحكمة والموعظة الحسنة.

وإننى لعلى يقين بأنكم حريصون على إفادة المسلمين من غزير علمكم ووافر معرفتكم وثاقب فكركم آملا أن نتلقى الرد الإيجابي عنكم من حرص على خدمة الإسلام والمسلمين، علما بأنه قد تم تخصيص مكافأة مالية عن كل بحث أو مقال يتم نشره في المجلة.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

المحرر المسؤول
مدير الوعظ والإرشاد
الدكتورة عيسى العمرى

رأيت .. وسمعت

أما ما رأته عيناى:

فقد بدأ بمكتب الطيران الملكى الأردنى بالقاهرة .. وما لمسته من ذوق رفيع .. بدءًا فى معاملة موظفيه لضيوف «الأردن» وبخاصة الضيوف من العلماء.

وكان من وراء ذلك دعوة كريمة من سماحة الأستاذ الدكتور/ **أحمد هليل** وزير الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية:

وهذه هى صورتها. مشفوعة بشكره على ما منَّ الله تعالى به من توفيق: أثبتها هنا شفاء لصدورٍ ربما تصورت الأمر على غير حقيقته.

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة الأردنية الهاشمية

وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية

الرقم: ٢/ ٢/ ٤/ ٨ ٩

التاريخ: ٦/ ٦/ ١٤٢٤ هـ

الموافق: ٥/ ٨/ ٢٠٠٣ م

المكرم

فضيلة الاستاذ الدكتور / محمود محمد عمارة

جامعة الأزهر ـ كلية أصول الدين

جمهورية مصر العربية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أرجو أن أعلم فضيلتكم بأن وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية في المملكة الأردنية الهاشمية ستعقد هذا العام ١٤٢٤ هـ عدداً من المجالس العلمية الهاشمية في شهر رمضان المبارك تحت الرعاية الملكية السامية يدعى لها نخبة من كبار العلماء والمختصين من خارج المملكة وداخلها، وقد تم اختيار موضوعات حيوية لهذه المجالس يجرى مناقشتها وبحضور جمهور مشارك في قاعة المؤتمرات الكبرى في المركز الثقافي الإسلامي التابع لمسجد الشهيد الملك المؤسس عبد الله بن الحسين طيب الله ثراه، حيث يتم بثها على الهواء مباشرة عبر قنوات التلفاز الأردني الفضائية والأرضية.

وتنظم الوزارة للمدعوين من خارج المملكة بمشيئة الله تعالى برنامج محاضرات وندوات أثناء فترة زيارتهم للمملكة حسب رغبتهم وأوقاتهم.

ولما عرف عن فضيلتكم من علم واسع واطلاع ومعرفة متميز أصيلة وحرص على خدمة الإسلام والمسلمين، فإنه يسرني أن أدعوكم للمشاركة في هذه المجالس في الأسبوع الذي تختارونه مرفقًا قائمة بموضوعات هذه المجالس للتكرم بالاطلاع وإبداء رغبتكم وفق ذلك.

آملاً أن تتفضلوا بتلبية هذه الدعوة وأرجو أن يصلني جوابكم خلال شهر جمادى الآخرة ١٤٢٤ هـ وذلك لتتمكن الوزارة من اتخاذ إجراءات سفركم واستقبالكم وأقامتكم في بلدكم الثاني المملكة الأردنية الهاشمية.

وأسأل الله تعالى أن يمتعكم بموفور الصحة والعافية

وأن يوفقنا جميعًا لما فيه الخير والصلاح

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية

الدكتور/ أحمد محمد هليل

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة الأردنية الهاشمية

وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية

الرقم: ٢/ ١/ ١٦٢٧٢ الموضوع :

التاريخ: ٢٧/ ٩/ ١٤٢٣ هـ

الموافق: ٢/ ١٢/ ٢٠٠٢ م

فضيلة الاستاذ الدكتور / **محمود محمد عمارة** المكرم

جمهورية مصر العربية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يسرني أن اتقدم إلى فضيلتكم بوافر الشكر على مشاركتكم المتميزة خلال شهر رمضان المبارك لهذا العام ١٤٢٣ هـ في دروس الوعظ والإرشاد والندوات والمحاضرات والمجالس العلمية الهاشمية في مختلف محافظات المملكة وألويتها ، حيث كان لمشاركتكم الفاعلة الأثر البالغ في نفوس المستمعين.

سائلاً الله تعالى أن ينفع المسلمين بعلمكم ويجعل هذا الجهد المبارك في ميزان حسناتكم . وكل عام وانتم بخير.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير

وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية

الدكتور/ أحمد محمد هليل

وقد كان من حسن حظى أن أطوف بكل محافظات المملكة الأردنية الهاشمية كلها.

فاجتمعت لدى فكرة كاملة عن طبيعة هذا البلد المضياف الأبى.

ومن وراء ذلك كله عناية سماحة الوزير بنا شخصيا . . متجاوزا ما يفرضه « البروتوكول » من ضوابط . . فى سبيل راحتنا . . . فكان له ما أراد من تمام رسالتنا على أوفى ما يكون الأداء . . والحمد لله .

فى حفل مسابقة القرآن الكريم

وقد اختارنى سماحة الوزير لألقى كلمة الحفل . وبحضور صاحب الجلالة الملك عبد الله الثانى ابن الحسين حفظه الله.

وكان مما قلته : أفاده الشباب : قريحة متقدّه . ونظرة حادة يتعامل بهما مع قضايا الأمة : فى قوة وسرعة. ومتانة إلمام . . فيأتى قراره منسجمًا محبوكًا.

والعروبه : أفادته . . مع هذا: طبعًا أصيلا وسليقة صافية . بدت بهما الحكمة العربية فى سمائها العالية .

وسلام على عمان.

التى كانت بالأمس : عاصمة الثقافة ، والتى تصبح اليوم بلد القرآن.

فى محافظة « الكرك »

وفى المسجد الكبير بمدينة « الكرك » بدأت أتحدث . . وفوجئت بما يشبه المظاهرة السلمية تنادى بتنحيتى ليتكلم الشيخ « أحمد ».

وقد تصفحت وجوه « المتظاهرين » فإذا هى كالأصداف لا تحجب اللآلئ ولكنها تحميها وتربيها .

وهكذا : بدأ رداء الإيمان على وجوههم . . ولكن الحماس يحملهم على جناحيه حملا سريع الإيقاع . . لا يمكنهم من رؤية الحق الذى يريدون . .

وأحيانا يربح الإنسان إعجاب الجماهير . ولكنه فى نفس اللحظة يخسر ، ما هو أغلى من الجماهير وهو : الحق . .

وقد يوقن بأن بعض آرائه على الأقل صواب متناسيًا أن بعض الصواب فى الخطأ لا يجعل الخطأ صوابا .

وعلى أى حال : فقد تبين لى أن هذه المظاهرة لم تُؤت من قبل النية . . فما نظن بنية أهلها سوءا .

ولكن الحق أنهم كلفوا أنفسهم بأمر لم يُؤهلوا له ! فكانت نظرتهم تلك العجلى . . والتى توشك أن تمدُ لهم فى الحماس مدًا يقف بهم عند السطح فلا يعرفون إلا ظاهرًا من الرأى .

وقد حاولت امتصاص فورة الحماس . فقلت لهم : وأنا ما جئت من مصر إلا لأسمع معكم : الشيخ أحمد . . ولا أدرى بعد ذلك ما حدث . . لكن الذى أذكره أننى أسررت إلى واحد منهم قائلا :

قل لإخوانك هؤلاء لو أن « شارون » نظر إلينا الآن فهل يغيظه ذلك أم يسره! قال : إن الليل أعمى ، لكن النهار مبصر . إن من شأن ذلك أن يسره !! وقلت للرجل المنصف . إذن فلسنا من الذين يغيظ الله بهم الكفار ؟!

وانتهى الموقف تحت قبة المسجد . . لكنه لم ينته عندى : فقد تدافعت الأفكار فى رأس . . فى صحبة هم ثقيل لأن أمتنا لم تقرر حتى الآن أن تضن بطاقاتها حتى لا تذهب هدرًا فى الوقت الذى تتنامى فيه قوة أعدائنا . . وخصما من حسابنا !!

قالت نفس: وأحيانا يبدو « الرائد » قويًا بين أتباعه الذين لا يملكون إلا «عقائر» يجأرون بها . .

ولكنه لم يستحوذ عليهم بقوته . . وإنما : لأنهم ضعفاء وإذن . . فهو يغلبهم بضعفهم لا بقوته : إنهم « أتباع » .

تراخت فيهم قوة المذافعة . . فأصبحوا مستأنسين . . ونحن مطالبون بتحرير هذه الطاقة . . بإنقاذ هذه الثمرة الناضجة قبل أن يغتالها العفن!

فى محافظة « إربد »

ولله تعالى حكمة هو بالغها:

وقد كان من حكمته وتدبيره عز وجل أن أكون فى «إربد» وفى مسجدها الكبير.

وحتى تتم الرواية فصولاً . . فقد فوجئت بالشيخ « أحمد » نفسه يطلب منى التنازل عن حقى فى الحديث . . ليتحدث هو . .

وقد انبرى له مؤذن المسجد والذى بين له أن المتحدث هو: ضيف وزارة الأوقاف:

والحق أقول: لقد استمع الشيخ أحمد واستجاب طائعًا . . ما يؤكد حكمة الرجل . . ويؤكد فى نفس الوقت : كم يخطئ منطق المظاهرات حين يريد فرض الرأى . . وبالقوة.

ألا إن ذلك نوع من الاستبداد . وإنه لتارك أثره على الأخلاق . كما ذكر الكواكبى.

[فالاستبداد : يتصرف فى أكثر الميول الطبيعية . والأخلاق الفاضلة فيضعفها. أو يفسدها : إنه يفقد الإنسان عاطفة الحب: فهو لا يحب قومه . لأنهم عون الاستبداد عليه . ولا يحب وطنه . . لأنه يشقى فيه . . وهو ضعيف الحب لأسرته . . لأنه ليس سعيداً فيها ، وهو لا يركن إلى صديقه . . لأنه قد يأتى عليه يوم يكون فيه عونا على الاستبداد . ومصدر سرٍّ له] .

وإذ يتحدث الكواكبى هنا عن الاستبداد السياسى . . فإن النتيجة واحدة فى الاستبداد الفكرى : وقديما قالوا : [احترس من صاحب الكتاب الواحد: ذلك

بأنه يحفظه ويعتز به وليس هناك فى زعمه . . كتاب سواه] .

وخرجت من « المسجد الكبير» فى إربد . . لأدخل فى حوار خاطف مع سائق السيارة:

بدأ هو الحوار: لما علم بأننى فى « جامعة اليرموك » .

قال: أنتم مقصرون أيها العلماء . . ولم يبق إلا « الإرهاب » سبيلاً إلى الانتصار على عدونا :

وقلت له وعلى الفور .

أولا: أنا « مدرس » ولست عالما . . فأنا لست طرفا فى القضية !! .

وثانيًا : اسمع يا بنى: إننا مأمورون بالاستعداد : بإعمال ملكة « الابتكار » بحيث نملك ترسانة من الأسلحة . . ومن كل نوع . . لماذا؟ لنرهب بهذا السلاح أعداءنا . . والترهيب يعنى هنا: التخويف:

أن نخوف الأعداء بما يردعهم من الأسلحة المادية لأنهم لا يخافون إلا بعيونهم ويعنى ذلك: أنهم إذا خافوا ... تراجعت عندهم فكرة الحرب . . بمعنى أنه: لا يكون قتال . .

وبذلك نكون بالتخويف . . بالترهيب . . نكون قد حقنا الدماء . . . دماءنا . . ودماءهم . .

وتلك هى إنسانية الإسلام . . والتى تريد بفهمك إغفالها !!

أما ما سمعت

أ ـ فقد سمعت ما أعجبنى :

١ ـ شاب أردنى: يخترع سجادة للصلاة بها جهاز يحول بين المصلى وبين أن يسهو فى صلاته.

ب ـ ومن ملكة الابتكار والطموح . . إلى قيمة التضحية التى حملت فتى أردنيا على رفض بيع قطعة أرض له فى مكان حساس رافضا الإغراء بالمال الجزيل مؤثرا ولاءه لدينه وأمته .

وعلى مستوى القمة

وقد كانت القاعدة على مستوى القمة :

القمة : التى كانت طليعة الركب . . فنسجت « القاعدة» على منوالها ، فقد تبرع واحد من الأمراء بنفقات « تفسير » للقرآن الكريم وزع على كل مساجد الأردن .

ثم عزز هذا « الأمن النفسى » بالأمن الغذائى : حين أطعم الجائع . وكسى العريان . .

ويذكر لى هذا المستوى العالى من الشباب . . بهؤلاء الصحاب . . الذين دعوا رفيقًا لهم إلى رحلة سياحية ، فاعتذر قائلاً :

لقد دخلت بالأمس سنّ الأربعين . . فأنا أستحيى من سنِّى ؟!

ويبدو أن هذه الأريحية جزء من طبيعة الحكم هناك : فقد دعانا سمو الأمير « الحسن » إلى وليمة رمضانية عززها بوجبة ثقافية شهية . . أكدت أن هذه الأريحية كما قيل بحق .

سجيه تلك فيهم . . غير محدثة .

• • •

محققا آمال العدو الذى يرمينا بدائه .. ثم ينسل !

واعلم يا بنى : أن تفسيرك الآية الكريمة يعنى : أنك شاهد بأن الله سبحانه وتعالى أراد بك كذا وكذا فكأنك « توقع » عن الله عز وجل : وهذا أمر جد خطير . . فلتكن منه على حذر .

وأخيرًا :

لاشك أن فيك خيرًا . . وإنما نريد استثمار هذا الخير لصالح الدعوة . . بدل أن تقدمه سلاحا فى يد أعدائنا . . فى وقت هم أقدر منا إعلاميا ـ على التهريج وترويج الباطل . . وعلى أى حال مرحبا بك صديقًا عزيزًا . . ونحن من الذين لا يطلقون الأحكام عامة : وإنما أنا وأنت على ما يقول الشاعر :

لا تنم كفّى إذا السيف نبا صحّ منى العزم . . والدهر أبى!

المشكلة والحل

قال صاحبى : تلك هى المشكلة : فما هو الحل إذن ؟ قلت : الحل هو :

أ ـ صحبة الأخيار الأبرار ، فلعل الخير أن ينتقل إلى شبابنا بالعدوى :

يقول أحد الباحثين :

ويراد من صحبة الأخيار أصلاح الأعمال والأحوال والاقتداء بهم فى ذلك ، والانتقال من الغفلة إلى اليقظة ، ومن البطالة إلى العمل ، ومن التخليط إلى التكسب والقول والفعل إلى الورع ، . ومعرفة النفس وآفاتها واحتقارها . فأما من صحبهم وافتخر بصحبتهم وادعى بذلك الدعاوى العريضة وهو مصر على غفلته وكسله وبطالته فهو منقطع عن الله من حيث ظن الوصول إليه ، كذلك المبالغة فى تعظيم الشيوخ وتنزيلهم منزلة الأنبياء هو المنهى عنه .

وقد كان عمر وغيره من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم يكرهون أن يطلب منهم الدعاء ويقولون « أنبياء نحن ؟ » فدل على أن هذه المنزلة لا تنبغى إلا للأنبياء

عليهم السلام وكذلك التبرك بالآثار فإنما كان يفعله الصحابة رضى الله عنهم مع النبى ﷺ ولم يكونوا يفعلونه مع بعضهم ببعض ولا يفعله التابعون مع الصحابة مع علو قدرهم.

فدل على أن هذا لا يفعل إلا مع النبى ﷺ مثل التبرك . بوضوئه وفضلاته وشعره وشرب فضل شرابه وطعامه .

وفى الجملة فهذه الأشياء فتنة للمعظم وللمعظم لما يخشى عليه من الغلو المدخل فى البدعة ، وربما يترقى إلى نوع من الشرك ، كل هذا إنما جاء فى التشبه بأهل الكتاب والمشركين الذى نهيت عنه هذه الأمة . وفي الحديث الذى فى السنن « **إن من الله إجلال إكرام ذى الشيبة المسلم ، والسلطان المقسط ، وحامل القرآن غير الغالى فيه والجافى عنه** » فالغلو من صفات النصارى ، والجفاء من صفات اليهود، والقصد هو المأمور به.

وقد كان السلف الصالح ينهون عن تعظيمهم غاية النهى كأنس والثورى وأحمد . وكان أحمد يقول: من أنا حتى تجيؤوا إلىّ ؟ اذهبوا اكتبوا الحديث ، وكان إذا سئل عن شيء ، يقول : سلوا العلماء . . وإذا سئل عن شيء من الورع يقول: أنا لا يحل لى أن أتكلم فى الورع ، لو كان بِشْرٌ حيا تكلم فى هذا.

وسئل مرة عن الإخلاص فقال: اذهب إلى الزهاد ، أى شيء نحن حتى تجيء إلينا ؟ وجاء إليه رجل فمسح يده على ثيابه ومسح بها وجهه ، فغضب الإمام أحمد وأنكر ذلك أشد الأنكار وقال: عمن أخذتم هذا الأمر ؟

(الثانى) التشبه بأهل الخير والتقوى والإيمان والطاعة فهذا حسن مندوب إليه، ولهذا يشرع الاقتداء بالنبى ﷺ فى أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته وآدابه وأخلاقه . وذلك مقتضى المحبة الصحيحة، فإن المرأ مع من أحب ، ولابد من مشاركته فى أصل عمله وإن قصر المحبة عن درجته.

قال الحسن لا تغتر بقولك : المرء مع من أحب ، إن من أحب قوما اتبع آثارهم ، ولن تلحق الأبرار حتى تتبع آثارهم وتأخذ بهديهم ، وتقتدى بسنتهم ،

وتمسى وتصبح وأنت على منها جهم ، حريصًا أن تكون منهم ، وتسلك سبيلهم، وتأخذ طريقتهم ، وإن كنت مقصرًا فى العمل ، فإن ملاك الأمر أن تكون على استقامة . أما رأيت اليهود والنصارى وأهل الأهواء الردية يحبون أنبياءهم وليسوا معهم لأنهم خالفوهم فى القول والعمل وسلكوا غير طريقتهم فصار موردهم النار نعوذ بالله من النار . كان يونس بن عبيد ينشد:

فإنك من يعجبك لأنك مثله إذا أنت لم تصنع كما كمان يصنع

وجاء فى الحديث : « **ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا** » فمن أحب أهل الخير وتشبه بهم جهده فإنه يلحق بهم كما فى الحديث المشهور : « **من حفظ أربعين حديثًا حشر يوم القيامة فى زمرة العلماء** » ومن أحب أهل الطاعة والذكر ـ على وجه السنة ـ وجالسهم فإنه يغفر له معهم وإن لم يكن منهم « **فإنهم القوم لا يشقى بهم جليسهم**» .

فأما التشبه بأهل الخير فى الظاهر ، والباطن لا يشبههم فهو بعيد منهم ، وإنما القصد بالتشبه أن يقال عن المتشبه بهم أنه منهم وليس منهم فهذا من خصال النفاق كما قال بعض السلف : « **استعيذوا بالله من خشوع النفاق أن يرى الجسد خاشعًا ، والقلب ليس بخاشع** » .

كان السلف يجتهدون فى أعمال الخير ويعدون أنفسهم من المقصرين المفرطين المذنبين ، ونحن مع إساءتنا نعد أنفسنا من المحسنين .

كان مالك بن دينار يقول إذا ذكر الصالحون « أف ، أف لى وتف » وقال أيوب : « **إذا ذكر الصالحون كنت عنهم بمعزل** » وقال يونس بن عبيد « أعد مائة خصلة من خصال الخير ليس فى منها واحدة» وقال محمد بن واسع « لو أن للذنوب رائحة لم يستطع أحد أن يجلس إلى ».

يا من إذا تشبة بالصالحين فهو عنهم متباعد ، وإذا تشبه بالمذنبين فحاله وحالهم واحد ، يا من يسمع ما يلين الجوامد وطرفه جامد ، وقلبه أقسى من الجلامد ، يا من يرد قلبه عن التقوى ، كيف ينفع الضرب فى حديد بارد؟

يا نفس أنى تؤفكين؟ حتى متى لا ترعوين؟
حتى متى ، لا تعقلينا وتبصرين وتسمعينا
يا نفس إن لم تصلحى فتشبهى بالصالحينا

ب ـ التسلح بالوعى الكامل .. على الأقل لتفادى مخاطر الطريق فإن الاندفاع نوع من الغفلة يقفز بالمتحمس فوق « محطات » على الطريق لابد من الوقوف عندها . وإلا فإن غياب هذا الوعى خطر عظيم .. طالما حذر منه الصالحون :

ذكروا أن « الشبلى » دخل على « الجنيد» كالسكران .. متواجداً.

فقال له الجنيد : إذا كنت فى حضرة الله تعالى : فهذا سوء أدب ، وإن لم تكن في حضرته سبحانه فبأى شيء ظفرت حتى تتواجد ؟! وإذا كان هناك كمن ساروا على الماء .. فهناك رجال أفضل منهم: هلكوا بالعطش !

وقد رووا أن رجلا قال لابن المبارك : إن فلانا حين يقرأ القرآن تنقطع صلته بالحياة من الوجد .

فقال ابن المبارك : قل له: اقرأ القرآن من فوق جدار ؟!!

وقد رأى عمر رضى الله عنه شابًا يمشى متماوتا .. فعلاه بالدرة قائلا : ادخرها لشيخوختك !

وقال لآخر : لا تقفز قفز قطّاع الطرق!!

جـ ـ ضرورة التعامل مع الحياة بإيجابية . ومحاولة الاستجابة لما تمليه من دروس .

يقول كاتب عصرى: علمتنى الحياة ما علمته لكثيرين غيرى فما أظن أننى تلقيت من الدنيا (درسا خصوصيًا) وإنما المسألة هي أن بعض الناس يلتفت إلى ما تعلمه إياه الدنيا وبعض الناس يعيشون مغيبين أو كالمغيبين ولا يستفيدون من

دروس الحياة .

علمتنى الحياة كثيراً ومازالت برغم تقدم العمر تعلمنى أموراً جديدة .

علمتنى الحياة : أن الطبيعة البشرية ليست شراً محضا ولا خيرا محضا ، وإنما هى خليط بين الأمرين ـ حقا قد تزداد نسبة هذا هنا وتزداد نسبة هذا هناك ولكن يبقى الإنسان وهو يحمل فى جنباته العنصرين جميعًا حتى مع اختلاف النسب التى يبدو أحيانا واسعا . فهناك نفوس بشرية تسمو حتى لكأنها لا تحمل شراً قط ، وهناك نفوس أخرى تتدنى حتى كأن لا خير فيها . وكلا الأمرين غير صحيح . . وقد ترى إنسانًا تحسبه شريراً ممعنا فى الشر ثم إذا بقدر من التفهم والمعاملة الحانية تجعل ذلك الشرير وكأنه أصبح إنسانا آخر . والعكس أيضًا صحيح .

وعلمتنى الحياة : الا أنتظر كثيراً من أحد ولا حتى من أقرب الأقرباء . فإنك عندما تنتظر ولا يتحقق ما تنتظره تصاب بصدمة على حين أنك عندما لا تنتظر شيئًا ويحدث غير ما توقعته فإن أثر ذلك يكرن طيبا . إن الوفاء فى الدنيا قليل . . حقًا هو موجود . ولكنه نادر ، ذلك لأن الوفاء التزام وعطاء وهما آمران أصعب على النفس البشرية من الانفلات الذى لا يعرف عطاء ولا التزاما .

وعلمتنى الحياة : أن التوازن هو خير كبير ، . عو ما عبر عنه الأقدمون بالوسط الفاضل ، ومع ذلك فالإنسان مهما يكن متوازنا فهو معرض فى حالات كثيرة إلى ما يقال له النزوات أو الانفعالات . . وهى نوع من فقد التوازن ، والعاقل هو من يحاول أن يستعيد توازنه وألا يترك حبل النزوات أو الانفعالات يذهب به بعيداً .

وعلمتنى الحياة : أن الندم على ما فات غير مجد وإن كان لا يخلو من درس وعبرة ، إن ما فات فات ولن يغير منه الندم ، ولكن الندم إذا كان مصحوبًا بنوع من الدرس والتحليل والوعى قد يفيد الإنسان ويجنبه فى المستقبل أن يعيد فعل ما ندم عليه .

وعلمتنى الحياة : أن الآمال الكبيرة والأحلام العريضة تبدو كذلك وهى لم

تتحقق فإذا تحققت أو تحقق بعضها عادت إلى حجمها الطبيعي بغير إبهار . وما أصدق العبارة التي تقول : (سعيت ثم سعيت وأخيرًا لم أجد تحت القبة شيخًا) قد أجد تحتها شيئًا ولكني يقينا لن أجد تحتها ما كان يصوره الخيال.

وعلمتني الحياة : ألا أتسرع في الحكم على شيء خاص على النفس البشرية. فالنفوس البشرية سراديب مغلقة ومعرفتها ليست سهلة ومن المجازفة أن نلقي بالأحكام دون معرفة وتان واختبار .

وعلمتني الحياة : أن تكون كما أنت ولا تحاول أن تظهر بغير حقيقتك فإن ذلك سرعان ما ينكشف وكم من الناس لا يكفون عن ترديد عبارة أنهم صرحاء أو أنهم موضوعيون وهم في الحقيقة لا صلة لهم بالصراحة ولا بالموضوعية وأنهم بعد خطوة أو خطوتين سينكشفون للناس .

وعلمتني الحياة : أن كثيرا من الحكم التي يرددها من نعتبرهم من عامة الناس أو تلك التي كانت تقولها أمهاتنا من غير علم ، هي خلاصة تجارب الدنيا (امش عدل يحتار عدوك فيك) أو غير ذلك من حكم الدنيا البسيطة والصادقة ، هذه الحكم هي منارات هادية في وعثاء الطريق .

وعلمتني الحياة : أن السعادة الحقيقة قد تكون في سماع كلمة صغيرة صادقة أكثر منها في صفقة مالية تحقق ربحا ضخمًا ، وقد تكون في نظرة حانية محبة أكثر منها في كثير من مظاهرة الحياة وصخبها ، وكل ذلك يتوقف على ما تريد من الحياة.

وعلمتني الحياة : أن التمسك بالقيم واحترام النفس والبعد عن المغانم الرخيصة تعلي من قدرك عند نفسك وعند الآخرين حتى وإن لم يصرحوا بذلك .

وعلمتني الحياة : أن وقت الراحة لازم لحسن أداء العمل وأن النظام يضاعف الحصيلة أضعافا مضاعفة.

وعلمتني الحياة : أن الكلمة الصادقة والمخلصة تجد طريقها إلى القلوب بيسر

وسهولة ، وقد يخاف كثير من الناس أن يعبروا لك عن تأييدهم أو موافقتهم على ما تقول ولكنهم فى داخل أنفسهم ينطوون لك على احترام وتقدير . بل ويدعون الله : « أن يكثر من أمثالك » حتى ولو لم يكونوا هم من أمثالك!

وعلمتنى الحياة : أن « اللغة » ليست مجرد وسيلة للتعبير والتخاطب وإنما هى على الأخص فى فترات الغربة ـ وعاء الثقافة والحضارة وأداة الاتصال النفسى والعاطفى والإنسانى . إن اللغة أكثر كثيراً من أن تكون مجرد أداة تخاطب وتعبير .

وعلمتنى الحياة : أن المسافة كثيرة ما تكون بعيدة بين القول والعمل . . والمتنبى هو الذى كان يقول :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويختلف الخلق جراها ويختصم

والمتنبى الذى يقول ذلك لم يعرف فى الواقع طعم النوم الهانئ وإنما عاش حياة كلها توتر وصراع ورغبة فى السلطان وانتهى به الأمر إلى دفع حياته ثمناً لهذا الوهم الذى كان يسعى وراءه وليته اكتفى بعبقريته الفذة التى حباه بها الله .

ولكنه لم يقنع . . وكذلك كان الثمن هو التعاسة والتغرب ثم القتل فى البيداء .

وعلمتنى الحياة : أننى استيقظ أحيانا فاحس كأنى لم أتعلم شيئًا قط وأن على أن أبدأ التعلم من جديد .

الدعوة مستمرة :

ثم تفضل سماحة الوزير بدعوتى للمرة الثالثة . . فكنت سعيداً :

أولا : بلقاء الأحبة هناك .

وثانيا : بالتعاون على البر والتقوى مع نخبة من الزملاء فى بلد محب للعلم مقدر لأهله .

فى جامعة اليرموك

نسيت أن أقول :

أننى قبل ذلك كنت أستاذا زائرًا بكلية الشريعة « جامعة اليرموك » بدعوة من الصديق العزيز ا.د عبد الناصر أبو البصل.

ومكثت هناك شهورًا .. فى صحبة زملاء . وطلاب .. أكدوا ما لدىّ من تقدير لهذا البلد الأمين .. الذى أعتبره بحق وطنى الثانى.

أما بعد :

فقد كان التكليف هناك سهلا .

ومن سهولته أنه أتاح لى فرصا ذهبية : بالليل وبالنهار :

كنت أخلو فيها بنفسى فى مأمن من مشاغلى بالقاهرة .. فقررت ملء هذا الفراغ بإعادة النظر فى أضابيرى التى صحبتها معى .. والتى صارت هذه الصفحات التى بين يديك مجموعة فى كتاب.

ولقد أتصور من يقول : كيف تسمى هذه الأفكار المختلفة « كتابا » ؟ والجواب على لسان شيخنا « على الطنطاوى » والذى قال : [لا تقولوا : إن جمع المقالات فى كتاب يفقد الكتاب معناه ويذهب وحدة موضوعة] .

فإن هذا الكلام ـ على صحته ـ لم يأخذ به أحد :

هاهم أولاء الكتاب الذين سبقونا .. وكانوا قبلنا :

وقرأنا ما كتبوا ، واستفدنا منه . كلهم جمع مقالاته فى كتب .

من أمثال:

العقاد . والمازنى ، وطه حسين ، والرافعى ، والزيات.

الذين كانوا أئمة الأدب . وكانوا سادته .

كل منهم جمع مقالاته فى كتب .

وإلا فخبرونى ماذا يصنع بها ؟

يرميها ؟ يمزقها ؟ يحرقها ؟ حتى تضيع فيضيع معها أدب كثير . ويفقد بفقدها نفع كثير .

ولو أن كاتب المقالات حين يجمعها يقصّ مع كل مقالة قصتها ويبين ظروف كتابتها . . لو فعل ذلك . . لجاء منه كتاب ينفى ما ينكرونه عليه من فَقْد الوحدة فى الموضوع ا.هـ .

والله ولى التوفيق

د/ محمود محمد محمد عمارة

٢٦ رمضان ١٤٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المجالس العلمية الهاشمية

هذه المجالس العلمية الهاشمية . المباركة :

لها مبنى . . ولها كذلك : معنى .

أما مبناها :

فهو هذا الذى ترونه بأبصاركم .

وأما معناها : فهو ذلك الذى تحسونه ببصائركم .

تشاهدون بأبصاركم :

إرادة ملكية مباركة :

إرادة : تخلقت . . ثم صارت توجيها . . فتمويلا . . فرعاية . وإن شئت قلت : راية : على حد قول القائل :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقّاها « عرابة » باليمين

وعرابة هنا هى :

وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية فى شخص وزيرها : الداعية البصير :

سماحة الأستاذ الدكتور / **أحمد هليل**

والذى انتقلت به الإرادة الملكية النبيلة إلى الإدارة الحازمة الحكيمة . . والتى كان من مظاهرها :

تلك الكوكبة العاملة الآملة من رجال وزارة الأوقاف . . وعلى رأسها عطوفة الأمين العام : الأستاذ عبد الفتاح صالح .

وهكذا تتحول « الفكرة » من أمل فى القلب إلى عمل فى الواقع .

من حكمة الإرادة إلى عزيمة الإدارة

وأما معنى هذه المجالس :

فهو ما تحسونه ببصائركم: إنها دعوة إلى « العلم » .

ولكم أن تتصوروا فتى يحمل كتابه وقلمه متخذا سبيله إلى معلمه :

إنه فرد واحد يمضى فى الفلاة وحده :

ومع ذلك . فهو محفوف بالملائكة التى تضع له أجنحتها تحية له من عند الله مباركة طيبة .

وحتى الحيتان فى البحر: إنها تدعو له بالمغفرة.

وهكذا يحتسد العالم العلوى والعالم السفلى . . حول فرد واحد

فما بالكم بهذا الحشد الهائل من طلاب العلم :

إننا نعيش مهرجانًا عظيمًا . . يساوق هذا الكم . . وهذا الكيف . . فإذا تصورت أن ذلك يتم فى رمضان ذلك الشهر الخصيب الذى يضاعف فيه الأجر . .

إذا تصورت هذا . . بدت لك خصوبة هذه المجالس والتى تبدو شعلة مباركة، متوهجة بالزيت المبارك . . هذه الشعلة التى تظل كذلك أبدًا لا تنطفئ : لا فى حرّ الصيف . . ولا فى برد الشتاء .

وهكذا : حملتكم أقدامكم إلى هنا . . على طريق من طرق الجنة سبيلا إلى جزاء من جنس عملكم . . وعمل الذين دبروا والذين نفذوا .

طريق هو فى الواقع مخرفة من الجنة . . الجنة التى تتفتح أبوابها اليوم: فلن يطرد أحد من الباب . . لأنه له مكان فى الرحاب .

وإلى مزيد من الوقار . . سبيلا إلى مزيد من سلامة القرار.

والحمد لله الذى تتم بنعمته الصالحات .

رمضان وفرصتنا الذهبية

عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال : « **كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنى لى. وأنا أجزي به** » .

« **والصيام جنة: وإذا كان يومُ صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب**» .

« **فإن سابه أحد أو قاتله .. فليقل إنى امرؤ صائم** » .

«**والذى نفس محمد بيده: لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**» .

« **للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقى ربه فرح بصومه**»

رواه البخارى.

لماذا كان الصيام له عز وجل ؟

إن الصيام ليس عملا كالحج والصلاة يمكن رؤيته ، وإنما هو « ترك عمل ».

وهو بهذا المعنى لا يُرى بالعين المجردة ، وإنما أمره إلى الله .

إنما أمر العبد فيه إلى ربه الذى يقدر له صومه . الذى لا يشرك معه غيره سبحانه .. من حيث يستطيع الممسك أن يأكل أو يشرب .. ثم لا يراه أحد .. ولكنه ماض على العهد لا يخون ولا يغدر .

عظم الأجر: اعمل أيها الأجير .. وأنا مقدر ـ لا غيرى ـ مقدر تعبك . قادر على الوفاء بحقك.

وكون الصائم .. فارغا .. فقد يحاول أن يتسلى بالخوض فيما لا يفيد : ومن ثم كان النهى : « **فلا يرفث** » .

وقد يسخن الدم تحت وطأة الجوع فعليه (ألا يصخب) .

ذات يوم: مر الحسن البصرى رحمه الله بقوم يضحكون ـ وهم فى شهر رمضان فوعظهم قائلا : « إن الله عز وجل جعل شهر رمضان مضمارًا لخلقه » .

يستبقون فيه لطاعته: فسبق قوم ففازوا . وتخلف أقوام فخابوا : فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب . في اليوم الذى فاز فيه السابقون وخاب فيه المبطلون.

أما والله. لو كشف الغطاء . . لا شتغل المحسن بإحسانه . والمسيء بإساءته.

وقد علق الإمام الغزالى على ذلك فقال: [أى : كان سرور المقبول يشغله عن اللعب.

وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك] وهكذا : (كم من صائم مفطر . وكم من مفطر صائم : والمفطر الصائم هو :

الذى يحفظ جوارحه عن الآثام ويأكل ويشرب.

والصائم المفطر هو : الذى يجوع ويعطش . . ولكنه يطلق جوارحه.

وهكذا أيضًا فهم الصالحون معنى الصوم كما يجب أن يكون . . وتحملوا مسؤوليته انتظارًا لعاقبته.

قيل للأحنف بن قيس : إنك شيخ كبير . وإن الصيام يضعفك ، فأجاب إنى أعده لسفر طويل : والصبر على طاعة الله سبحانه وتعالى أهون من الصبر على عذابه.

فكلوا واشربوا ، ولكن : من الحلال الطيب : ﴿ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ [المؤمنون: ٥١].

ولكن: لا تسرفوا .

والصيام : وسيلة قمع هذا السرف أو الترف!

ومع كونه تعالى معبودًا بكل العبادات فالصيام « لى » مع أن الكل له تعالى.

من كنوز السنة : ولأن الصيام هكذا ربيع تضاعف فيه الحسنات . . فقد كان ﷺ يستثمر شهر رمضان فى العمل الصالح . . وفى مقدمته الإنفاق.

فقد كان جوّادًا فى كل مراحل حياته كأنه الريح المرسلة:

ريح مطلقة : تنقل اللقاح . . وتسوق السحاب . . فتخضر الوديان . . ويسعد الإنسان :

وإذا كان خلوف فم الصائم . أطيب عند الله من ريح المسك . . فكم يكون للجود فيه من أثر يذكر فيشكر .

أما بعد :

فعجيب أن نمتنع عن الطعام والشراب . . لتصح جسومنا ـ ثم لا نمتنع عن الذنوب لتصح أرواحنا.

• • •

من ذكريات رمضان

قال الرجل المجرب وهو يتحدث عنه ذكرياته التى يجد فيها نفسه . . ويسترد بها أمسه : كنا جياعا . . نحتاج إلى الطعام . . فلما جاء الطعام . . فقدنا الشهية ولما قيل : صعب أن ينال المرء كل ما يشتهيه .

قال حكيم : وأصعب منه . . أن يشتهى المرء ما لا يناله !

• • •

الرأى النضيج

فى رمضان . . وعندما دخل وقت المغرب . . اختلف الشبان هل : نبدأ بالصلاة . . أم بالأكل ؟ واحتدم الخلاف .

وكان مجىء الشيخ رحمة مهداة . . والذى حسم هذا الاختلاف بهذا السؤال: لو بدأنا بالصلاة . . ففيم نفكر ؟ قالوا : نفكر فى الأكل .

فقال الشيخ: وإذا بدأنا بالأكل . . ففيم نفكر ؟ فقالوا : نفكر فى الصلاة !

فقال : فلنبدأ بالأكل . . لنفكر فى الصلاة !!

• • •

الرد المسكت

دخل « أحمق » على « الشعبى » وهو جالس مع امرأته . . فقال الأحمق:

أيكم الشعبى ؟ فقال الشعبى : هذه !! (وأشار إلى امرأته) !.

فقال الأحمق: ما تقول ـ أصلحك الله . . فى رجل شتمنى فى أول يوم من رمضان . . هل يؤجر ؟! فقال: إن كان قال لك : يا أحمق ، فإنى أرجو له الأجر !!

• • •

خواطر العيد

شوهد الإمام علىّ رضى الله عنه . . وكان ذلك يوم العيد . . شوهد وهو يأكل خبزًا خشنا فلما قيل له:

أتأكل ذلك . . واليوم عيد ؟ وغيرك يأكل الرقاق ؟!.

فأجاب : العيد : لمن قبل صومه . . وغفر ذنبه ، وكل يوم عيد . . إذا لم تعص الله فيه .

وكانت له مدرسة : فقد شوهد ولد لصحابى جليل يلبس يوم العيد ثوبًا خشنا .

فلما رئى له أبوه قائلاً : أخشى أن ينكسر قلبك إذا رآك زملاؤك ، فقال : المنكسر : من عصى ربه.

وهذه النماذج هى التى يغيظ الله سبحانه بها إبليس الذى شوهد مغتمًا يوم العيد فلما سئل قال : من غفران الله ذنوب عباده .

بين الأمس واليوم

لقد كان الآباء وكان الأطفال . . كانوا جميعًا يفرحون بالعيد .

ثم ، لما غلت الأسعار . . فرح الأطفال وحدهم !

واليوم . . لم يعد يفرح بالعيد أحد؟!

ولكن الشيخ « على الطنطاوى » يحاول أن يجبر الخاطر المكسور بقوله :

ليست السعادة بالأموال ، ولا بالقصور . ولا بالخدم والحشم.

ولكن : بسعادة القلب.

وإن أقرب طريق إلى سعادة القلب : أن تدخل السعادة على قلوب الناس ، وإن أكبر اللذات هى لذة الإحسان.

فمن أراد أن يجد العيد . . فلن يجده فى سفره إلى لندن ولا باريس . ولا « بانكوك » ولا نيس .

بل يجد على وجوه من توليهم الإحسان ا . هـ.

• • •

يوم الجائزة

وأعمق السعادة فى يوم تتسلم فيه « الجائزة » جائزة النجاح فى امتحان « الزهد » الزهد المتضمن معنى الحرمان . .

يقول د/ زكى مبارك: الزهد لا يدل على قوة النفس . . إلا إذا تضمن معنى الحرمان . .

والحرمان . . مما تملك . . أصعب من الحرمان مما تؤمّل به .

لأن المِلْك : يغريك بالحرص . ويطعمك فى المزيد .

أما المأمول : فهو سراب والخفة إليه غير مضمونة فى جميع الأحوال .

وإذن .. فالزهد فضيلة الفارغين فى المأمول .

• • •

الأمنية الكبرى

عن أبى مسعود الغفارى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وأهلَّ رمضان فقال: « **لو يعلم العباد ما رمضان .. لتمنّت أمتى أن تكون السنة كلها رمضان** ... » .

رواه الطبرانى فى الكبير ، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه ، والبيهقى ، وفى الترغيب (١٤٩٨).

وتمنّى أن تكون السّنة كلها رمضان .. إنما يكون ذلك لِمنْ « علم » .

ولكن الناس لا يعلمون .. ومن ثمّ ينطلقون وراء شهواتهم .. على مدى السنة كلها وحتى إذا أهل رمضان .. فإنهم يرخون الحبال للنفس .. لتظل سادرة فى شهواتها حتى تجمح بهم .. عن سواء الصراط ،، وعلى ما قيل فى تعبير كاشف ساخر : إن الناس إذا أقبل رمضان جعلوه أثلاثا:

عشرة للمرق !

عشرة للخرَق !!

عشرة للحلَق !!!

بمعنى أنهم يجعلون الشهر لهوًا ولعبًا فثلثه .. لطعام ، وثلث .. للباس العيد . وثلث .. لمختلف الحلوى !! .

ومعنى ذلك أنهم ذهبوا فى الأرض حيارى ولعلنا ندرك سر نداءهم بحرف النداء « يا » والذى ينادى به البعيد : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا**... ﴾ فقد بعدت بهم الشّقّة ، وهم مطالبون بالعود الحميد إلى الصيام .. إلى حيث يسيطرون على

النفس . . التى من خيرها أن يتجه الصائم بها إلى الشدائد . . بدل أن تجره هى إلى الفواحش!!

إن الإحساس بالقيم الإنسانية . . قد رسب فى الأعماق . وهو اليوم . . وبالصوم ينادى كى يطفو على السطح . . لندرك به دورنا . . وما تريده أنفسنا بنا . .

• • •

إدراك العواقب

يقول واحد من تلاميذ الحسن: كان الحسن البصرى إذا عاد مريضًا . . لم ننتفع به يومًا . . وليلة .

فإذا شيع جنازة لم ينتفع به أهله وولده وإخوانه ثلاثا !! .

إن بلادة الحس اليوم تمنع الإنسان من إدراك العواقب .

ومن ثم . . ينغمس فى لذات الدنيا .

أما إذا كان الحس حادًا . . مدركا يوم الحساب مقدرًا عمق المسؤولية عن كل قول وعمل . . كما كان الحسن رضى الله عنه . . فإنه يحمل الإنسان فوق ما يطيق .

حتى إذا عاد مريضًا أو شيّع راحلاً ـ تداعت فى ذهنه المعانى . . فتصور ما بعد ذلك . . فكان ما كان .

قال عمر رضى الله عنه لرجل رآه عائدًا من السوق محملا بكل ما لذ وطاب: « أو كلما اشتهيتم . . اشتريتم ؟!!

وهكذا يفعل من لا يفكر فى العواقب أما من يفكر فإنه دائمًا يكدر صفو نفسه الطامعة بمثل هذا النذير . . حتى يكف بأسها :

إن الموت يعمّنا .

والقبر يضمنا

والقيامة تجمعنا .

وبهذا الفكر المتسنير . . تحرروا من إمار النفس . . بينما خسر المترفون الاستمتاع بحياة مزقتهم فيها الرغائب ومنهم ذلك الذى قال:

لم يكن لى غد فأفرغت كأسى ثم حطمتها على شفتيا

أيها الخافق المعذبُ يا قلبى نزحت الدموع من مقلتيا

أفحتم علىّ إرسال دمعى كلما لاح بارق فى محيا ؟!!

لقد طالما يشمنا بالمناعم والمطاعم فامتلأت البطون . . فنامت الفكرة . . وخرست الحكمة . .

ونحن مع مطلع رمضان . . مطالبون بإعداد موائد أخرى . . من الذكر نقاوم بها موائد الطعام . . داخلين بهذا الذكر فى عالم آخر . . غير ما عهدناه من عوالم الدنيا التى من سماتها :

كلٌّ له ما أشغله .

بخل الناس بمثل الخردلة .

فاطلب مما أنت له !!

ومهما حصّلنا من مباهج الدنيا . . فمن نكون نحن ؟! من نكون . . فضلا عما يكون منا ؟!!

فليكن الصوم مرفأ النجاة فصوموا :

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فالصوم شعيرة قديمة : صام الوثنيون . . والبوذيون . . ولكن لا من أجل قتل الجسم . . وإزهاق طاقته وهو مرتبط بالشهر القمرى . . لماذا ؟

١ ـ لنتفكر فى خلق السموات والأرض .

فالشهور القمرية متغيرة . . وبهذا التغير يحاول المسلم الانسجام مع الحياة المتغيرة :

وأن كل شيء يتغير . . إلا قانون التغير نفسه !

أما بعد :

فعندما تتحرر الروح من البطون المتخمة ، فإنها عندئذ تستطيع الطيران . إلى دار هى الحيوان .

الحيوان .. يرعى
والإنسان .. يأكل

يقول الله عز وجل : ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ [طه: ٥٤] .

إن من شأن الإنسان أنه « يأكل » . . أما الحيوان : فإنه يرعى !

ومعنى أن الإنسان « يأكل » : أنه خاضع فى غذائه لمجموعة من الآداب التى بها يظل إنسانا . . له كرامته .

ولقد جاء رمضان ليأخذ الإنسان بهذه الآداب على مدى شهر كامل . . فلعله أن يفيق من سكرة الترف . . منضبطا فى أكله كمًا وكيفًا وافيا نفسه من مضاعفات هذا الترف ليظل صالحا لتحمل مسؤولية الخلافة فى هذه الأرض .

ولقد توالت توجيهات المصلحين من أمتنا مؤكدة ضرورة الانضباط . . فرارًا من مضاعفات التخمة ، ومما قالوه:

أن جسم الإنسان كالزرع.

إن كثر عليه الماء . . ذبل !

وبنفس القوة : إن كثر حوله « السماد » فسد !

ومن تدبير الله تعالى: أن الجسم الصحيح لا يحتفظ من الماء إلا بقدر حاجته: فمن شرب كثيرًا ـ قبيل الإمساك ـ واهم لأن جسمه سوف يتخلص من الماء الزائد . .

وإذن فنحن بالإسراف والتكلف قد نفسد صيامنا ؟!

والمفروض أن تكون القسمة عادلة: ثلث للطعام . وثلث للشراب ، وثلث للنفس .

قال رجل ليحيى بن أكثم : أصلح الله القاضى . . كم آكُل ؟

قال : فوق الجوع . . ودون الشبع . .

قال : فكم أضحك ؟

قال: حتى يسفر وجهك . . ولا يعلو صوتك .

فقال : كم أبكى؟

قال : لا تَملَّ من البكاء من خشية الله .

فقال : وكم أُخفى من عملى ؟

قال: ما استطعت .

فقال: وكم أجهر منه ، فقال: بمقدار ما يُقتدى بك . . ويؤمن عليك الرياء !

وسأل رجل أحد الفلاسفة عن الوقت الذى يجب أن يأكل فيه . . فقال الفيلسوف : إن كنت غنيا : فكل فى الوقت الذى يعجبك .

وإن كنت فقيرًا : فكل فى الوقت الذى يمكنك !

ولقد كان هناك ملتزمون بهذه التوجيهات فأطلع الله شمس الإيمان فى قلوبهم . . فأينعت على ألسنتهم ثمرات الحكمة :

يحدثنا الشيخ « طنطاوى جوهرى » : أنه كيف كان طبيب نفسه : يرى خواصّ الطعام . . فيبتعد عن التغذية المعقّدة .

ويفطر فى رمضان على الطماطم النيئة ، ويشرب اللبن من الضرع . . ساعة الحلب ، ويتجنب الأملاح . والسكريات.

وتأمل كيف سبق الشيخ عصره . . عندما أكد ما شهدت بصحته الأبحاث المعملية اليوم : نشرت الأهرام فى ٢٦/ ٧/ ٢٠٠٤.

واقعنا اليوم

ولكن الواقع اليوم مختلف تماما :

فقد صار الحيوان « يأكل » بينما الإنسان جائع . . لا يملك حتى أن «يرعى»؟!

أجل . . صارت هناك للحيوان أنظمة للأغذية المعدّة . . والتى تحمى حتى «الكلاب » من الترهل ! بعدما أصيبت هناك بالتخمة المخصومة من طعام الإنسان إنه عصر المتناقضات . المضحكات المبكيات !!

وإن تعجب فعجب أن يصوم بعض الناس عن اللحوم . . بحجة أنه نباتى . . وفى نفس الوقت يشرب الخمر . . مع أنها نباتية (من العنب) !!

ورحم الله أيام زمان .

كان الناس ورقا . . لا شوك فيه . . فأصبحوا اليوم شوكا . لا ورق فيه !

• • •

رمضان .. ومستقبل الإنسان

عن طريق الصيام . . ينقطع المسلم من حاضره . . . ليعايش مستقبله .

أما حاضره فهو كما قيل بحق : نريح المعدة من الفجر إلى المغرب . . فإذا أذن المغرب : شمرنا وهجمنا نشرب ونشرب . ونأكل ونأكل . . نجمع الحار والبارد . . والحلو والحامض . . ويتحول ذلك شحمًا نحمله . . ونمشي به .

وهذا هو الحاضر المر . .

أما المستقبل : فإنه أفق التقوى الرفيع ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ : لعلكم ـ بالصوم ـ أن تحصّلوا ملكة التقوى : والتى تكون لكم « حزاما » واقيا من العذاب فى الآخرة .

وفى الدنيا تقيكم من الأمراض المهلكة : تصح المعدة بالحمية . . ويصح القلب . . بالفكرة .

وأمام هجمة مناعم الدنيا علينا . . وإذا لم يبق فينا إلا : متعمد الضرر أو قصير النظر . .

إذا لم يكن لنا من عقلنا وازع . . فسوف يكون لنا من ديننا رادع . . وهو الصوم .

الصوم . . أو الجوع . . الذى به نقتحم المستقبل مزودين بثمرات الجوع وهى : حياة القلب ، ومذلة النفس ، ثم العقل السماوى .

وكأننا بالجوع نحفر « خندقًا » بيننا وبين الشيطان الذى نغالبه فنغلبه . . فارين منه إلى عالم فسيح وسيع . . .

وإذا بالصائم ذلك الرجل الذى قيل فيه : إنى أشعر بما يشعر به الغريق . حينما تمتد إليه يد الإنقاذ ، فيصافح أنفه الهواء ، بعدما ملأ زئتيه الماء . أو السجين حينما يخلف وراءه قضبان الحديد . ويستقبل حياة الحرية من جديد .

إنه شعور المحب : امتد به الفراق . وازدادت منه الأشواق . ثم نعم بساعة التلاق . ا. هـ .

عقبات على الطريق :

وكما قالت أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها : ما رزئت الأمة بعد وفاته ﷺ بشيء إلا « الشبع » .

الشبع : الذى يقيد خطاها . . فلا تتحرك إلى الأمام ، ولا ترتفع إلى أعلى .

ذلك بأن الشبع : ينيم القلب ، ويقوى الشهوات وكفى به قيدًا مانعًا من الانطلاق .

مستقبلنا .. ومستقبلهم :

وهذا هو مستقبلنا بعد رحلة الصوم : وقاية من أوجاع الدنيا . . ثم ـ وفى الآخرة ـ رضوان من الله أكبر .

أما مستقبل « الحضارة الغربية » فهو ما قاله « نيتشه » فى كتابه : « إرادة القوة » : أنا أصف لكم ما هو آت . . وما لا يمكن إلا أن يأتى . وأعنى به ظهور « العدمية » .

ويمكن أن أقص هذا التاريخ منذ الآن لأن الضرورة تفرض ذلك .

وهذا المستقبل يتحدث عن نفسه فى مئات من الدلائل والعلامات ، وهذا المصير يعلن عن نفسه فى كل مكان .

وكل الآذان قد أصبحت مرهفة السمع لموسيقى المستقبل هذه : إن حضارتنا الأوروبية كلها تتحرك منذ وقت طويل فى انتظار معذَّب ينمو : إنها نهر يريد الوصول إلى منتهاه .

إن هذه الحضارة لم تعد تفكر إطلاقًا . . بل هى تخاف من التفكير . ا.هـ.

إن الإنسان الغربى ما زال مزهوا بنفسه وحضارته وهو يعيب على الآخرين تقصيرهم ، وعدم تمكنهم من اللحاق به وهو فى ذات الوقت يتجاهل حقائق كبيرة.

ولكن الأمل ما يزال معقودًا برحمة الله عز وجل . . أن نتجاوز بالصيام هذه الأوهام وصولا إلى مستقبل واعد كريم .

ذلك . . بأن الدين يخطط ويرسم الأهداف الكبرى . . ثم يجىء الجسم القوى . . ويجىء المال . . والاقتصاد لينفذ مناهج الدين . . ويحقق أهدافه .

وليس المراد بالصيام تعذيب الجسم بالجوع والحرمان ، ولكنه فرار بالمسلم من التخمة . . والتى تفرغ العقول من الحكمة والقلوب من العواطف كهؤلاء السطحيين الذين يقضون حياتهم بين الوهم والوهَن ، فالذين يتجاهلون غذاء الجسم . . واهمون .

والذين يتجاهلون غذاء الروح . . واهمون .

ويجىء رمضان بخطته المثلى ليحقق الله تعالى به التوازن المحقق للعدل .

العدل : الذى تكون القوة فيه . . مرصودة لتدعيم الحق .

تلك القوة التى نضاعفها نحن ـ وباختيارنا ـ لدى عدونا . وذلك بتخاذلنا عن إنجاز ما كلفنا به . . فيقوى هو قوة تخصم من حسابنا لحسابه .

وإذن . . فلابد أولا من كسر شوكة المعدة . . وقبل أن تغادر الروح هذا الجسد . . أو هذا المكان الذى لا يصلح للسكن !!

• • •

أيها الصائم .. إلى أين تسير ؟

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١]

يستدعى الله عز وجل عباده فى هذه الآية ليلقى عليهم أمرًا : اعبدوا ربكم . .

ويتأكد التزامهم بهذا الأمر إذا كان سيسير بهم نحو غاية مثلى هى : التقوى . . التى يكسب العابد بمقتضاها ضميرًا حيًّا يقف به دائمًا حيث أمر الله . . ويبتعد به عما نهى عنه . . بحيث يصبح سعيه فى الحياة عبادة . . وليس عادة .

عبادة تؤدى فى حراسة من هذه التقوى . . هكذا كأنما يبذل الإنسان عندها فطرته التى فطره الله عليها .

والشرائع التى فرضها الله تعالى تؤدى دورها فى التمكين لخلق التقوى فى قلب الإنسان :

فالزكاة .. غايتها الطهر : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣] .

والصلاة .. ﴿ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] .

والحج .. ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨] .

تتفرد شريعة الصوم . . ابتصالها المباشر بالتقوى . . ودورها فعال فى تحصيلها . . . حيث جاءت التقوى هدفا جوهريًا له فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وإذن .. فالصائم يبدأ اليوم رحلة صعبة . . يلتقى فى نهايتها مع غاية العبادات مجتمعة . .

وما دام الأمر كذلك . . فلابد من أن يجمع للرحلة طاقاته كلها . . فلا تصوم معدته بينما أجهزته كلها تهدم فى لحظة ما يبنيه فى يوم !

عليه أن يتسلح بكل ما يملك . . ولا يخلف من ورائه جارحة له لا هية . . يمكن فى الوقت المناسب أن تدفعه إلى الأمام خطوة . .

من أجل ذلك نرى فى الآية الكريمة بعض لمحات تشير إلى وعورة الطريق وجلال الغاية . . الأمر الذى يشبه أن يكون حالة طوارئ فى كيان الإنسان . . للاستغراق فى معركة الشهوات . . والانقطاع لها . . ومواصلة الجهد . . حتى النصر .

فالله تعالى يناديهم بوصف الإيمان : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يثير فيهم الحماس ليستعدوا . تماما كما يقف رجل على مشارف تجربة قاسية . . فتقول له : تقدم يا « رجل » فتثير فيه نخوة الرجولة ليقتحم العقبة !

وفرق كبير بين أن تثير فى رجل « رجولته » وبين أن توقظ فيه إيمانًا كانت هذه الرجولة بعض آثاره !

وبحكم الإيمان الذى ارتضيتموه . . وانطلاقًا منه . . صوموا .

وليقف إيمانكم حارسا يقظًا يطرد عنكم وساوس الجوع واحتمال الهلاك . . مؤكدًا أن مضاعفات هذا الجوع لا تساوى شيئًا أمام تحصيل فضيلة التقوى إن لم تكن طريقًا إليها . .

ثم إن الإيمان المشار إليه فى طبيعته اتزان شخصية الإنسان ؛ لأنه بمحض الولاء لله عز وجل . . بعيدا عن كل ما يحب الناس ويؤثرون . .

فالله واحد . . خالق . . رازق . . والخلق كلهم عبيد له تعالى وما فى أيديهم ملك له . . فلا خوف من مخلوق مهما دل بقوته . .

فلم لا نستمسك بطوق النجاة . . الإيمان . . حفاظًا على هذا الاتزان فى النفس حين نحرمها ساعات من لذاتها المباحة ؟

هل فى هذه التجربة مرارة لا نطيقها ؟

وإذن فلستم وحدكم . . إنه ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ لقد سجل وانتهى الأمر . . . فلا مفر . .

ولو جانت منكم التفاتة إلى الماضى لوجدتم أنكم لم تكونوا بدعا فى هذا التكليف : فالصوم شريعة قديمة قدم الحياة نفسها . .

إنها تجربة ناجحة خاضها قوم من قبلكم . . يهود ونصارى . . .

وباسم الرسالة العالمية التى تحملون مسؤوليتها يجب عليكم أن تتقدموا شجعانًا لتثبتوا أهليتكم لقيادة الحياة . .

فليس من المعقول أن يصوم الإنسان فى طفولته الأولى . . ثم إذا بلغ رشده الإنسانى يتخاذل أو يتضاءل أمام درس قال الأولون فيه كلمتهم . .

وإذا كان السياق القرآنى يحفزنا بالإيمان . . ويستعمل الفعل . . « كتب » كضابط لنوازع التردد . . وإذا كان يحتكم إلى التاريخ سوقًا إلى الصوم . . فإنما يسلك طريقًا منطقيًا وواقعيًا يحتم كل هذه الحوافز .

فالصوم حرمان من متاع يملكه ويراه ماثلا بين يديه وليس تحريما لما لا يملكه الإنسان .

وقد يكون مفهومًا أن أمنع من العدوان على مال غيرى . . لكن فطامى عن شىء أملكه أمر عسير .

ثم إن الصوم يحتاج إلى صبر أعمق من الزكاة مع اتصالها بمال أثير لدى الإنسان ؛ لأنك فيها تعطى الفائض وتستبقى شيئًا لمتعتك .

وفى الصوم ترتقى فى سلم الكمال درجات إذ تحرم نفسك من متعتك زمنًا . .

ومن هنا كان التعبير بأداة الترجى « لعل » انعكاسًا لأهمية هذا الامتحان وخطورته وحاجته إلى مزيد من الكفاح المتواصل الذى قد يصل إلى التقوى إذا أراد الله تعالى ذلك .

وليست التقوى معنى سلبيا كما يفهم بعض الناس . . لكنها خلق إيجابى . . وأرض خصبة تنبت كل معنى نبيل .

استمع إلى قوله سبحانه وتعالى : ﴿وسارعُوا إلى مَغْفِرةٍ مِن رَبِّكُم وجنَّةٍ عرضُها السَّمواتُ والأرضُ أُعدَّت للْمُتَّقين﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

ومن هم المتقون ؟

﴿ الَّذين يُنفقُون في السَّرَّاء والضَّرَّاء والْكَاظمين الْغَيْظَ والْعَافين عَنِ النَّاسِ واللَّهُ يُحبُّ الْمُحْسنين (١٣٤) والَّذين إذا فعلُوا فَاحشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لذُنُوبهم ومَن يَغْفرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللَّهُ ولَم يُصرُّوا علَى ما فَعلُوا وهُم يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران : ١٣٤ ، ١٣٥] .

وفى ضوء هذه الثمرات الطيبة نرحب اليوم بشهر رمضان المبارك . . الذى سيتيح لنا لقاء مع هذه الفضائل . وبالتالى ستأخذ أمتنا العربية-المسلمة مكانها وتقوم بدورها الطليعى فى توجيه الحياة كما كانت من قبل .

ونقدم فى هذا الحديث حقائق ملموسة . . لا خيالات يفيض بها ذهن شاعر . . سيشع منا عبر الحياة نور يكشف للعالم مجاهل الطريق .

﴿ إن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال : ٢٩] .

وفى ضوئه ستتعلم ما لم نكن نعلم : ﴿ واتَّقُوا اللَّهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

والله من فوقنا . . يبارك خطانا . . ويثبت الأيدى على حبله المتين : ﴿إنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذينَ اتَّقَوا والَّذين هُم مُّحْسنُونَ﴾ [النحل : ١٢٨] .

• • •

رمضـــان ... والأمة الإسلاميـة

يقول عز وجل : ﴿ يا أيُها الناسُ اعبُدُوا ربَّكُمُ الذي خلقكُمْ والَّذين من قَبلكُم لعلَّكُم تتقُون (٢١) الذي جعل لكُم الأرض فراشا والسَّماءَ بناء وأنزل من السَّماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقًا لَّكُم فلا تجعلُوا لله أندادا وأنتُم تعلَمُون ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢] .

مدخل :

من ملامح المنهج الإسلامى فى الدعوة :

أ ـ أن يكون الداعى موثوقًا به . . وأن يكون المأمور به مقدورًا عليه .

ب ـ وأن يحدد لدعوته هدفًا .

جـ ـ وأن يكون فى المدعو إليه مصلحة .

د ـ ومن وراء ذلك كله : الأدلة المقنعـة واللمسـات الوجدانية ليـكون الاتباع بعد الاقتناع .

وفى الآيتين الكريمتين مصداق ذلك :

أ ـ فالداعى هو : ﴿ رَبَّكُمُ ﴾ الذى من دواعى ثقتكم به سبحانه أنه خلقكم من العدم (وهذا هو الإيجاد) .

ثم هيأ لكم سبل العيش فى هذا الكون الفسيح (وهذا هو الإمداد) .

ب ـ ثم هو يحدد لدعوته هدفا هو التقوى .

جـ ـ هذا الهـدف الذى لو تحقق لكـان غاية المراد من رب العـباد . . وكـفى بالتقوى مصلحة . . تشد إليها الرجال .

د ـ ثم كانت هناك أدلة منبثة فى أطواء ذلك كله : أما أن المدعـو إليه داخل فى الوسع . مـقـدور عليـه . . فـواضح من جـعل الحـياة ممكنة فى هذا الكون العريض المخيف .

فقد جعل عز وجل الأرض أريضة (زكية صالحة للإنبات) ممهودة ميسرٌ تقلب الإنسان في فجاجها .

وجعل السماء سقف محفوظًا . . يمسكها سبحانه حتى لا تقع على الأرض . . فصار ذلك العالم بيتًا للإنسان : ميَّسر المرافق . . غزير المنافع .

ثم هي ﴿ لكم ﴾ وما يفيده التعبير من خصوصية . . لكم . . ولم تكن لغيركم . . ﴿ فانظُرْ إلىٰ آثارِ رحمتِ اللهِ كيفَ يُحيِي الأرضَ بعدَ موتِها ﴾ [الروم: ٥٠] .

انظر : كيف يجعل في الأرض معنى السرور . وفي الجو معنى السعادة .

وانظر إلى الحشرة الصغيرة كيف تؤمن بالحياة التي تملؤها وتطمئن انظر ! انظر! أليس كل ذلك ردًا على اليأس بكلمة : لا ؟ (١)

ثم كانت هناك أدلة في أطواء ذلك كله : تقنع العقل . وتمتع القلب . وتنشط الإرادة : الدليل التاريخي .

﴿ خلقكُم ﴾ من عدم . . ﴿ والَّذينَ مِن قَبْلِكُم ﴾ خلقهم أيضًا من عدم .

الدليل العقلي : والله تعالى هو الخالق . البارئ . المصور . .

وإذن .. فالعقل قاضٍ بالترهيب من مخالفته حذر سطوته !

بل إن الحس شاهد بتفرده عز وجل بالعبادة : عن طريق ما ذكر تعالى في الآية الكريمة :

(من أمور مشاهدة: يصل إليها كل عاقل . بأول وهلة . ومن دحو الأرض، وما بعده مما به قوام بقائهم : من السكن . والرزق في سياق منبّه على النعمة محذر من سلبها دالٌّ على الإله) (٢) .

---

(١) وحي القلم / ١ للرافعي .

(٢) نظم الدرر .

ومن اللمسات الوجدانية :

(هذه الآيات : أمر وتكليف : ففيه كلفة ومشقة ، فلابد من راحة تقابل هذه الكلفة . وتلك الراحة هي : أن يرفع ملك الملوك الواسطة من البين . . ويخاطبهم بذاته . . كما أن العبد إذا أُلزم تكليفًا شاقًا . . فلو شافهه المولى وقال له : أريد منك أن تفعل كذا : فإنه يصير ذلك الشاق لذيذًا لأجل ذلك الخطاب) [١] .

وكذلك الصوم : وذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ [البقرة: ١٨٣، ١٨٤] .

إن الذى يأمر بالصوم هو خالقنا سبحانه وتعالى . . فمن غيره سبحانه أحق بالطاعة !!

ثم هو يناديا : (ولا يُصدَّر الخطاب بالنداء إلا للعناية به ؛ لأن النداء نوع من التنبيه : فأنت إذا ناديت المخاطب . . انتبه واتجه إليك) .

وهذا إنما يكون إذا كان المدعوُّ إليه خطيرًا . ويسيرا فى نفس الوقت .

ومن دلائل يسره ما يلى :

أنه ﴿ كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ فصاموا . . وأنتم مؤمنون . وهم مؤمنون : رجال وهم رجال : ولقد آمن غيركم بالله « ربا » لكنهم لم يؤمنوا به « إلها » فأكلوا خيره . . ثم عبدوا غيره !!

وأنتم مطالبون بأن ترتبوا على الإيمان به تعالى ثمرته وهو : أن تصوموا كما أمركم .

رتِّبوا على المقدمات نتائجها . . فاعبدوه وصوموا . . ثم إنه كما يقول عز وجل : ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ معدودات على الأصابع . . يأمركم بصيامها مَن

---

(١) الرازى .

خلقكم . . ومَدَّر أمشاجكم .

وهذا هو الدليل العقلى .

أما الدليل التاريخى فهو : ﴿ كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ .

فلستم وحدكم على الطريق . . وإنما سبقتم بمن صامه من قبلكم .

واللمسة الوجدانية هنا هى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ ببناء الفعل . . كُتب للمفعول . . كما بنى للمفعول فى قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ ﴾ [البقرة: ١٧٨] .

فإذا ضممت إلى ذلك قوله عز وجل : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤] .

وقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [المجادلة: ٢١] .

إذا تذكرت هذا . . تبين لك من خلال المقابلة إلى أى حد كان الله تعالى رؤوفا بالعباد رحيمًا .

يتلطف بهم ويتودد إليهم ، ولا يريد بهم إلا اليسر . . ولا يريد بهم العسر .

وكيف ؟!

لأن الصيام . . والقصاص . . لأن فيهما مشقة . . فقد تلطف سبحانه وتعالى . . وبنى الفعل فيهما للمجهول ـ وهو معلوم طبعًا ـ حتى لا يواجههم بما يكرهون . .

ولما كانت الرحمة . . وكان الغلب أمرا محبوبًا مرغوبًا فقد أظهر الفاعل فقال عز وجل : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ ، ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ .

معنى التقوى :

التسلح بقيمة الأمانة ، والصبر ، واستحضار الرقابة الإلهية وهى :

اعبد الله كأنك تراه : (وهى عبادة الطلب) .

فإن لم تكن تراه . فإنه يراك : (وهى عبادة الهرب) .

ثم مواجهة شهوتى البطن والفرج . . ليكون الولاء للحق أولا . . والولاء للحق أخيرا .

من معانى « لعل » ألا إن هذه القيم . . تجعل المسلم : قائمًا لا ينحنى . . صلبًا لا ينثنى .

ولن يكون كذلك . . إذا ضُم كيانه على هذه القيم . ثم لم يكن لها فى الحياة من حوله وجود . .

ذلك . . بأن هذه القيم أسلحة . .

ولا يغنى عن الحق شيئًا أن تظل هذه الأسلحة مذخورة مطمورة فى قلب المسلم . .

بل لابد أن يجاهد بها . . وأن يكون له بها فى المجتمع نشاط .

وذلك ما يشير إليه قوله عز وجل فى بيان خصائص المتقين : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤، ١٣٥] .

ويعنى ذلك أن الوصول إلى أفق التقوى لا يتم قفزًا . .

وإنما . . هى المعاناة . . « فلعلك » فقط « لعلك » فالطريق إليها محفوف بالأشواك . . وليس مفروشًا بالورود ولن تصل إلا إذا كشفت عن ساق وشمرت عن ذراع . . ليكون لك « حضور مكثف » بين الناس فالمتقى لا يحصر نفسه فى المسجد . . وإنما هو يتزوّد من قيم المسجد . . ثم يخرج إلى متسع الحياة . . ليمارس كل أشكال التعامل مع الناس : إيثارا . . وعفوًا . . وإحسانًا .

الجـــزاء

أما الجزاء فهو :

﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٦] .

ولاحظ من سعة رحمته تعالـى أنه عز رجل يتفضل على المتقين المذنبين بهذه الأفضال . . فكيف يكون جزاء المتقى الذى لم يرتكب فاحشة أصلا؟!

بشير الخير :

ورمضان ـ بهذا المعنى ـ هو بشير الخير ـ هو « القميص » الذى يلقى به القدر الأعلى على وجوهنا لنرد كما كنا مـبصرين مستبصرين فى صـحبة أمل وطيد فى الله عز وجل أن يبوئنا مكانًا عليًا .

وهو النعمة العظمى :

أما كونه نعمـة عظمى . . فمفهوم من هذا الاحتـفاء به من قِبل المخلوق . . والخالق .

أما المخلوق :

أ ـ تفتح أبواب السماء .

ب ـ تغلّق أبواب جهنم .

جـ ـ تقيّد الشياطين .

أما عن تفتح السماء :

فهو كناية عن سهولة الطاعات . . والتى يتقبلها الله تعالى . .

وإما إغلاق أبواب جهنم .. فيعنى :

تراجع فرص الشـر . . ليعود الصـائم إلى صفاء الفطرة الأولى مـتخفـفا من

ذنوبه كلها أو جلّها .

وأما الشياطين المصفّدون :

فهو المردة . . ويبقى صغار الشياطين . . الذين نتمكن من دحرهم على أعقابهم .

وإذن فالكون كله مسخر لك فى شهر رمضان .

أما الخالق سبحانه وتعالى : فقد تفضل فجعل أوله رحمة . وأوسطه مغفرة . وآخرة من النار . .

ثم قال ـ كما جاء فى الحديث القدسى : « **كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به** » (١) .

كل عمل ابن آدم له إلا الصيام .

ومع أن كل الأعمال له عز وجل . لكن الصيام متفرد من بينها جميعًا بهذه الخصائص :

أ ـ فلم يُعبد أحد بالصيام إلا الله عز وجل .

ب ـ ثم إنه العبادة الوحيدة الخالية من الرياء ، وهو الآفة التى لم تسلم منها بقية العبادات .

جـ ـ ولهذا المعنى نظير فى قول الشاعر يمدح الخليفة :

فإن تفق الأنام ـ وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

وأنا أجزى به ..

وتلك نعمة أخرى . . وذلك أن الكريم إذا أخبر أنه سيتولى الجزاء بنفسه . . كان معنى ذلك : أن العطاء سوف يكون جزيلا .

---

(١) البخارى كتاب اللباس (٧/ ١٦٤) .

وفى روايـة : « **والذى نفسى بيده .. لخُلوف فم الصـائم أطيب عند الله من ريح المسك** » .

ومن مـعانى ذلك : أن الطريق إلى الأعـمـال العظام . قد يكون مـحفـوف بالمخاطر . . وإذن فلنـتحمل مـضايقات الطريق . . سـبيـلاً إلى بلوغ الهدف . . الذى لا نصل إليه مجانا . . وإنما لابد من دفع « فاتورة الحساب » .

إننا قد ننكر أشياء لا توافق هوانا . . ولكن من ورائها خير كثير : ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم** ﴾ [البقرة:٢١٦] .

ونحن مطالبون أن نتحمل فى سبيل المبادئ ما لا يرضينا : ما دام يهدينا !

وقد تبدو هناك أعـمال براقة . . خاليـة مما يزعجنا ، وعلينا أن نعلم أنه ليس كل ما يلمع ذهبًا . . ولابد للشهد من إبر النحل .

ولاحظ أسلوب الشـرط . . إذا دخـل رمـضـان . . لتـعلم أن ذلك الجـزاء مضمون . . مترتب على العمل ترتب الشرط على الجزاء .

وفى رواية : « **والصيام جنة** » .

«**فلا يرفث أو لا يجهل : وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إنى صائم مرتين**» .

ومعنى أنه « جنة » :

أ ـ أنه وقاية من المعاصى فى الدنيا .

ب ـ ثم وقاية من النار فى الآخرة .

وكأن بالصيام نعتصم بالحصن الآمن .

وإذا حاول مـشاغـب أن يقتـحم علينا ذلك الحصن بالمقـال أو بالفـعال . . فيكفى أن تقول له : إنى صائم . . إنى صائم . . لا (إنك صائم) حتى لا تثيره !

وتقولها مرتين : تُسمع نفسك وتسمع غيرك . .

فلعل فى التكرار ما يكف الأذى . .

وإن الأمر لكذلك . . . لتبقى فى الحصن .

فى الجُنَّة أو فى الجنة . . التى لا يفسدها عليك .

إنسان أو شيطان . . لا يطيق رؤيتك .

فى أفضل أحوالك . . فيحاول التحريش بينك وبين غيرك .

واجب المسلمين :

إن رمضان بهذا المعنى هو : ربيع الأرواح .

ومن لم يتب فيه . . فربما ذهبت فرصة التوبة . . ثم لا تعود .

وعلى المسلم أن يستمع بكل طاقة السمع فيك إلى هذا النداء العلوى الحبيب:

يا باغى الخير . . . أقبل .

ويا باغى الشر . . . أقصر .

وعلى مستوى الأمة :

إن الزمان لا يكون زمانًا بذاته . . ولكن بمقدار ما نعمل فيه :

وقد وحّدنا الصيام شهرًا . . فلتكن الوحدة دهرًا لنواجه بهذه الوحدة أعداءنا . . الذين يصنعون المدفع الضخم للجسم اللين من العظْم . . الذين ابتعدوا عن سر العالم بهذه الشهوات الكافرة . . التى لا تؤمن إلا بالمادة . . والتى أبعدتهم ـ جزاء وفاقًا ـ عن حقيقة السرور حتى لتكاد آثامهم أن تجعل لهم مع كل فَرحةٍ خَجْلة !

إن أمتنا اليوم فى « بطن الحوت » وعليها لكى تخرج منه أن تذكر الله ذاكرة: ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٢ ـ ١٤٤] معتصمة بخير معتصم وهو القرآن . . والذى به

تكون العاقبة لنا لأن دوام الحال من المحال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢٦) إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ [الإنسان: ٢٣ ـ ٢٨] .

• • •

المسلم الصائم من دنيا الراتعين إلى أفق الراكعين

يقولون : ما أقدر العقول على التفكير . . وما أقدر الألسنة على التعبير . . ثم تبوء الجوارح بعد ذلك . . يعبء التقصير .

ويعنى ذلك : مسؤولية الإنسان عن جوارحه . . التى تؤول إليها تركة العقول . . والألسنة . . هذا الميراث السهل الميسور . . والذى يتقاضى الجوارح أن تترجمه إلى عمل صالح .

الصيام .. ومقومات السعادة :

يقرر البصراء : أن عناصر السعادة كامنة فى « الصيام » .

الصيام الذى نتوخى به تحصيل ملكة التقوى . . والتقوى تعنى : سلامة الجسم . . بالجوع . . وسلامة النفس . . بالإيمان . . وما يثمره من أمان .

الإيمان الذى يمنح المتقى ثقة بالنفس . . ثم بمحاولة تنميتها . . وتحقيق كفاءتها عن طريق أعمال مفيدة . . تشبع حاجات الآخرين . . بالقدر المناسب . . فراراً من الملل والفراغ . . وإذا كانت التقوى عطاء ماديًا ونفسيًا . .

فإنها تعنى إسعاد الآخرين . . وتعنى أيضًا : وفرة أسباب السعادة من حولنا .

عجز الجوارح :

يقرر البصراء بطبيعة الإنسان : أن جوارحه عاجزة عن القيام بوظائفها كاملة :

فالأذن . . لم تسمع كل الأصوات .

والعين . . لم تر كل المرئيات .

ولم يشم الإنسان كل المشمومات . .

والعقل . . والقلب أيضًا . .

إن إينشتاين يقول : إن الإنسان لا يستخدم أكثر من عشرة بالمائة من قدراته

العقلية وهذه النسبة المتواضعة تركز على الجانب المنطقى والرياضى من المخ على حساب إهمالنا لمناطق أخرى ما زالت بمثابة صحراء المجهول أو محيط الظلمات داخل جماجمنا ، إن القلب البشرى الذى يدق بمعدل متوسط سبعين مرة فى الدقيقة دافعًا فى كل دقة متوسط سبعين سنتيمترًا مكعبًا من الدم ونحن جالسون نشاهد التليفزيون فى استرخاء كسول . هذا القلب وبدون مقدمات يستطيع فى حالة حدوث زلزال مفاجئ على سبيل المثال أن يزيد حجم ما يضخه من الدم فى الدقيقة إلى أربعين لترا بدلا من الخمسة المعتادة وذلك بأن يدق مائتين مرة فى الدقيقة وفى كل مرة يدفع مائتين من السنتيمترات المكعبة من الدم ـ حيث إن اللتر يحتوى على ألف سنتيمتر مكعب ـ هذه الحسبة أعراضها بتفصيلاتها المملة للتدليل على مدى الهامش الاحتياطى الحيوى الذى يحتفظ به القلب .

ومعنى ذلك : أن الإنسان . . على ما هو فيه من بُحبوحة الحضارة . . إلا أنه حتى الآن . . لم يستثمر كل جوارحه . . لأن طاقته محدودة . . ولابد له من مدد ينجبه مما هو فيه . . حتى يلامس الخلود مع عمره المحدود .

وذلك ما يتكفل به الصيام .

وإذن فليس من المصادفة أن تكون انتصارات المسلمين الحاسمة فى رمضان ، فى بدر ، وفتح مكة . وفتح الأندلس ، والقادسية ، وعين جالوت ، والعاشر من رمضان .

هذه الانتصارات التى بقى بها الإنسان حيا حتى بعد أن ورى التراب : إن الله يعطى الشهيد الذى يموت فى سبيله جنة عرضها السموات والأرض . يعطيه حياة مدتها مليار مليار قرن بل إن مدتها لا تحيط بها الأرقام لأنها لا نهاية لها .

حياة . . ما فيها إلا السعادة وكل لذيذ مشتهى بدل حياة على الأرض . . مهما طالت . . فإن نهايتها الموت . . وفيها ما فيها من المتاعب والآلام .

هذا جزاء من يقاتل فى سبيل الله ـ وهو الباقى ـ فماذا تعطيه القومية ،

وتعطى التقدمية . وتعطى الوطنية من يموت فى سبيلها ؟!

هل عندها ما تعطيه ؟!

بل قولوا : ما هى ؟!

هل هى شىء له وجود . . أم هى أسماء سميناها نحن وآباؤنا ؟ ما أنزل الله بها من سلطان [١] .

طريق الوصول :

لكن طريق الوصول رهن بالجهد المبذول : إن سلعة الله غالية . . إنها الجنة . . ولا ينال الهدف العالى . . إلا بالمهر الغالى وهو : التقوى ﴿ **أعدت للمتقين** ﴾ .

الذين يتقون غضب الله سبحانه . . بالاستغفار . . ويطلبون جنته بالطاعة . . فأمرهم دائر على هذين المحورين : يرجون رحمته . . ويخافون عذابه . . رغبًا فى الثواب . . ورهبًا من العقاب . .

إنهم يتذكرونه عز وجل بصفات جلاله . . فاستغفروه . . متجاوزين لحظة الضعف هذه . . مستأنفين . . السير من جديد : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠١] .

وهكذا يقول الواقع الماثل : إن الأرجوحة عندما تصل إلى النقطة الأدنى فى منحنى هبوطها . . فليس أمامها من سبيلٍ إلا الصعود .

وهكذا الصائمون . . المتقون : من نقطة الهبوط . . يبدأ الصعود .

﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** ﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٩] .

---

(١) الشيخ على الطنطاوى « ذكريات » (١/ ٤٢) .

وإذا كان هناك فى الناس سمار الليالى . . لا ينامون بالليل . . فإنما هو اللهو واللعب . . أما هؤلاء . . فيسهرون ضارعين وجلين . . فى العين عَبْرة . . وفى الفؤاد ـ عبرة ـ حين يقعون تحت وطأة النفس اللوامة . . التى تؤرقهمْ حتى تتجافى جنوبهم عن المضاجع . . وبينما غيرهم صرعى النفس الأمارة التى تأكل فضائلهم . . فإن المتقين مدفوعين بالنفس اللوامة التى أقسم الله تعالى بها . . ولم يقسم بالنفس المطمئنة . . ولا بالنفس الأمارة .

ما هو الحل إذن ؟

إن الحل الإسلامى هو كما يقول الأدباء : على المسلم أن يفتح مع إمكاناته الروحية حسابا جاريًا بالعطاء . . لا يتوقف أبدًا .

أن حكم العقل . . يتبدل . . والقلب . . يميل مع الهوى . . وخلايا الجسم تحترق . . والجوارح . . عاجزة عن تصور هذا الكون المتراحب ـ فضلا عما وراءه ـ وإذن . . فقد حان الوقت . . للتزود للرحلة الطويلة . . بالطاقة الإيمانية الدافعة .

وللصيام دوره الفعال فى تدبير هذه الطاقة .

من سمات الأقلية :

ومن سمات المتقين . . الأقلين . . أنهم يضحون حتى بأعصابهم على غيرهم من المحتاجين . . فصحّت منهم الأجسام . . وصفت منهم الأرواح . . لما جعلوا من الجوع ركوبا إلى المعالى . . غير عابئين بنداء المعدة . . فى سبيل إسعاد الآخرين ومن ثم . . فالمستقبل لهم .

ذلك بأن المستقبل لن يكون للعلم المادى وحده . ولكن سوف يكون للعلم الروحى أيضًا .

وإذا كانت الدنيا بمناعمها قد أماتتنا . وقبل أن نموت !!

فواجبنا أن نعرض أرواحنا لمساقط الغيث . . لبركات السماء . . بعد ما فشلت المادة فى تحقيق غاياتنا . . وتجفيف منابع الألم فى قلوبنا .

عند الهبوط يكون الصعود :

ومعنى ذلك أن المتقين هم الأقوياء أولى الأيدى : القوة . والأبصار بالعلم .

وقد تغلبهم أنفسهم يوما . . فيتورطون فى الفاحشة أو الظلم . .

بيد أنهم لا يستسلمون للهزيمة الوقتية . . وينهض الجواد من كبوته فور إساءته . .

إنهم أوابون : رجاعون . . تائبون . . عائدون مؤكدين أن لحظة الخطأ ليست راجعة إلى فساد التصور . . وإنما هى الإرادة التى قد تسترخى فى بعض مراحل الطريق ولكنهم يتذكرون الذى عصوه سبحانه وتعالى فينهضون . . ثم يمضون .

نعمة الجوع :

ولقد كان الجوع واحداً من مصادر الطاقة . . بقدر ما كان الشبع فى مقدمة ما يفسد على الأمة خططها . . من حيث كان ترفًا يخدر فى الإنسان أحاسيسه . . فلا يشعر بما حوله . . ولا بمن حوله . . إنه ـ بالشبع ـ يكون ذلك الفارغ الملول الذى لا يشغل باله إلا بالتوافه التى مكنه الفراغ من رؤيتها . . فرضى بها . . رفضا أن ينزل إلى نهر الحياة الجارى . . ليعانى لذة المقاومة وليستمتع مع المتقين السابحين . . بالجهد المبذول . . . لا بالقلب الملول .

ولقد كان الجوع قدر الرسول ﷺ ثم قدر أصحابه . . معه ومن بعده . . ففرضوا إرادتهم على الحياة .

أخرج مسلم والترمذى عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : ألستم فى طعام وشراب ما شئتم ؟ لقد رأيت نبيكم ﷺ ما يجد من الدَّقَل ما يملأ بطنه . (والدَّقل : ردىء التمر) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : دخلت على النبى ﷺ وهو يصلى جالسا . فقلت : يا رسول الله ! أراك تصلى جالسا . . فما أصابك ؟ قال : «الجوع يا أبا هريرة » فبكيت فقال : « **لا تبك يا أبا هريرة ، فإن شدة الحساب يوم القيامة لا تصيب الجائع ، إذا احتسب فى دار الدنيا** » (١) .

وعلى طريقة وطريقته . . سار الصالحون : فهذا سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه خال رسول الله يقول : لقد رأيتنى مع رسول الله ﷺ بمكة خرجت من الليل أبول .

وإذا أنا أسمع بقعقعة شىء تحت بولى : قطعة جلد بعير ، فأخذتها فغسلتها ثم أحرقتها فوضعتها بين حجرين . . ثم استففتها ، وشربت عليها من الماء . فقويت عليها ثلاثا (٢) .

وهو الذى قال : « كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الحُبْلة» .

ولقد جاع المقداد، وجاع أبو هريرة. وجاعت أسماء. . بل جاع كل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . حتى لتكاد أبصارهم وأسماعهم لتذهب من الجهد حتى كان الرجل من أصحاب النبى ﷺ يأتى عليه ثلاثة أيام لا يجد شيئًا يأكله فيأخذ الجلدة فيشويها ، فيأكلها ، فإذا لم يجد شيئًا أخذ حجرا فشد صلبه(٣) .

مضار الترف :

وبهذه الممارسة الصارمة . والإرادة الماضية . . نجوا من مضار الترف .

أخرج البخارى فى كتاب **الضعفاء** عن عائشة رضى الله عنها قالت : « أول بلاء حدث فى هذه الأمة بعد نبيها : **الشبع** فإن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم فضعفت قلوبهم وجمحت **شهواتهم** » .

---

(١) كنز العمال (٤/ ٤١) .

(٢) أبو نعيم فى الحلية (١/ ٩٣) .

(٣) الترغيب (٥/ ٧٩) .

ولقد نجا سلفنا الصالح من هذا الوباء الماحق . . فسلموا . . . بل وغنموا .

رواد على الطريق

لقد كان هناك على الطريق رواد علموا : أن الحرام . . محدود .

وأن الحلال . . ممدود . . وبلا قيود . . فقرروا إتيان الممدود . . على المحدود . الباقى . . على الفانى !

لقد علموا أن الشقة بعيدة . . والعقبة صعبة المرتقى . . والشيطان الرجيم قاعد للمسلم بكل سبيل . .

وكان من فضل الله عليهم أن قيّد الشياطين فى رمضان . فكف بأس العدو الخارجى .

فكان أن قاموا بأداء دورهم فى كف بأس العدو الداخلى : النفس الأمارة وذلك بالجوع . .

على طريق الأمل :

ولقد كان لهم حداؤهم الجميل الجليل . . والذى به يطوون الرحلة الطويلة طيا . . حمدوا من بعده السرى : ومن هذا الحداء قولهم :

الأنس بالله نور ساطع .

والأنس بالخلق غم واقع .

أبناء الدنيا : تخدمهم الإماء والعبيد .

وأبناء الآخرة يخدمهم الأبرار الأحرار .

الدنيا دار أشغال

والآخرة دار أهوال

ولا يزال العبد بين الأشغال والأهوال حتى يستقر به القرار . إما إلى جنة . .

وإما إلى نار . .

ومن عمل لدنياه . . أضر بآخرته

ومن عمل لآخرته . . أضر بدنياه

والحل هو : إيثار ما يبقى على ما يفنى صادرين فى ذلك عن خطة مدروسة هى :

فى الدنيا طغيانان :

طغيان العلم . . . وطغيان المال .

فالذى ينجيك من طغيان العلم : العبادة . . والذى يغنيك عن طغيان الدنيا : الزهد فيها .

ومن أجل ذلك كان الجوع أعلى صور الزهد . . الذى امتلكوا به ناصية الدنيا . . فوضعوها فى جيوبهم . . قبل أن تتسلل إلى قلوبهم . .

الهدف البعيد :

وإذا كانوا يقولون : لكى يكون الإنسان إنسانا فلابد له من شىء يضحى من أجله . . وبنفس القوة نقول : لكى يكون المسلم مسلما . . لابد له من هدف يضحى من أجله . .

ولأنه مسلم . . فلابد أن يكون هدفه بعيد المنال . . وإن هدفه كذلك كما وضحته الآية الكريمة : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] .

وإذن .. فهى « المسارعة » وليست مجرد « المشى » إذ الجسم المترهل غير مرشح لهذا السباق ، وإنما هو الجسم النحيل المفتول القانع

مع الشيرازى:

وفى كتابه « جنة الورد » يقول السعدى الشيرازى أرسل أحد ملوك العجم

طبيبًا حاذقًا إلى حضرة المصطفى ﷺ وأقام سنة بدار العرب فلم يتقدم إليه شخص بتجربة أو طلب معالجة فشكا الطبيب إلى تلك الحضرة قائلاً : إن عبدكم هذا موفد إلى الخدمة ، من أجل معالجة الأصحاب . ولم يلتفت إليّ أجد في هذه المدة لأؤدي الخدمة المفروضة على عبدكم . فقال ذلك الجناب : إن لتلك الطائفة طريقة : فهم لا يأكلون شيئًا ما لم يتغلب الاشتهاء ويكفّون أيديهم عن الطعام وما يزال الاشتهاء باقيًا

قال الطبيب : صدقت يا رسول الله هذا هو عينه موجب الصحة . وقبّل أرض الخدمة . . وانصرف .

تلك آثارنا تدل علينا :

وفي هذه البيئة النظيفة . . كان هناك آباء صدق أخذوا أولادهم بسليقة التضحية . . بعدما فروا بهم من التخمة وما يترتب عليها من آثار : ومن ذلك ما وصى به حكيم ولده قائلاً : (يا بني إن التخمة تمرض الإنسان ، فقال الفتى : يا أبي إن الجوع يقتل . أما سمعت أنه قيل : الموت بالتخمة . خير من احتمال الجوع ؟! فقال له أبوه يا بني : راع المقدار . . فالله تعالى يقول : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١] .

قاعدة الانطلاق :

وقد انطلق الحكماء من الآباء من قواعد ثابتة وهم يحرضون الجيل الصاعد على الزهد ، ومن هذه القواعد :

أ ـ كُلْ : لا بحيث يفيض الطعام من فمك . . ولا بحيث تفيض روحك من الضعف .

ب ـ وذلك هو ما تفرضه الرجولة . . فإذا كنت رجلاً . . فلا تكن أكولا . . لأن الكلب يقاسي الهوان من هذا . . والمطلوب هو : التوسط : (بين تخمة الإسراف . . ومخمصة التقتير) .

جـ ـ التجربة الشاهدة بما للترف من أضرار قد تؤدى بالحياة ذاتها فى ضوء تجارب الإنسان : قتل رجل آخر . . بسبب حموضة فى معدته ؛ فهذه الحموضة جعلته عصبيا . وهذه العصبية . . أوجعت مصرانه الغليظ . . الذى أدى إلى التوتر الشديد . . وسوء الظن . . قتل إنسانًا بريئًا .

[ويعنى ذلك . . ما يترتب على التخمة من تراخٍ يفقدنا السيطرة على الفكر والقرار والحياة] .

المرجعية العربية :

ولقد خلف حكماؤنا هذه التوجيهات بما يحمل على الاقتناع بها قولاً وعملاً .

سأل « أزدشير » حكيم العرب قائلاً : أى قدر من الطعام يلزم أكله فى اليوم؟ فقال حكيم العرب : مائة درهم كافية .

قال : أية قوة يعطى هذا المقدار ؟ قال : هذا المقدار يحملك وما زاد على ذلك . . فأنت حامله ؟!

يعنى : هذا المقدار يقيمك على قدميك . . وكلّ ما تزيده على هذا . . فأنت حامله !

إن الأكل لأجل الحياة والذكر . . ولا ينبغى أن تكون الحياة من أجل الأكل !

ومع أن حفظ النفس فى وجود الطعام . . فإن الطعام الذى يكون زائدًا عن القدر . . يجلب الألم .

ولأن تأكل « مربى الورد » بتكلف ؛ فإنها تؤذى . .

وإن تأكلْ الخبز اليابس على الطوى يكون « كمربى الورد » .

كل ذلك فرار بك من الداء العضال الذى . . إذا جاء . . لا يرد بأسه عن القوم الآكلين ، ومن هنا قيل : (إذا التوت المعدة . . وظهر ألم البطن . . لا تجدى جميع الأسباب القويمة) .

ويروى فى ذلك : أنه كان « خـراسيان » صديقين : يلازم أحـدهما الآخر . ويسافران معا . . وكان أحدهما ضعيفًا : يفطر مرة كل ثلاث ليال .

وكان الآخر قويا يأكل ثلاث مرات فى اليوم .

فقُبـض عليهما اتفـاقًا بتهمـة التجسس ووضع كلاهمـا فى بيت . وسُدَّ باب ذلك البيت بالطين .

وبعـد أسبـوع عُلم أنهمـا بريئان ، فلمـا فتح البـاب . . رؤى القـوى ميـتًا والضعيف حيا . . وتعجب الناس من هذا .

قال الحكيم : لو حـدث خلاف هذا . . لكان عجبًـا !! لأن ذلك القوى كان أكولا . . ولم يطق الحرمـان . . فهلك من الشدة . وكان هذا الآخر قـانعًا صابرًا فصبر على عادته فلا جرم أن قد سلم .

إلا إنه إذا صارت قلة الأكل عـادة الإنسان . . فإنه عندمـا تعترضـه شدة . . يستـهلها . . وإن يكن نهمًا مسرفًا وقت السعة . فإنه يموت من الشدة عندما يرى الضيق . إن إحياء تنّور البطن: لحظة بلحظة يكون مصيبة يوم العُدم والضيق.

وهكذا كان طابع أمتنا فى عصورها الزاهرة : لقد استغنت عن الطبيب . . لما استغنت عن الإسراف . . وتمسكت بالزهد .

الزهد الذى حدا برجل عـربى مريض لما سئل : ماذا يشتـهى قلبك ؟ قال : أشتهى . ألا يشتهى قلبى شيئًا ! إنه يتـمنى أن لو انطفأت فى قلبه الرغبة فى متاع الدنيا . . ليحرر بذلك نفسه من عبودية التعلق بهذه الدنيا . .

نعمة الجوع :

كان الفضيل بن عياض يقول : إلهى : أجـعتنى وأجعت عيالى . . وتركتنى فى ظلمة الليالى بلا مصباح . . وإنما تفعل ذلك بأوليائك . . فبأى منزلة نلت هذا منك ؟!!

ومن أجل ذلك كانت نعمة الجوع . . مما يتنافس فيه المتنافسون .

قال أبو سليمان الدارانى : الجوع عند الله فى خزائنه لا يعطيه إلا من أحبه!!

ومن الذين أحبهم الله تعالى « فتح الموصلى » والذى كان الجوع عنده منزلة عظمى . . منّ الله تعالى بها عليه . . دون غيره من المترفين . . ومن خبره أنه كان إذا اشتد مرضه وجوعه يقول : إلهى . . ابتليتنى بالمرض والجوع . وكذلك تفعل بأوليائك ! فبأى عمل أؤدى شكر ما أنعمت به علىّ !!

ولأن الجوع بهذه المثابة . . ولاما يرجوه الصائم من ثواب جزيل . . فقد كان مما يتنافس فيه المتنافسون . . ليكون على الوجه الأمثل . . رصيدًا مذخورًا لمن اصطبر عليه .

كان أبو موسى الأشعرى . . يتوخى اليوم الشديد الحرارة الذى يكاد الإنسان ينسلخ منه . . فيصومه .

ولم يكن أبو موسى رضى الله عنه وحده على الطريق . . ولكن . . كان معه رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

سار عامر بن عبد قيس إلى معاوية من البصرة إلى الشام .

وكان معاوية يسأله أن يرفع إليه حوائجه فيأبى . .

فلما أكثر عليه قال : حاجتى أن ترد علىّ من حَرِّ البصرة . لعل الصوم يشتد علىّ شيئًا !! فإنه يخف علىّ فى بلادكم !!

والمرأة ... على الطريق

وحتى المرأة المؤمنة . . لقد كانت مع الرجال . . ماضية العزيمة . . سائرة على نفس الطريق .

كانت بعض الصالحات تتوخى أشد الأيام حرًّا . . . فتصومه . .

فيقال لها فى ذلك . فتقول : إن سعر الشىء إذا رخص . . اشتراه كل أحد!

وهكذا كانت هذه الكوكبة من فرط رضاها بقَدَرِ الله تعالى . . ومن قوة استمتاعها بطاعته تخاف ألا تنال جزاء عمل لم تجد فيه مشقة أو معاناة !!

من الصبر . . إلى الرضا

إن المريض الحكيم يستقبل الدواء المر . . بشوق عظيم . . ما دام ذلك هو السبيل إلى تحقيق الأمل .

وكذلك يجب أن يكون المسلم : فإذا كانت هناك قلوب معلقة بالدنيا . . وقلوب بالصبر متعلقة بالله تعالى . . فإن هذه الكوكبة المؤمنة . . لا تكتفى بجناح واحد . . وإنما تجعل من الرضا جناحًا مع جَناح الصبر . . حتى تحط رحالها هناك فى جنات عدن . . مع الخالدين .

ومن دروس هذه المواقف :

أن هؤلاء الصالحين من عباد الله . . كانوا ينظرون إلى الفرائض على أنها الثوابت التى يتحقق بها وجود الأمة .

وأن هذه النوافل : إنما هى هدية العبد إلى ربه سبحانه . . فكان يطيِّب هديته، وكذلك كانوا يفعلون .

كانت عائشة ـ رضى الله عنها . . تطيب الصدقة قبل أن تضعها فى كفّ الفقير إيمانا منها بأنها تقع فى يد الله عز وجل . . قبل أن تقع فى يد الإنسان . .

وكذلك كان هؤلاء الصالحون الذين قد يعيشون بيننا . . بأجسامهم . . ولكنهم هناك فى الملأ الأعلى بقلوبهم .

نراهم بالبصر لحمًا ودمًا . . ونراهم بالبصيرة هناك فى السماء .

ونحن من عدون إلى ترسم خطاهم بالمحاولة . . وعلى مراحل . . فالله عز وجل يقول : ﴿ اصبروا وصابروا ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] وإذ كان فى الطريق عقبات . . فالله سبحانه وتعالى معنا ﴿ إنَّ اللَّه مع الصَّابرين ﴾ [البقرة:١٥٣] .

مثل عليا :

وإذا كانوا يقولون : إن التربية هى نقل الفضائل من الجيل الراشد . . إلى الجيل الناشئ . . فنحن مدعوون إلى نقل فضيلة الصوم من خير جيل عرفته الحياة . . فلعلنا واجدون فى تاريخ الصالحين من أمتنا من دروس الأخلاق . . ما لا يباع فى الأسواق !!

• • •

الصوم من التضحية إلى التسلية

ما معنى .. كان صيام التضحية .. فماذا عن صيام التسلية اليوم ؟!

قبيل رمضان يتفنن المسلمون فى اقتناء كل ما يهوّن عليهم صيام رمضان .. أى كل ما يعينهم على تناسى لذعة الجوع .. ويحرمهم من تذوق متعة الصيام!

ومن أجل ذلك شاع بين الناس قولهم : سلّ صيامك!

أى : حاول أن تتناسى أنك صائم حتى لا تشعر بالزمن يمضى بطيئًا .. متثاقل الخطى ..

وتلك محاولة لسرقة الصيام .. وإضاعة مكاسبه !!

حتى هذا الكم الهائل من مسلسلات الإعلام وأغانيه : كله .. كله يصب فى بحر رمضان إرادة التخفيف من إحساس المسلم بنعمة الجوع !

أجل .. نعمة الجوع الذى صار فى حس العارفين من مراقى الكمال إلى الآفاق العليا .. حتى تنافس فيه المتنافسون ..

وكان لابد أن يحصد المسلم اليوم من جنس ما زرع : المرض !!

على ما يقول الباحثون : طوال شهر رمضان المعظم امتلأت عيادات الزملاء أطباء الأمراض الباطنية بالمرضى الذين يشكون من اضطرابات الجهاز الهضمى ، كنتيجة حتمية (للألغام) الغذائية التى تناولوها فى إفطارهم من طواجن اللحوم مع الحلويات الشرقية المشبعة بالسمن والسكر والمكسرات ، ثم يأتى عيد الفطر ليلتهموا الفسيخ والياميش مع الكعك ومشتقاته وكأنها طقوس مقدسة ينبغى عدم تجاوزها ولقد جاء فى الصحف أن المصريين أنفقوا فى شهر رمضان وحده ما يقرب من مليار جنيه ، قيمة ما استهلكوه من اللحوم والدقيق والسكر والياميش وفوانيس رمضان وغيرها إضافة إلى الإسراف المتناهى فى استهلاك الكهرباء ثم بند العلاج من المضاعفات المريرة التى يعانيها الجهاز الهضمى ، وأغلب هذه الأموال تصب

فى خزائن الدول الأخرى ، لأننا نستورد الكم الأكبر من كل ما نستهلكه . . لقد أجابنى زميل متخصص فى أمراض الجهاز الهضمى عن سؤال يتعلق بكيفة علاج مرضاه قائلاً : إنه كان ينصحهم خلال رمضان بأن يصوموا بصدق وأن يحاكوا الفقراء فى قناعتهم بالأكل القليل وأن يكثروا من المشى وشرب السوائل ثم عليهم أن يعاودوه بعد أسبوع وأضاف أن أغلب من التزم بتلك النصائح بجدية اختفت شكواهم دون أن يطلب أى علاج آخر !

إن رمضان فرصة المسلم :

ألا وإن استثمار الوقت أمارة عقل الرجل . . وبلوغ رشده . .

وإذا كنا نحجر على من يسىء تصريف ماله والمال مما تجوز عودته .

فكيف بمن يبذّر وقته تبذيرًا . . وهو مما لا يعود إلى يوم القيامة ؟! فكل لحظة تمر من عمرنا . . فهى جزء انهدم من كياننا . . ثم لا يعود ذلك المهدوم !

رمضان فى حياة الأمة :

لقد كان رمضان هو الوعاء الزمنى الذى تمت فيه انتصارات المسلمين التى غيرت مجرى التاريخ . . مؤكدة أن الطاقة الإيمانية المشتقة من قلب الصائم . . هى أقوى أسلحة النصر على الإطلاق .

أ ـ فى بدر الكبرى .. تراجعت معانى : العدد والعدة فى مقاييس الانتصار لتكون العقيدة هى الفيصل فى جسم المعركة لحساب الحق . .

وأن المستقبل لهذا الدين الذى أكرم الله عز وجل البشرية به .

ب ـ فتح مكة : والذى كان فتحًا للقلوب . . قبل أن يكون غزوا للقوالب . . لقد تحطمت الأصنام . . وذهبت فى الجو رمادًا . . وراحت دولتها ولن تعود . .

ثم تتابعت انتصارات الصائمين . . وبالذات فى رمضان . .

غفلة المسلمين اليوم

في هجمة الأحداث العظمى . نحتاج إلى جهد مضاعف .. يكافئ هذه الأحداث . . كما نحتاج إلى إرادة تكون أصلب عوداً لنواجه بها تلك الأحداث . .

وهذا ما فعله الصالحون من أمتنا . . والذين استقبلوا الصيام بهذه المصابرة الظافرة . . بقيمة التضحية لا بالتسلية !

أما نحن : فنستقبله بما يخدر الإرادة ويضعف المقاومة ؟!

وبينما الصائمون زمان . . جاءتهم موعظة من ربهم فانتهوا . . وزُفَّت إليهم عرائس القيم فكانوا بها خالدين . . إذا بنا اليوم نختار الأسهل . . ويوشك صيامنا أن يكون خيطًا من الدخان تبدده رياح هوج . . أو قطعة من الليل المظلم . . يمحوها نور الصباح !

ألا إن مفتاح السعادة في أيدينا . . لكن الفالحين يديرونه . . لتفتح لهم أبواب الجنة . . بينما غيرهم يفتحون به أبواب الجحيم !

وإذا أنت أمام صورتين متقابلتين . . يبرزهما الواقع بين يديك . . لتزداد إحداهما وسامة وقسامة . . وتزداد الأخرى كدرة وقبحًا . وربما تحملنا المقارنة على إيثار الجمال والكمال فيما نمارس من أعمال !

إن الصلة بين الفريقين . . أشد انقطاعًا . . والهوة أعظم اتساعًا . . يتناكرون في المعاني . . ويتنافرون في المباني .

وقد جاء رمضان ليكون فرصة العمر التي تجمعنا على كلمة سواء

ونحن مأمورون باغتنام هذه الفرصة التي تعدنا لنكون خير أمة أخرجت للناس بما تحمله من بركات حسية . . ومعنوية .

• • •

شهر الجمع والطرح

ألا إن رمضان هدية الله تعالى لعباده :

أ ـ التطوع فيه يساوى الفريضة .

ب ـ والفريضة . . . تساوى سبعين فريضة .

جـ ـ وفيه ليلة : من قامها إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه .

إنه بحق كما قيل : شهر الجمع وشهر الطرح .

جمع الحسنات وطرح السيئات .

فإذا تصورت عمرك المديد . . وكم من السيئات فعلت . .

فتصور فرصة صيام رمضان لتدرك ضخامة رصيدك من الحسنات التى يضيفها الصوم إلى حسابك !!

ومن بركات الصوم : الصحة

« صوموا .. تصحوا » .

لكننا بالإسراف . . والترف . . نحرم أنفسنا من هذه العافية التى تحين فرصتها . . ولكننا نتركها تفلت من بين أيدينا وقد لا تعود !

نأكل .. ولا نرعى :

نحن مأمورون بالأكل لا بالرعى يقول عز وجل : ﴿ **كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى** ﴾ [طه: ٥٤] .

ورمضان فترة تقشف يخف بها الجسم وينشط حتى يكون مؤهلاً للصعود فى مدارج الكمال . .

ونذكر هنا : أن عائشة رضى الله عنها . . سبقته ﷺ لما سابقته . . وعندما حملت اللحم . . وزاد وزنها . . سبقها ﷺ .

إلى رافد الطاقة :

لكن الحصول على هذه الطاقة الإيمانية كاملة . . لا يتم إلا من مصدرها : القرآن . . وفى بيوت الرحمن .

القرآن . . الذى يحس فيه المسلم بأن آياته قد نزلت عليه هو شخصيًا . . فهو مكلف بإنجاز ما تدعوه إليه وتحضه عليه .

نزل واحد من شيوخ العرب ضيفًا على عامر بن ربيعة وحدث أن الرسول ﷺ أقطع هذا الشيخ قطعة من الأرض . .

واعترافًا منه بجميل عامر عاد إليه راجيا أن يتقبل منه جزء من هذه الأرض . فاعتذر عامر قائلاً : لقد نزلت علينا اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا وهى : ﴿**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ**﴾ [الأنبياء: ١] .

إلى بيت الله :

وبالاعتكاف . . نعود إلى المسجد . . إلى النبع الطهور الصافى . . والذى نستمد منه طاقات التسامى والاستمرار . . والانتصار .

وتلك هى : ثمرة الاعتكاف !!

الاعتكاف (الذى يولد فينا الطاقة الإيمانية . . لا سيما عندما تحيط بالأمة تيارات فكرية وافدة ، تهدد معالم وجودها الحضارى ، وذلك من خلال طمس الملامح البارزة لهويتها الإسلامية وذاتها الحضارية المتميزة ، ومن هنا فإن الاعتكاف لا يعنى بأى حال الانفصام عن روح العصر الذى تحيا فيه الأمة ، بل هو على الحقيقة ، هو الإسهام الحيوى فى تحقيق الاستقلال الحضارى الناجز للأمة من خلال العودة إلى المنابع الصافية ، فضلاً عن الاستيعاب الموضوعى للمعطيات الحضارية للعصر الذى هو بطبيعة الحال عصر التمايز الحضارى ، وفى نفس الوقت هو عصر الاستلاب الحضارى . ولهذا السبب كان رمضان ولا يزال هو شهر الانتصارات الباهرة للحضارة الإسلامية .

فى تفسير « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبى : روى الضحاك عن ابن عباس عن النبى ﷺ : كان إذا دخل المسجد . . قدّم رجله اليمنى وقال : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعُوا مع الله أحداً ﴾ [الجن : ١٨] .

اللهم أنا عبدك وزائرك وعلى كل مزور حق . . وأنت خير مزور . فأسألك برحمتك أن تفك رقبتى من النار .

فإذا خرج من المسجد قدّم رجله اليسرى وقال : اللهم صُبَّ علىّ الخير صبا . ولا تنزعْ منى صالح ما أعصيتنى أبدًا . ولا تجعل معيشتى كدا . .

واجعل لى فى الأرض جَدًّا . . غنى . . .

اللهم : ليس يرد غضبك إلا حلمك . . ولا يرد سخطك إلا عفوك . . ولا يجير من عقابك إلا رحمتك ولا ينجينى منك إلا التضرع إليك . . وبين يديك .

ألا إن صوم رمضان :

يرفعنا رمضان من دنيا الراتعين . . إلى أفق الراكعين !

وإذا كانت خطة المسلم اليومية فى مأكله ومشربه هكذا :

ثلث للطعام . . وثلث للشراب . . وثلث للنّفس . .

فإن ذلك يعنى حفظ توازنه . . وإلا فلو أنه أسرف فى الطعام أو الشراب لحدث الآتى :

كانت هذه الزيادة على حساب النَّفَس فتضيق نفْسه . . ثم يكون المرض . . ثم الموت فى نهاية المطاف !!

• • •

القناعة هذا الكنز الثمين

قال ﷺ لا تنظروا إلى من هو فوقكم ، وانظروا إلى من هو أسفل منكم ، فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله » متفق عليه .

وفى رواية : « إذا رأى أحدكم من فُضِّل عليه فى الخَلْق والرزق » .

تمهيد : يقول ابن عطاء الله السكندرى : ما بسقت أغصان ذل إلا على بذور من الطمع .

يعنى : أن بذرة الطمع . . إذا تَخلَّقتْ فى كيان الإنسان . . فإنها منتهية بصاحبها إلى الذل . .

فمن تطلع إلى ما فى يد الغير . . صار أسيره : يعيش تحت رحمته . . ورهن إشارته . .

وإذ يحصل منه على لعاعة من الدنيا . . فإنه يفقد فى الطريق إليها . . أعظم منها وهو حريته !

حريته التى كان بإمكانه الاحتفاظ بها . . لو أنه أخرجه من حياته . . ويئس من عطائه : فاليأس حُرٌّ . . والرجاء عبد .

والحديث الشريف : يشير إلى خطة الإسلام الرامية إلى حفظ صحة المسلم : الجسمية والنفسية بلفت نظره إلى ما يحفظ توازنه ماديًا ونفسيًا .

فهو ينهاه عن النظر إلى من فُضِّل عليه فى الرزق ، أو الصحة أو المال والحسب . .

وإذا كان ولابد من نظر إلى الآخرين من حوله . . فليكن نظره إلى من فُضِّل عليه فى الدِّين . فذلك أجدى وأهدى : لأن الإنسان ـ كما يقول ابن جرير : إذا رأى من فُضل عليه فى الدنيا . . طلبت نفسه مثل ذلك . واستصغر ما عنده من نعمة الله تعالى . ثم حرص على الازدياد ليلحق بغيره . . أو يقاربَه . . هذا

هو الموجـود فى الغالب : أما إذا نـظر فى أمور الدنيـا إلى من هو دونه فيـها . . ظهرت له نعمة الله تعالى عليه فشكرها وتواضع . . وفـعل فيها الخير وهذا معنى قوله : « فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله » .

فى مجال التطبيق :

وكان هناك . . وعلى أرض الواقع . . كانت هناك نماذج من أمتنا . . جاءت تفسيراً عمليا لهذا الحديث الشريف .

قال أحد الصالحين : لا زمت الأغنياء زمنا . . فماذا رأيت ؟

رأيتهم . . أفخم منى ثيابا . . وأوفر منى طعامًا . . فكان من ذلك تعبى . . ثم صحبت الفقراء . . فاسترحت !

ولكن : لماذا استراح الرجل ؟

والجواب : لأنه لزم من هم أقل مـنه . . أو يساوونه فى الثيـاب . . والطعام والشراب فاستراح .

لقد كان مع الأغنياء منبـهراً بهم . . انبهاراً . . لم يَرَ معه مـا يتقلب فيه من نعم . . ربما حُرِم منها الأغنياء . .

فى الوقت الذى كانت صحبته من هو أقل منه . . فرصة حمد الله تعالى فيها على ما أولاه من نعَم اختصه سبحانه بها . .

ولعله . . وفى ضوء قـيمة الرضـا التى استقـرت لديه . . لعله أدرك ـ ومن خلال التجربة ـ أن السعيد حقا : ليس هو الذى يحقق كل أمانيه . .

ولكن السعيد حقا هـو : من يرضى بما عنده لأن القليل الذى يكفيه . . خير من الكثير الذى يطغيه !

بل إنه يصير بامتلاكه كنز « الرضا » يساوى من يملك الدنيا .

إذا ما كنت ذا قلب قنوع فأنت ومالك الدنيا سـواء

والغنىّ الحق هو : من استغنى عن الشىء . لا به

وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

أرى الدنيا لمن هى فى يديه عذابًا . . كلما كثرت لديه

إذا استغنيت عن شىء فدعه وخـــذ ما أنت محتاج إليه

وقد كان سقراط قليل الأكل . . جيد اللباس . . فقال له واحد من تلاميذه : أنت ترى ضرورة رحمة كل ذى روح فلماذا لا ترحم روحك ؟!

فرد عليه سقراط قائلاً : آنا آكل . . لأعيش أما أنت . . فتعيش . . لتأكل .

لقد فلسف سقراط موقفه من الدنيا . . فرأى نفسه فيها :

أنه من عدّ إلى وليمـــة إن أتته صحفة أخذهـــا

وإلا . . لم يرصدها . . ولم يتبعها . . منطلقا من قاعدة تقول :

ما كل ما فوق البسيطة كافيا فإذا قنعت . . فكل شىء كافى

القناعة : هذا الكنز الثمين .

يقـــول ﷺ : « **لا تنظروا إلى من هـو فوقكـم . وانظروا إلى من هو أسـفل منكم** » .

وفى رواية : « **إذا رأى أحدكم من فُضِّل عليه فى الخَلْق والرزق** » .

ويعنى هذا : أنه إذا انبهـر بنعمة الغـير لمجرد رؤيتـها . . فراعَتْه أحجامـها وكيفياتها .

إذا حدث ذلك . . فـليحوِّل بصـره إلى من هو دونه . . وهم أكثر ممن هم فوقه : ثم لِيُدْخلْ عقله طرفا فى القضية . ناظرًا بعين بصيرته فيما يرى . . ليتأكد له ما يلى :

أنه إذا فُضِّل عليه ألف . . فهو أفـضلُ من عشرات الألوف !! فالرؤية بالعين المجردة . . وإن فَرَضَتْ عليه مشاهد . . سال لعابه لها . .

وإذا كانت هذه الرؤية البصرية لا يملك رفعها . .

فإن النظر أولى . لأن النظر يعنى التفكير . . والموازنة . . ثم اختيار الواقع . .

ولسوف يصل بك هذا التفكير المتأنى إلى الحقيقة التى قررها الشاعر القائل

لو كانت الأرزاق تجرى على الحجا هلكن إذن من جهلهن البهائم!

والحديث الشريف لا يتناقض مع طبيعة الإنسان الراغبة فى الاستمتاع بما فى الحياة .

ومن ثم . . لا ينكر عليه تمنّى مثلَ ما للغير . .

ولكنه يحميه من نفسه . . حتى لايسترسل مع أمانيها . . التى لا يملك وسائل تحقيقها . . فيُعفيه فى نفس الوقت من الهموم التى سوف تتحول مع الأيام إلى مخزون من الحقد . . وهو أعظم عيوب العقلاء . . بل هو مرعى اللئام .

ونذكر ذلك الرجل الذى كان يُحزنه أن يمشى حافيا . . فلما دخل المسجد . . وجد رجلا مقطوع القدم . . فحمد الله تعالى والذى لا يحمد على مكروه سواه.

وهذا المقطوع نفسه . . إذا نظر إلى من قُطعت يده مع رجله . . سوف يحمد الله تعالى . . كما حمِده أخ له من قبل . . أجل سوف يحمد الله الذى أخذ عضوا . . لكنه أبقى أعضاء

من ثمرات النظر : سوف ينتهى بك التفكير إلى الاقتناع بما قرره العلماء وهو : لا تتكالب على الدنيا . . فإنك فيها تنال ما قدر لك من رزق . . فى عمرك الذى سوف تعيشه . .

وبعد ذلك : ستحاسَب على رزقك . . وعمرك . فاشغل نفسك بما قَدَّمتْ لغدٍ . . نافس أهل الآخرة ودعك من أهل الدنيا .

إن المال : غنَى أرباب الدنيِ الذى فيه يتنافسون . وإياه يطلبون . وحوله يحومون ولا أحَبَّ إلى الشيطان . . وأبعدَ من الرحمن . من قلبٍ ملآنٍ بحب

هذا الغِنَى والخوفِ من فقده .

قال بعض السلف : إذا اجتمع إبليس وجنوده . لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أشياء :

مؤمنٍ . . يقتل مؤمنًا .

ورجل . . يموت على الكفر .

وقلب . . فيه خوف الفقر .

وهذا الغنى محفوف بفقرين : فقرٍ قبله . وفقرٍ بعده . وهو كالغفوة بينهما [١] .

ويصير الأمر على ما يقول الشاعر :

وتنقضي الحرب محمودًا عواقبها للصابرين وحَظّ الهارب الندم

سبيل النجاة :

وسبيل النجاة ألا نكتفي برؤية العين . . فالحواس خادعة . وإنما هي البصيرة . . هي النظر . . كما أشار الحديث . . النظر إلى من هم دوننا . . لنظفر بهذه الحقيقة وهي أن أفقر الناس إلى الله أغناهم به . . وأذلهم له . . أعزُّهم .

وأضعفهم بين يديه . . أقواهم .

وأجهلهم عند نفسه . . أعلمهم بالله .

وأمقتهم لنفسه . . أقربهم إلى مرضاة الله .

أما بعد :

فنذكر هنا من توجيهات القرآن الكريم : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [النمل: ١٥] .

---

(١) طريق الهجرتين (٤٢، ٤٣) .

فماذا نرى . مما يتصل بموضوعنا .

الذى نراه هو ما يقوله الرازى : وفيه أنهما فضلا على كثير وفُضل عليهما كثير .

ومن معانى ذلك : أنهما لم ينظرا إلى فوق ، إلى الكثير الذى فُضِّل عليهما ولكنها كانت النظرة الموضوعية العاقلة إلى من فُضلاهما عليه .

كلنا فى نعمة :

وبهذا المنطق القانع . . سار الفكر الإنسانى . . سبيلا إلى القناعة : وذلك ما يشير إليه قول أحد الباحثين : (إذا كان لديك بيت يؤويك . . وتنام فيه . . وطعامك حاضر . ولباسك أيضًا فأنت أغنى من ٧٥٪ من سكان العالم .

وإذا كان لديك مال توفر منه لوقت الشدة . . فأنت واحد من ٨٪ من أغنياء العالم وإذا أصبحت فى عافية . . فاذكر أن هناك مرضى بالملايين . . رحلوا عن الدنيا وإذا لم تدخل السجن . . ولم تتعذب بالحروب . . فأنت أفضل من ٥٠ مليون فى الدنيا وإذا كنت تقيم شعائر ربك بلا خوف . . فأنت فى نعمة لا يعرفها ثلاثة مليارات من البشر !

• • •

رمضان .. والأمة الإسلامية

وإذا كان أبواك على قيد الحياة . . ويعيشان معا غير مطلّقين . . فأنت نادر فى هذا الوجود .

وإذا كانت تبتسم وتشكر المولى عز وجل . فأنت فى نعمة : فكثيرون يستطيعون ذلك : ولكنهم لا يفعلون .

إذا قرأت كل ما سبق . . فأنت فى نعمتين عظيمتين

أولاهما : أن هناك من يفكر فيك .

والثانية : أنك أفضل من مليارين من البشر : لا يحسنون القراءة فى هذه الدنيا .

أيها اليائسون : لو تعلمون الغيب لاخترتم الواقع .

• • •

صور من تاريخنا

كان محمد بن واسع ـ رحمه الله ـ يدعو كل يوم . . وبعد صلاة الصبح بهذا الدعاء : « **اللهم إنك سلطت علينا عدوا بصيراً بعيوبنا .. يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم .. اللهم فآيسه منا .. كما آيسته من رحمتك . وقنطه منا كما قنّطته من عفوك . وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك . إنك على كل شيء قدير** » .

تلقيت هذا الدعاء . . درسًا من دروس شيخى الذى حفظت على يديه القرآن الكريم . . رحمه الله .

وكنت أتخيل محمد بن واسع رحمه الله عجوزاً . . له لحية شهباء مرسلة . . ينزوى فى زاوية من زوايا داره دامع العين . . خاشعًا . . ساجداً . . راكعًا . .

فلما تقدم بى العمر . . قرأت أنه كان قائداً عسكريًا مرموقًا . . ومن أخباره : أنه كانت هناك معركة حاسمة . . فسأل عنه قائد الجيش فقيل له : ها هو ذا يشير بأصبعه إلى السماء !

فقال القائد مسروراً ومعتزاً : والله إنك عندى أنكى على الأعداء من مائة مدفع !!

وقلت فى نفسى : لقد كان لهذا الشيخ مكانته المرموقة على ساحات الوغى . . هذه المكانة التى شهد بها القائد الأعلى . .

ولقد كان من الممكن أن يطوح به الغرور بعيداً . . بعيداً . . وأن يتخذ من

هذه المكانة ركوبًا إلى منصب أو جاه . ولو على أشلاء الضحايا .

ولكن هذه المعركة الرخيصة لم تكن نهمته . . بل كانت معركته الكبرى مع العدو المبين الشيطان . . الشيطان الذى استعان بالله عز وجل عليه حتى إذا انتصر عليه . . كان ذلك هو النصر الأكبر الذى يرشحه للفوز بنعيم الآخرة

أى أنه يضرب بالدنيا وزخارفها . . يضرب بها فى وجه عشاقها

بمعنى أنه مقاتل فى سبيل الله . . لا فى سبيل الطاغوت . . ومن كان كذلك . . كان أنكى على العدو من أخطر سلاح لأنه أمره على ما قال الرافعى : إنه إذا واجه الموت . . واجهه كرجل لا يعرف الموت ما هو ؟!!

وإذا بقيت الحياة فيه . بقيت فى رجل عرفت الحياة من هو ؟!!

وصدق القائل :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة . . غير أن أتقدما !

ورجل هذا شأنه يقاتل فى سبيل الله : لن يتملق قائدًا . . ولن يهاب عدوا . وإنما هو متوكل على رب قائده وعدوه . . فلا يتضعضع لأحد أبدًا .

من فقه الدعاء :

يناجى الشيخ ربه بقوله : اللهم وقد قال العلماء هنا : إن النداء بالحرف (يا) يفيد بُعد المدعو . . والله تعالى قريب . . فكيف ينادى بأداة البعيد ؟ فيقول : يا الله !! يقول عز وجل : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٦] .

وقالوا : إن الميم فى قوله : **اللهم عوض** عن الياء فلا مكان لها هنا .

واختار الميم بالذات . **لأنها من حروف الضم** . والضم يعنى الجمع

فكأنه حين يدعو يدعو بجميع صفات الجلال والجمال تعبير عن شوقه العارم . وحاجته القصوى إلى العون !!

ومن أجل ذلك . . يلاحظ شيوخنا : أن حرف النداء (يا) لم يرد فى القرآن الكريم مع (رب) لأنه ليس ببعيد . .

ونقول : نعم ليس (الرب) ببعيد . . لأننا نتقلب فى نعمه فى كل لحظة فكيف أدعو مَنْ أتقلب فى نعمائه بحرف البعيد ؟!

ومن معانى ذلك : أنه ـ عز وجل ـ إذا كان معى قادرًا . . فهو معى ربا .

إنه التوكل على الله وحده . . اعتزازًا به عز وجل . . وفرارًا من الاعتماد عن كل من لا يملك موتًا ولا حياة ولا نشورًا . . حتى لا يكون تحت رحمة مخلوق . . اكتفاء بالخالق .

وهو المعنى الذى كان يترقرق فى دعاء الصالحين . . ومنهم ذلك الذى كان يدعو فيقول : لا تجعلنا موضع شفقة عبادك . . بل اجعلنا موضع شفقتك أنت يارب . . ولا تجعلنا محط الإحسان لأحد من خلقك . . بل موضع الإحسان منك . . يا رب . . واجعلنا دائمًا وأبدًا . بك ومعك وإليك .

فلا منجى منك . . إلا إليك . . يا رب .

• • •

من إنسانية الإسلام

يقول ﷺ « كل ابن آدم خطاء . وخير الخطائين التوابون » (١)

تمهيد :

يقول عز وجل : ﴿ ولا تُفسِدُوا فِي الأرضِ بعد إصلاحها ﴾ [الأعراف ٥٦]

ويعنى ذلك أن الله عز وجل مهد لنا الأرض تمهيداً . وجعلها بفضله صالحة مهيأة للعيش فيها .

وتلك نعمة كبرى . . تتقاضانا أن نقيدها بشكر واهبها سبحانه شكرا تظل الأرض به صالحة مصلحة . . فلا ندنسها بالمعاصى وهذا ما أشار إليه المفسرون بقولهم : لا تفسدوا فيها بالمعاصى والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها . . ببعث الرسل . وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله . فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره . والشرك به هو أعظم فساد فى الأرض .

بل فساد الأرض فى الحقيقة إنما هو بالشرك به . ومخالفة أمره . قال تعالى: ﴿ ظهر الفَسادُ فِي البَرِّ والبَحرِ بما كَسَبَتْ أيْدِي النَّاسِ ﴾ [الروم: ٤١] . . ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح فى الأرض فسببه توحيد الله وعبادته . وطاعة رسوله .

وكل شر فى العالم . وفتنة وبلاء وقحط . . وتسليط عدو . . فسببه مخالفة رسوله . والدعوة إلى غير الله ورسوله (٢) .

• • •

(١) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم ، وقال صحيح الإسناد

(٢) الفوائد (٣/ ١٤، ١٥)

من موانع التورط فى المعاصى

وهذا هو السبب الأعظم فى فساد العالم . . .

يضاف إليه أسباب أخرى من شأنها أن تلزمنا الطاعة وتجنب المعاصى: ومنها:

١ ـ شرف الأصل : وذلك بعض ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ يا أُخْتَ هارُونَ ما كان أَبُوكِ امرأَ سَوْءٍ وما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم:٢٨] .

وصدق الله عز وجل حيث يقول : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف:٥٨] .

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوّده أبوه

وقد تحدث الإنسان نفسه بسوء . . فيردعه تذكره لكرم أصله .

٢ ـ ما يترتب على المعاصى من خسران . . وبوار : قال عطية : ولا تعصوا فى الأرض . . فيمسك الله المطر . ويهلك الحرث بمعاصيكم .

وقال غير واحد من السلف : (إذا قحط المطر . . فإن الدواب تلعن عصاة بنى آدم وتقول : اللهم العنهم . . فبسببهم أجدبت الأرض ، وقحط المطر) [1] بل إن دابة الإنسان قد ترفسه . . وقد تدعه . . بسبب ذنب ارتكبه . . فكانت سلاحًا من أسلحة القدر . يردع العصاة .

٣ ـ إدراك العواقب : وإدراك العواقب كاف فى الردع . . فينأى الإنسان عن مباشرة ما سوف يترتب عليه العقاب .

ومن هذا الباب هؤلاء المفلسون ، الذين تحدث عنهم رسول الله ﷺ بعد ما سأل الصحابة رضوان الله عليهم عن المفلس من هو ؟

وكان المفلس الحقيقى هو الذى يعيش فقط لحظته الحاضرة . والتى منعه

---

(١) الفوائد (٣/ ١٤) .

الاستغراق فيها من تذكر نتائجها

فصلى وصام وزكى لكنه لم يستوعب نتائج هذه الفرائض فلم يرتب على هذه المقدمات أى هذه العبادات نتائجها فكف عن إيذاء الناس

أى أنه أدى حق الله تعالى . . لكنه تنكر لحقوق عياله سبحانه وتعالى فكان باقى الطرح صفراً

• • •

خلق الحياء

خلق الحياء هو من أفضل الأخلاق . . وأجلّها . . وأعظمها قدرًا . . وأكثرها نفعًا . . بل هو خاصة الإنسانية .

فمن لا حياء فيه . . ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم . . وصورتهما الظاهرة .

كما أنه ليس معه من الخير شيء .

وهذا هو الأصل : أن نبقى على الأرض صالحة كما خلقها الله عز وجل : وذلك بطاعته تعالى . وتجنب عصيانه . .

يعيننا على ذلك رفض محاولات الشيطان المريد لإضلالنا لإفساد حياتنا . . وبأيدينا .

ما يزال الشيطان يتحرش بنا . إنه قد يظهر لنا أنه متشاغل عنا . قد يغرينا بمعسول الأمانى لكنه فى نفس الوقت متوثب : عيناه على الفريسة !!

فلنحذره على ديننا . . قبل أن يسرقه منا من حيث لا ندرى !

• • •

واقعية الإسلام

إذا كان الأصل أن نطيع الله عز وجل . فإن من رحمته تعالى أن شرع لنا من الدين ما ينسجم مع طبيعتنا . . إنه تعالى يعلم من خلق ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ [الملك: ١٤] .

وهو عز وجل يعلم أنه خلقنا من طين . . وفى الطين كدورة . . وإذن فلابد من التورط فى الخطأ . . الذى يجيء إفرازاً لهذا التراب .

إننا نغالب الشيطان . . فيغلبنا أحيانا . . وهذا هو القاسم المشترك . .

هذا قدر « الكل » وليس قدر « الجُلّ » .

كل الناس : فرداً . . فرداً . . وليس إجمالاً . . وهذا من أسرار التعبير فى الحديث الشريف والذى قال : « كل ابن آدم » ولم يقل : « كل بنى آدم » ليكون الحكم عامًا . . حتى على مستوى القمة . . إذ يخطئ حتى المتقون لكنهم فى النهاية يعودون . .

﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ [آل عمران: ١٣٥] .

وتلك هى واقعية الإسلام الذى يعاملنا كبشر . . لا كملائكة راجعنا بهذه المعاملة الواقعية إلى عامل الوراثة والبيئة الذى أشار إليهما سبحانه بقوله : ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ﴾ [النجم: ٣٢] .

وهكذا : نسى آدم . . فنسيت ذريته . . وخطئ آدم . . فخطئت ذريته [١] .

الواقعية المثالية :

هناك من يؤذن فى النوّام ساعة السحر قائلاً :

هب املؤوا كأس المنى . . قبل أن تملأ كأس العمر كف القدر

(١) رواه الترمذى .

وهكذا يريدون الحياة سباقًا إلى مناعمها . . وقبل فوات الأوان . . يسرقون من الإنسان أثمن ساعات يومه . . وهي ساعات السحر !! متملقين عواطفه التى يحاولون دغدغتها . . قبل أن تفوت فرصتهم . . ثم لا تعود !

ولكن واقعية الإسلام . . مثالية : تحاول الصعود بالمسلم إلى أعلى لتربطه بالمثل الأعلى ، من حيث إنه ليس فقط قبضة من التراب . . ولكن فيه من أشواق الروح ما يحرضه على الارتفاع فوق هذا المستوى الأرضى .

بمعنى : أنه يُهيب بالمسلم ألا يستسلم لجاذبية هذا الواقع . . وعليه أن يغالبه صاعدًا فى جو السماء !

وقد كان هناك على جانبى الطريق حداة إلى هذا الصعود من خيرة البشر :

حاولوا الارتفاع بالإنسان . . بلفت نظره إلى سير الخواطر فى نفسه . . ليتصدى لها . . قبل أن تتخلق ثم يصعب الإقلاع عنها . .

ومن هؤلاء المربين : ابن القيم ـ رحمه الله ـ قال :

المعاصى : مبدؤها . . خاطرة .

فإن لم تدفعها . . صارت وسوسة .

فإن لم تدفعها . . صارت فكرة .

فإن لم تدفعها . . صارت إرادة .

فإن لم تدفعها . . صارت عزما .

فإن لم تدفعها . . صارت عملاً .

وهكذا . . صار المربون حداة على الطريق . . همّتهم معقودة بمرافقة الإنسان فى رحلة الكمال . . حتى لا يسقط فى مرحلة من مراحل الطريق : إن معظم النار من مستصغر الشرر . . والإصرار على الصغيرة . . يجعلها كبيرة . . ونحن مطالبون بوأدها فى مهدها . . قبل أن يكون لها قرار فى نفوسنا . . وقبل أن

يكون الشرر نارًا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى .

من التحذير .. إلى المراقبة

ويترتب على ذلك : مراقبة النفس حتى لا تزل فتضل على ما يقول الحكماء

راقب أفكارك . . فإنها تتحول إلى كلمات

راقب كلماتك . . فإنها تتحول إلى أفعال .

راقب أفعالك . . فإنها تتحول إلى عادات .

راقب عاداتك . . فإنها تتحول إلى طباع .

راقب طباعك . . فإنها ظلال مصيرك .

ضعيف الإنسان :

مسكين ابن آدم . . لو خاف من النار . . كما يخاف الفقر . . لنجا منهما جميعًا .

ولو رغب فى الجنة . . كما يرغب فى الدنيا . . لفاز بهما جميعًا .

ولو خاف الله فى الباطن . . كما يخاف خلقه فى الظاهر . . لسعد فى الدارين جميعًا .

اللهم ألهمنى علمًا أفقه به أوامراك ونواهيك . وارزقنى فهمًا أعلم به كيف أناجيك يا أرحم الراحمين .

• • •

خطأ الإرادة وخطيئة التصور

عصى إبليس ربه عز وجل . . وأيضًا عصى آدم ربه فغوى .

ولكن الفارق بين الموقفين شاسع واسع : فمعصية آدم عليه السلام . . نشأت عن ضعف الإرادة . .

وضعيف الإرادة معترف بذنبه . . راغب فى التوبة . . يعتصره الندم اعتصارًا .

أما فاسد التصور وهو إبليس المريد : فهو مبتدع ظان أنه على الحق . . ولم يرتكب ذنبًا . . فمن أى شىء يتوب ؟

إنه ظان أنه الفرد المختار . . أو المختال . .

وبينما ضعيف الإرادة مقرّ بعبوديته . . واقف بالباب يقول : اللهم بنورك اهتديت . . وبفضلك استغنيت وهذه ذنوبى بين يديك . . استغفرك ربى وأتوب إليك . .

بينما يقول المؤمن ذلك . . فإن فاسد التصور يقول ما حكاه القرآن الكريم عن إبليس : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ص: ٧٦] .

وهنا نحاول فهم المراد من الخطأ فى الحديث وهو : الخطأ الناشئ عن ضعف الإرادة . . فإن صاحبه على أمل العود إلى ربه من قريب .

ونقرأ فى ذلك قوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٧، ١٨] .

ومعنى ذلك : أن الخطأ الناشئ عن ضعف الإرادة هو قدر المؤمن : ذلك بأن خطأ الرامى يعنى : أنه أخطأ الهدف . . فلم يصبه . . فهو يتحرى الصواب ابتداء . . ثم ينزغه من الشيطان نزغ فلا يصيب الهدف . . مع حرصه على

ذلك

ولا يسبق المضمار في كل موطن من الخيل عند الجد إلا عرابها

لكل امرئٍ ما قدمت نفسه لـه خطاءاتها إذ أخطـأت أو صوابها

بل إنه خطاء

ملازم للخطايا غير تارك لها . . ولكن لسان حاله يهتف دائمًا يا رب إن أخطأت أو نسيت فأنت لا تنس ولا تموت .

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أنه سمع رسول الله ﷺ وسلم يقول « **إن عبدا أصاب ذنبا . فقال : يا رب ، إني أذنبت ذنبًا فاغفره .**

فقال له ربه : علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب . ويأخذ به : فَغَفَرَ له .

ثم مكث ما شاء الله . ثم أصاب ذنبا آخر . وربما قال : ثم أذنب ذنبا آخر فقال : يا رب ، إني أذنبت ذنبا آخر ، فاغفره لي .

قال ربه : علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب . ويأخذ به. فَغَفَرَ له .

ثم مكث ما شاء الله . ثم أصاب ذنبا آخر . وربما قال : « ثم أذنب ذنبا آخر» فقال : يا رب ، إني أذنبت ذنبا فاغفره لي .

فقال ربه : علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب . ويأخذ به .

فقال ربه : « غفرت لعبدي .. فليعمل ما شاء » [1] جاء في الترغيب والترهيب، وقوله : « فليعمل ما شاء » معناه والله أعلم

أنه ما دام كلما أذنب ذنبا استغفر وتاب منه . ولم يعد إليه بدليل قوله : « ثم أصاب ذنبا آخر » فليفعل ما شاء إذا كان هذا دأبه لأنه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره كفارة لذنبه فلا يضره لا أنه يذنب الذنب فيستغفر بلسانه من غير إقلاع . ثم يعاوده ، فإن هذه توبة الكذابين

(١) متفق عليه

ونقول : سواء كرر العبد نفس الذنب . . أو جدد آخر . . فإن الله عز وجل يقبل عنه توبته . . ما دام رجَّاعا إلى ربه تعالى .

بل أن بعض الصالحين كان يقول : رب : إن رجائى إياك . . فى معصيتى . . أكبر من رجائى فيك . . حال طاعتى : لأننى فى معصيتى أعتمد عليك . . وفى الطاعة . . . أعتمد على نفسى !!

وإذن . . فليس فى قوله « **فليعمل ما يشاء** » ليس فيه تحريض على المعصية : وإنما هو الأمل المتجدد فى الغفران . . فرارًا من اليأس . . والقنوط . .

• • •

الأمل فى عفو الله

فى حديث سابق . أشرنا إلى أن قوله : « **فليعمل ما يشاء** » ليس دعوة إلى التسيب . وإنما هى شحنة الأمل يقذفها الله عز وجل فى قلب عبده العائد بالتوبة إليه تعالى . . ليستأنف الحياة من جديد . متحررا من قبضة الشيطان . .

قال ابن الجوزى فى صيد الخاطر [1] : « فصل : اعملوا ما شئتم . . قد غفرت لكم » .

قال : نعوذ بالله من سوء الفهم . وخصوصا من المتسمين بالعلم : روى أحمد فى مسنده أنه : تنازع أبو عبد الرحمن السلمى ، وحيان بن عبد الله .

فقال أبو عبد الرحمن لحيان : قد علمت ما الذى حدا بصاحبك (يعنى عليا) .

قال : ما هو ؟

قال : قول النبى ﷺ : « **لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقالوا : اعملوا ما شئتم . فقد غفرت لكم** » .

وهذا سوء فهم من أبى عبد الرحمن . . حين ظن أن عليا قاتل وقُتل ، اعتماداً على أنه غفر له .

وينبغى أن يعلم أن معنى الحديث : لتكن أعمالكم المتقدمة . . ما كانت . . فقد غفرت لكم . فأما غفران ما سيأتى . فلا يتضمنه ذلك : أتراه وقع من أهل بدر ـ وحاشاهم ـ الشرك ـ إذ ليسوا بمعصومين ـ أما كانوا يؤاخذون به ؟ فكذلك المعاصى ؟ ثم لو قلنا : إنه يتضمن غفران ما سيأتى . فالمعنى أن مآلكم إلى الغفران .

ثم دعنا من معنى الحديث !

---

(١) (٤٧٥ ، ٤٧٦) .

كيف يحل لمسلم يظن فى أمير المؤمنين على رضى الله عنه : أنه فعل ما لا يجوز اعتمادا على أنه سيغفر له ؟!! حوش من هذا !!

وإنما قاتل بالدليل المضطر له إلى القتال . . فكان على الحق .

• • •

التوبة من التوبة

لم تكن معصية هذا الرجل ناشئة من فساد التصور ، وإنما كانت توبة من التوبة : إنها الإرادة الضعيفة يدخل بها مع الشيطان معركة انتهت بالعياذ بالله تعالى أن يحسم هذه المعركة لصالحه . . فأعاذه الله سبحانه من عدوه . . بهذا الغفران الذى به يولد الإنسان .

العود القريب:

وقد كان الصالحون إذا أذنبوا :

أولا : تخيلوا ما نعُدُّه اليوم أدق من الشعرة . . تخيلوها جبلا . . فتابوا من قريب وقبل أن يحتل الشيطان منهم الإرادة .

وذلك بعض ما يشير إليه قوله عز وجل : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠١] .

إن الشيطان لا يتمكن من قلوبهم المحروسة بالإيمان . . وإنما هو مجرد «مس» يذكرهم بخطورة الموقف . . فيفزعون مستبصرين لا يخطؤون . . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

وتأملوا من مشاهد القرية :

ذلك؛ البعير . . الذى يتركه الفلاح على أعتاب القرية إنه يعرف الطريق إلى الدار . . وبلا مرشد !

فكيف يضل المسلم الخائف المريد طريقه إلى ربه ؟!

أجل : قد يطول الطريق . . وقد تتخلله عثرات وعقبات ومعاناة . .

ولكن : لابد من صنعا وإن طال السفر ، لابد من الوصول ثم يتحقق المأمول .

ولكن .. بالصبر:

ذلك بأنك إذا غرست شجرة فى الصباح لا تستطيع الجلوس فى ظلها فى العصر !

إنك بمغفرة الذنب .. تكون قد تخلصت من الماضى .. ولكن إذا ذهب الماضى .. فقد بقيت من بعده : دروسه وعبره .

وبهذه الدروس .. وبهذا الحاضر الذى نملكه . نستطيع أن نقتحم المستقبل راشدين .. متجاوزين تلك السلبيات التى لا تزال تصرخ فينا .. حتى نقيق ..

ومن هؤلاء الذين أفاقوا بعد الغفلة ذلك العابد .. العائد إلى ربه عز وجل .. وهو يقول : إذا كنتَ يا ربِّ مع المحسنين ..

فلمن يلجأ المذنبون ؟

• • •

الحساب .. قبل الحساب

أحيانا : يقع المسلم بين شقي الرحا .

بين نفس أمارة بالسوء .. تزينه له تزيينا .

ونفس لوامة : تلاحقه باللوم والتثريب على ما قدمت يداه ..

وخروجا من هذا المأزق الحرج لابد له من وقفة يناقش فيها نفسه الحساب .. ليوازن بين حسابين : حساب ربحه .. وحساب خسارته .. ثم يوازن بينهما .. ليختار فى النهاية تصحيح مسيره على سواء الصراط .. بلا تفريط ولا إفراط .

من صور المحاسبة :

كان « بهرام » جالسا ذات يوم تحت شجرة .. فسمع منها صوت طائر .. فرماه .. فأصابه .

فقال على الفور : ما أحسن حفظ اللسان : بالطائر .. وبالإنسان لو حفظ هذا لسانه .. لما هلك !

وهكذا .. وبينما الشعراء يهيمون فى مثل هذا الموقف فى كل واد .. فإن المؤمن الحق .. يتجاوز هذا الخداع وهذا البريق .. لينفذ من القشر البادية إلى العبرة المستكنة .. وصولا إلى الاعتبار والاستبصار .

من نتائج المحاسبة :

الحاكم أحوج الناس إلى المحاسبة ؛ ولأن معصية الحاكم لربه عظيم الأثر ، على قدر ما له من خطر .. فقد كانت للعلماء هنا عظاتهم التى أمسكت على الحاكم إرادته .. بالنظر فى العواقب . ومحاسبة النفس أولاً بأول .. قبل أن يتطاير شررها .. لتسرى بالعدوى إلى الشعب الذى هو على دين ملوكه :

ومن ذلك :

ما كتبه « الحسن البصرى » إلى الخليفة العادل « عمر بن عبد العزيز » يقول :

من حاسب نفسه . . ربح .

ومن غفل عنها . . خسر .

ومن نظر إلى العواقب . . نجا .

ومن أطاع هواه . . ضل .

ومن حلم . . غنم .

ومن خاف . . سلم .

ومن اعتبر . . أبصر .

ومن أبصر . . فهم .

ومن فهم . . علم .

ومن علم . . عمل .

فإذا زللت . . فارجع .

وإذا ندمت . . فأقلع .

وإذا جهلت . . فاسأل . . وإذا غضبت . . فأمسك .

جاء في مدارج السالكين [1] .

إن المؤمن إذا حاسب نفسه : عرف ما عليه من الحق . فخرج منه . وتنصل منه إلى صاحبه .

والتحقيق: أن التوبة بين محاسبتين .

محاسبة قبلها . . تقتضي وجوبها .

ومحاسبة بعدها . . تقتضي حفظها .

فالتوبة محفوفة بمحاسبتين : وقد دل على المحاسبة قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا

(١) (١٨٩) وما بعدها .

الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ [الحشر: ١٨] .

فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد .

وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك . والنَّظَرَ : هل يصلُح ما قدمه أن يلقى الله به . أولا يصلح ؟؟

والمقصود من هذا النظر :

ما يوجبه . ويقتضيه : من كمال الاستعداد ليوم المعاد ، وتقديم ما ينجيه من عذاب الله . ويبيِّضُ وجهه عند الله .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا . وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا . وتزينوا للعرض الأكبر : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى منكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨].

ومن صورة المحاسبة: أن تقارن بين : ما من الله . . وما منك ، فحينئذ يظهر لك التفاوت وتعلم أنه ليس إلا عفوه ورحمته أو الهلاك والعطب .

ثم توازن بين السيئات والحسنات لتعلم : أيهما أكثر وأرجح : قدْرا وصفة.

جاء فى تفسير المنار : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]. قيل : إن الخطاب هنا لكل من يتوجه إليه من المكلفين ، وقيل : للنبى ﷺ ؛ والمراد به كل من أرسل إليهم ، والمعنى مهما يصيبك من حسنة فهى من محض فضل الله الذى سخر لك المنافع التى تحسن عندك لا باستحقاق سبق لك عنده ، وإلا فبماذا استحققت أن يسخر لك الهواء النقى الذى يطهر دمك ، ويحفظ حياتك ، والماء العذب الذى سيمد حياتك وحياة كل الأحياء التى تنتفع بها ، وهذه الأزواج الكثيرة من نبات الأرض وحيواناتها ، وغير ذلك من مواد الغذاء وأسباب الراحة والهناء ! ومهما يصبك من سيئة فمن نفسك ، فإنك أوتيت قدرة على العمل واختيارًا فى تقدير الباعث الفطرى عليه درء المضار وجلب المنافع ، فصرت تعمل باجتهادك فى ترجيح بعض الأسباب

والمقاصد على بعض فتخطئ فتقع فيما يسوؤك ، فلا أنت تسير على سنن الفطرة وتتحرى جادتها ، ولا أنت تحيط علما بالسنن والأسباب وضبط الهوى والإرادة فى اختيار الحسن منها ، وإنما ترجح بعضها على بعض فى حين دون حين بالهوى أو قبل المعرفة التامة بالنافع والضار منها فتقع فيما يسوؤك ، ولو لا ذلك لما عملت السيئات .

وتفصيل القول أن هنا حقيقتين متفقتين .

إحداهما : أن كل شىء من عند الله ، بمعنى أنه خالق الأشياء التى هى مواد المنافع والمضار ، وأنه واضع النظام والسنن لأسببا الوصول إلى هذه الأشياء بسعى الإنسان ، وكل شىء حسن بهذا الاعتبار ؛ لأنه مظهر الإبداع والنظام .

والثانية : أن الإنسان لا يقع فى شىء يسوؤه إلا بتقصير منه فى استبانة الأسباب وتعرف السنن ، فالسوء معنى يعرض للأشياء بتصرف الإنسان ، وباعتبار أنها تسوؤه وليس ذاتيا لها ولذلك يسند إلى الإنسان .

• • •

محكمة الضمير

يقول الله عز وجل : ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥] .

أنه تعالى لما قال فى الآية السابقة : ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ١٣] قال هنا : بل إن الإنسان عندئذ لا يحتاج إلى من ينبئه . .

ذلك ؛ لأن نفسه شاهدة بأنه فاعل هذه الفعال . . بل إنه نفسه « بصيرة»: لأن الإنسان بضرورة عقله يعلم أن ما يقربه إلى الله . ويشغله بطاعته وخدمته . . فهو السعادة . . وما يبعده عن طاعة الله ، ويشغله بالدنيا ولذاتها . . فهو الشقاوة فهب أنه بلسانه يروج ، ويزور . ويرى الحق فى صورة الباطل ، والباطل فى صورة الحق . .

لكنه بعقله السليم يعلم أن الذى هو عليه فى ظاهره : جيدٌ أو ردىء [١] .

بمعنى أنه : حجة بينة على أعماله ؛ يعنى : أنه فى غاية المعرفة لأحوال نفسه: فإذا تأمل . وأنعم النظر . ولم يقف مع الحظوظ ، ، عرف جيد فعله من رديئه [٢].

وإحاطة الإنسان بأعماله تلك . . راجع إلى سببين :

السبب الأول : الفطرة التى تدرك الفارق بين الخير والشر .

والسبب الثانى ـ وهو الأهم : أن الله عز وجل وفى الآخرة : يعطى الإنسان فى ذلك اليوم قوة الذكرى ، حتى تصير أعماله بين عينيه.

لأنه تعالى ينفى عنه الشواغل على البدنية . ويكشف عنه الحجب النفسانية . . حتى تصير أعماله ممثلة له : كأنه يراها . . ولا تنفعه معذرته: لأن كل شىء تعتذر

---

(١) الرازى .

(٢) البقاعى .

به عن نفسه . . يعرف كذبه بنفس وجوده ، لا بشيء خارج عنه . ا هـ .

ولا حظ من دقة التعبير القرآني هنا في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ [القيامة : ١٥] .

ومعنى ذلك : إنه يتحايل أنه يلقى باعتذاراته بسرعة . وبلا تلعثم تعبيراً عن ثقته بنفسه . وصدق ما يقول وهيهات : فإنه نفسه . . وكلٌ جوارحه سوف تفضحه .

ولأن فضوح الآخرة أشد من فضوح الدنيا . . فقد كان الصالحون من عباد الله يحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا ويزنون أعمالهم . قبل أن توزن عليهم : وذلك بدوام التركيز على أعمالهم وآثارها . . ومدى التزامهم بطاعته عز وجل . وتجنب عصيانه .

ومنهم ذلك الذي بلغ من حساسية ضميره أنه وفي حال طاعته كان يذكر معصيته . .

وفي حال عصيانه . . كيف أن يذكر طاعته ، بمعنى : أنه في حال الطاعة يخش معصية الغرور وفي حالة المعصية يذكر طاعة الرجوع إلى الله تعالى متذللاً وجلاً . . مشفقا : ولكن : هل كل إنسان صالح لأن ينقد نفسه على هذا المستوى الصارم . . والذي لا يساوم أبداً .

فلابد من ضوابط . . بها يتمكن الإنسان من محاسبة نفسه أولا بأول . . حتى لا تصير المعاصي ذلك « الرَّان » الذي يحجب نور القلب .

وقد لخص العلماء هذه الضوابط في ثلاثة أشياء هي :

أ ـ نور الحكمة .

ب ـ وسوء الظن بالنفس .

جـ ـ وتمييز النعمة من الفتنة .

وهذا ما يفصله ابن قيم الجوزية فى كتابه . . مدارج السالكين [١] .

قال : ونور الحكمة هنا : هو : العلم الذى يميز به العبد بين الحق والباطل . ومراتب الأعمال راجحها . ومرجوحها ، ومقبولها ومردودها .

وكلما كان حظه من هذا النور أقوى . . كان حظه من المحاسبة أكمل وأتم . . ومن أحسن ظنه بنفسه . . فهو من أجهل الناس بنفسه .

وأما سوء الظن بالنفس :

فلأن حسن الظن بالنفس يمنعها من التفتيش فيلَبَّسُ عليه : فيرى المساوئ محاسن ، والعيوب كمالا ، وعين الرضا عن كل عيب كليلة .

وأما تمييز النعمة من الفتنة :

فليفرق بين النعمة التى يرى بها الإحسان واللطف ، ويُعان بها على تحصيل سعادته الأبدية . . وبين النعمة التى بها الاستدراج ، فكم من مستدرج بالنعم وهو لا يشعر . مفتونٍ بثناء الجهال عليه . مغرورٍ بقضاء الله حوائجه . وستره عليه [٢] .

ومن صور المحاسبة : دقة التفتيش عن العيوب . . والاعتراف بها يقول صاحب « المنار » : ينبغى لمن أصابته سيئة أن يبحث عن سببها من نفسه ، ولا يكتفى بعدم إسنادها إلى شؤم غيره ممن ليس له فيها عمل ولا كسب ؛ لأن السيئة تصيب الإنسان بما تقدم شرحه آنفا من تقصيره وخروجه بجهله أو هواه عن سنة الله فى التماس المنفعة من أبوابها ، واتقاء المضار باتقاء أسبابها ؛ لأن الأصل فى نظام الفطرة البشرية هو ما يجده الإنسان فى نفسه من ترجيح الخير لها على الشر، والنفع على الضر ، وكون كل قوة من قواه ، نافعة له إذا أحسن استعمالها ، وليس فى أصل الفطرة سيئة قط ، وإنما الإنسان يقع فى الضرر غالبا بسوء

---

(١) (١/ ١٩١).

(٢) نفس المرجع والموضع.

الاستعمال وطلب مـالا تقتضيه الفطرة لو لا جنايته عليها باجـتهاده ، . كالإفراط في اللذات والتعب ، تنفر منه الفطرة فـيحتال الإنسان عليها ويحـملها مالا تحمله بطبعـها لو لا ظلمة لها ، كـاستعمـاله الأدوية لإثارة شهوة الطعام والـوقاع وعدم وقوفه فيهما عند حد الداعيـة الطبيعية ، كأن لا يأكل إلا إذا جاع من نفسه ، ولا يملأ بطنه من الطعام بما يحـمله على ذلك، من الأدوية المقوية والتوابل المحـرضة ، فمصائب الإنسان من ظلمه وكسبه . ا . هـ .

• • •

المعصية داء

والتوبة دواء

يقرر البصراء بطبيعة النفس الإنسانية :

إن للمعصية وهنا فى البدن . وغبرة فى الوجه . ونقصا فى الرزق وبغضا فى قلوب الخلق .

فإن كنت فى شك من هذه الآصار . . فتأمل معصية « الحقد » وحدها . . وكيف كان لها من الآثار المدمرة ما يؤكد قول هؤلاء البصراء :

فمن معانى الحقد :

أن الإنسان يضنّ . . لا بماله . . وإنما بمال غيره بحيث إنه : لو وصلت النعمة إلى غيره . . لتمنى زوالها . . ساخطا فى نفس الوقت على قضاء الله سبحانه وتعالى .

ومع ذلك . . وإذا كان للمعصية هذا الأثر . وذلك الخطر . . فإن الله الرحمن الرحيم يفتح باب التوبة . . والتى تخلص الخاطئ من هذا الهوان . . ليعود كما كان يوم وُلد معافىً : فى الدين والدنيا .

ما هى التوبة ؟

المقصود بالتوبة هو : التوبة النصوح . . وهى :

ترك الذنب . . لقبحه .

والندم على ما فَرَط منه .

والعزيمة على ترك المعاودة .

وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة .

ومن معانى ذلك : وذلك كله ، ظاهرة صحية .

ومتى أراد العبد . . شاهدَ هذا من نفسه : فلينظر إلى الفرحة التى يجدها بعد التوبة النصوح . والسرور واللذة التى تحصل له . والجزاء من جنس العمل: فلما تاب إلى الله . . ففرح الله بتوبته . . أعقبه فرحا عظيمًا .

وهنا دقيقة قلّ من يتفطن لها إلا فقيه فى هذا الشأن وهى : أن كل تائب . . لابد له فى أول توبته من عصرة وضغطة فى قلبه من هم أو غم ، أو ضيق أو حزن .

ولو لم يكن إلا تألمه بفراق محبوبه فينضغط لذلك ، ويتعصر قلبه ويضيق صدره .

فأكثر الخلق رجعوا من التوبة ، ونُكسوا على رؤوسهم لأجل هذه المحبة.

والعارف الموفق : يعلم أن الفرحة . والسرور واللذة الحاصلة عقيب التوبة . . تكون على قدر هذه العصرة ، فكلما كانت أقوى وأشد . . كانت الفرحة واللذة أقوى وأتم .

ولهذه أسباب عديدة : منها :

أن العصرة والقبض دليل على حياة قلبه . وقوة استعداده .

ولو كان قلبه ميتا . واستعداده ضعيفًا . . لم يحصل له ذلك.

وأيضًا : فإن الشيطان لص الإيمان .

اللص : إنما يقصد المكان المعمور . . وأما المكان الخراب الذى لا يرجو أن يظفر منه بشىء . . فلا يقصده فإذا قويت المعارضات الشيطانية والعصْرةَ دل على أنه فى قلبه من الخير ما يشتد حرص الشيطان على نزعه منه [1].

إن الذنب بمنزلة المرض. والتوبة بمنزلة العافية ، والعبد إذا مرض ثم عوفى . . وتكاملت عافيته . . وجعت صحته إلى ما كانت . .

---

(١) طريق الهجرتين ٣٣٩ وما بعدها .

بل ربما رجع أقوى وأكمل مما كانت عليه ؛ لأنه ربما كان معه فى حال العافية آلام وأسقام كامنة

فإذا اعتل ظهرت تلك الأسقام ثم زالت بالعافية جملة فتعود قوته خيرا مما كانت وأكمل

وفى مثل هذا قال الشاعر

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

المعاصى : ابتلاء

كان آدم عليه السلام ـ أبو البشر ـ كان أول من تعرض لهذا النوع من الابتلاء

وذلك عندما أكل من الشجرة التى نهاه الله عنها ، وقد سجل القرآن الكريم هذه الواقعة فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

دور الشيطان:

يقول عز وجل ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٦].

وقد أشار ابن قيم الجوزية إلى ثمرة هذا الابتلاء فقال: « لو لم تكن التوبة أحب إلى الله لما ابتلى بالذنب أكرم المخلوقات عليه وهو آدم عليه السلام »

فالتوبة هى : غاية كل كمال آدمى وقد كان كمال أبينا آدم عليه السلام بها

وللشيطان المريد سلاحه فى الإغواء والإغراء وهو النفس الأمارة التى يجب علينا أن نتصدى لها تقليمًا لأظافرها

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٨٦).

مشكلة الطاعة وليست مشكلة المعصية

يقول الله عز وجل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧، ٦١].

تمهيد :

عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : يا رسول الله ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ : هو الذى يسرق ، ويزنى ، ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله عز وجل ؟

قال: « لا ، يا بنت أبى بكر » : يا بنت الصدّيق ، « ولكنه الذى يصلى . ويصوم. ويتصدق . وهو يخاف الله عز وجل » (١).

إنهم ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ وليسوا فقط ﴿ خائفين ﴾ ؛ لأن فى الإشفاق زيادة فى نسبة الرقة والضعف فوق ما يحس الخائفون :

ومعنى ذلك : أنهم يذوبون وجلا من الله تعالى.. وأنهم من المعاصى فى نهاية الإحتراز عنها إن قلوبهم تشبه « الرادار » الذى يسجل صورة الكائن الذى لا يُرى حتى بالعين المجردة .. أو كميزان بائع الذهب ، يسجل حتى هبة النسيم..

وآية ذلك : أنهم مشفقون من عذاب الله مع أنهم لا يعصون الله ما أمرهم:

إن خوفهم عظيم من ربهم المحسن إليهم المنعم عليهم .. دائموا الحذر من عذابه .

ومع أنهم مؤمنون ولا يشركون به شيئًا .. ومع أنهم يعطون ما يعطون لكنهم خائفون وجلون ألا يقبل الله تعالى منهم .. لأن « الآخرة » متوهجة فى

(١) ابن كثير ط الشعب (٤٧٤).

قلوبهم . . والرجوع إلى الله تعالى مانع لهم من عصيانه . .

إن أحدهم يتصور الذنب جبلاً . . ثم هو على غاية ما يكون الحذر . .

فإذا حاول الشيطان النزول بساحته . فساء صباح النازلين: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠١] .

وحتى إذا نزغهم من الشيطان نزغ تذكروا فإذا هم أيقاظ : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٥] .

إنهم « يفعلون » ولا « يعملون » يفعلونها بلا سبق ترصد ولا إصرار . .

ولكن ضمائرها لا تفقد حيويتها ولا هيمنتها . . سُرعان ما يستيقظون عائدين إلى ربهم بعيون هطالة بالدموع !

وإذن . . فمشكلتهم ليست فى الذنوب . . فهم لا يذنبون وإذا أذنبوا يتوبون .

ولكن مشكلتهم الحقيقة تكمن فى طاعتهم : فبعضهم ـ مِنْ فرط عشقه لطاعة ربه . . لا يجد في طاعته مشقة . . وهى سبب الثواب الذى يجىء طبق هذه المشقة !

فإذا لم تكن لديه إحساس بالمعاناة . .فكيف يثاب عليها ؟!

بل إن أحدهم من شدة إحساسه بتقصيره ـ يرى فى طاعته معصية يخاف من آثارها ؟

فقد يطيع . . ثم ينتابه شيء من الغرور . . على الأقل لأن الله سبحانه وتعالى وفقه إلى الطاعة تكريمًا له بينما غيره متورط فى المعصية . . لهوانه على الله!

ومن شأن هذه الأحساسيس أن تنغص على العابد عبادته . . ولكنها فى نفس

الوقت حساسية محسوبة له . . وهى فى ميزان حسناته .

وقد سألنى سائل : مشكلتى ليست فى معصيتى . . بتوفيق الله . ولكنها فى طاعتى؟

فربما قصدت إلى الطاعة فى صحبة إحساس بثقلها علىّ وأخاف أن أكون من المنافقين المتكاسلين ؟!

وقلت له:

أ ـ خوفك هذا ظاهرة صحية على حيوية المؤمن الوجل . . الحذر . . وقد خاف من قبلك عمر رضى الله عنه : كان يجوس خلال سكك المدينة وراء «حذيفة » رضى الله عنه يلح عليه : هل هو من المنافقين؟!!

ب ـ ثم إن قوله تعالى عن المنافقين : ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ ﴾ [النساء:١٤٢] لا ينطبق عليك : فهم يكرهون الصلاة ولا يطيقون رؤية الأيدى المتوضئة .

أما أنت فمعترف بحقية الطاعة . . وربما كان المؤمن عاصيا لكنه يحب الطائعين . .

ثم إن أداءك الطاعة مع الإحساس بهذه المعاناة يدل على أمرين :

أنك بيت عامر بالصالحات . . ولما كان الشيطان « لصًا » فهو لا يقصد إلا البيت العامر . . وهو أنت !

جـ ـ وذلك دلالة ذلك الضغط العالى من لدنه . . عليك . . فإذ فعلت الطاعة فى هذا الجد المشحون بالتوتر . . فمعنى هذا: أنك خالفت هواك . . وأطعت مولاك .

• • •

حتى يعود العبد الآبق إلى سيده

يقول عز وجل : ﴿... ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ [الشورى: ٢٥] .

فى الآية الأولى يقول المفسرون :

(رجع بهم - بعد التوبة - إلى مقام من مقامات سلامة الفطرة . الذى هو أحسن تقويم . . تاب عليهم : ليرجعوا إلى ما تقتضيه الفطرة الأولى ، من الثبات على ما كانوا عليه : من الإحسان فى الدين والتخلق بأخلاق السابقين . .

ولعله عبر بالظن موضع العلم : إشارة إلى أنه يكفى فى الخوف من جلاله للانقطاع إليه . . يكفى مجرد الظن بأنه لا سبب إليه إلا منه [١] .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى وهو الخالق ييسر سبيل العود إليه سبحانه . . فكيف بالمخلوق الذى يجب عليه أن يعن هذا التائب ليعود إلى الصف المؤمن بعد شرود ؟!!

بل إنه تعالى يمن على هذا التائب - مع هذا التيسير - بفرحه العظيم بعودته سالما إلى ما كان عليه . . مما يفرض علينا أن نجعل من هذا العود الحميد يوم عيد سعيد ؟ .

من دروس الصالحين :

وقف « العاصى » ينتحب أمام الشيخ « صالح الجعفرى » وهو يفضى إليه بسره . . ورغبته فى توبة نصوح . .

فقال له الشيخ : قم . . واغتسل . . وقص شعرك . وأظافرك . . وعد . . وسأخبرك .

---

(١) نظم الدرر.

فإذا فعل المذنب ما أمر به الشيخ . . عاد إليه . . فتهلل الشيخ وقال له : أبشر !!.

هذه توبة . لن تكون مقبولة لدى الله . إذا عدت إلى فعلتك السابقة :

هانتذا . . قد نزعت كل أثر فى جسمك للمعصية حين تطهرت . وحلقت . . ونظفت .

لقد ولدت من جديد . . وسيعفو الله عما سلف .

وإياك ثم إياك . . ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

إن الراغب فى التوبة لا يزال فى المنطقة الخطرة . . واقعا تحت ضغوط من النفس والهوى والشيطان . . ومفروض علينا أن نمد أيدينا لهذا الغريق ، حتى يفيق !!

إنه مسحور . .

غائب عن الوعى . . ماض إلى حيث لا يعرف حقيقة ما يراد به . . من قبل نفسٍ إمارة تغريه بالإثم والعدوان .

ولها فى ذلك غرائب وعجائب :

ومن أعجب أمرها أنها تسحر العقل والقلب : فتأتى إلى أشرف الأشياء . وأفضلها . وأجلها : فتخرجه فى صورة مذمومة ، وأكثر الخلق : صبيان العقول. أطفال الأحلام . . لم يصلوا إلى حد الفطام الأول عن العوائد والمألوفات . . فضلا عن البلوغ الذى يتميّز به العاقل البالغ بين الخير فيؤثره والشر فيتجنبه :

فتريه صورة تجريد التوحيد . التى هى أبهى من صورة الشمس والقمر . . فى

صورة التنقيص المذموم .

وتريه هضم العظماء منازلهم ، وحطهم منها إلى مرتبة العبودية المحضة . والمسكنة والذل . والفقر المحض . الذى لا ملك لهم معه . ولا إرادة ولا شفاعة إلا من بعد إذن الله : تريهم هذه النفس السحارة « الأمارة » هذا القدر غاية تنقيصهم . وهضمهم . ونزول أقدارهم . وعد تمييزهم عن المساكين والفقراء : فتنفر نفوسهم من تجريد التوحيد أشد النفار ويقولون ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] .

وتريهم تجريد المتابعة للرسول وما جاء له . وتقديمه على آراء الرجال فى صورة تنقيص العلماء . والرغبة عن أقوالهم .

وما فهموه عن الله ورسوله . . وأن هذا إساءة أدب عليهم . وتقدُّمٌ بين أيديهم . وهو مفض إلى إساءة الظن بهم . وأنهم قد فاتهم الصواب .

وكيف لنا قوة أن نرد عليهم . ونفوزَ ونحظى بالصواب دونهم ؟ فتنفِّر من ذلك أشد النفار . وتجعل كلامهم هو الحكم الواجب الاتباع . وكلام الرسول هو المتشابه الذى يعرض على أقوالهم : فما وافقها قبلناه . وما خالفها رددناه [١] .

• • •

(١) نضرة النعيم (١) .

من معانـــى التوبـــة

تأخذ التوبة معناها الإيجابى المتراحب : ففيها معنى الحزم :

أ ـ وذلك بإطراح التردد واتخاذ القـرار الصارم . . بالإقلاع عن المعاصى . . مما يفرض على الشيطان أن يخنس هاربا أمام هذه الإرادة المصممة .

ب ـ وفيهـا معنى التحدى : وذلك بعض معـانى « الندم » الذى هو اعتراف بالخطأ . . وبه نتحدى الشيطان الذى خدعنا سـاعة . . ولن يخدعنا كل ساعة . . فلن نكرر الخطأ بعد اليوم . . أعنى : لن نطيعك بعد اليوم !!

جـ ـ وإذا كانت التـوبة مكلفة . . فنحن نتـحمل مسؤوليـة هذا التكليف برد الحقوق الإنسـانية إلى أصحابها . .

وإذ يكرر الشـيطان المريد مـحاولة الإغـواء . . فنحن « توابون » ولسنا فـقط تائبين . . أعنى : نجدد توبة كلما جدد إغواء .

وقد لخص الإمام على رضى الله عنه ذلك فى ستة معان :

١ ـ على الماضى من الذنوب : الندامة .

٢ ـ ولتضييع الفرائض : الإعادة .

٣ ـ ورد المظالم .

٤ ـ وإذابة النفس فى الطاعة . . كما ربيتها فى المعصية .

٥ ـ وإذاقة النفس مرارة الطاعة . . كما أذقتها حلاوة المعصية .

٦ ـ والبكاء . . بدل كل ضحك ضحكته .

إن التـائب ينس الماضى : فلا تبـقى لذة المعصـية فى خـاطره ، ثم هو « فى الزمن الحاضر » ممتلئ عزما على ألا يكرر الذنب . عاقدا العزم على أن يكون فى المستقبل أكثر نفورًا من المعصية على أن يتم ذلك كله لله وفى الله عز وجل : (فإن

من ندم على شرب الخمر لما فيه مـن الصداع . أو خفة العقل . أو الإخلال بالمال والعرض . . لم يكن تائبا شرعا . . ومن سُلب القـدرة على معصية مثل الزنا . . وانقطع طمعه عن عود القدرة إليه . . لم يكن ذلك توبة منه) (١) .

• • •

التوبة من ترك المأمور أولى : من التوبة من فعل المحظور

وللتوبة فى ضوء ما ذكرنا مراتب :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى (٢) : من تاب توبة عـامة . . كانت هذه التوبة مـقتضية لغـفران الذنوب . وإن لم يستحضـر أعيان الذنوب . . وما كان من الذنوب ناسيًا له . . لكن ـ لو استحضره ـ لم يتب منه . . لم يدخل فى التوبة .

وأما ما كان ـ مما لوا ستحضره . . لكان مما يتوب منه . . فإن التوبة العامة شـاملة له . . وكثير من الناس : لا يستحضـر عند التوبة إلا بعض المعـاصى المتصفات « بالفاحشة » أو مقـدماتها . . وقد يكون ما تركه من المأمور الذى يجب عليه من شعب الإيمان وحقائقه أعظم حذراً عليه مما فعله من بعض الفواحش :

فإن ما أمر الله عز وجل له من حقائق الإيمان التى بها يصير العبد من المؤمنين حقًا أعظمُ نفعا من نفع ترك بعض الذنوب الظاهرة :

ومن هذه الأمور الأعظم :

حب الله ورسوله : فإن هذا أعظم الحسنات الفعلية .

هذه هى الحقيقة فى قضية التوبة . . ولكن ما هو واقع الناس إزاءها ؟ يجيب الشيخ رحمه الله قائلا : « إن الناس فى غالب أحوالهم لا يتوبون توبة عامة . مع

---

(١) نضرة النعيم (٤/ ١٢٦٩، ١٢٧٠) .

(٢) نفس المرجع والموضع .

حاجتهم إلى ذلك .

فإن التوبة واجبة على كل عبد . فى كل حال ؛ لأنه دائما يظهر له ما فَرَطَ منه .

من ترك مأمور أو ما اعتدى فيه من فعل محظور فعليه أن يتوب دائما ا . هـ [١] .

منزلة التوبة :

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى فى بيان أهمية التوبة :

التوبة هى : حقيقة دين الإسلام .

والدين كله داخل فى مسمَّى التوبة . وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله . فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين .

وإنما يحب الله : مَنْ فعل ما أمَر به . وتَرَكَ ما نَهى عنه .

فإذا التوبة هى : الرجوع عما يكرهه الله : ظاهرًا وباطنًا . . وإلى ما يحبه سبحانه ظاهرًا وباطنًا .

وبهذا كانت غاية كل مؤمن . وبداية الأمر . وخاتمته . وهى الغاية التى وجد لأجلها الخلق والأمر .

والتوحيد جزء منها ، بل هو : جزؤها الأعظم . الذى عليه بناؤها .

وأكثر الناس لا يعرف قدر التوبة . ولا حقيقتها . فضلا عن القيام بها علما . وعملا . وحالا .

ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه .

ولو لا أن التوبة . اسم جامع لشرائع الإسلام . وحقائق الإيمان . . لم يكن

---

(١) نفس المرجع والموضع .

الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم . ا . هـ .

وإذا كان هـذا حالَ أكـثر الناس . فـإن هناك من القلة من أدرك حقـيقـتهـا ومنزلتها . . ثم داوم عليها ملاحقة لذنوبه يغسلها بها . . ليصبح من المتطهرين . . وشعاره دائمًا : ولأن يخطئ المسلم فى العلم . . أيسر من أن يخطئ فى الدين!!

• • •

التوبة والميلاد الجديد

بالتوبة : يولد المسلم من جديد . . وكأن شيئًا لم يكن ! ولكن لابد من تحمل آلام المخاض ؟!

فليكن العود حميدًا . . يحفر بينك وبين الماضى برزخًا واسعًا فلا تخطر لك المعصية ببال . . وإذا خطرت . . فلتستشعر بالذكرى ما كان من خبال !

وقد ذكروا فى ذلك :

أن طالبا جامعيا كان يؤثر الذهاب إلى جامعته عبر طريق طويل . . وبين يديه البديل السهل القصير ؟

ولما سئل فى ذلك قال:

يذكرنى الطريق القصير بمعصية ارتكبتها فيه . . فأنا أوثر تعب القالب على تعب القلب !!

وأما شيخه . فقد نسى يومًا وسار فى طريق عصى الله تعالى فيه . . فلما تذكر : خر مغشيا عليه . . ولما سئل بعد ما أفاق قال: تذكرت أنى اغتبت إنسانا هنا !!

إنه العلم بخطورة الذنب . . ثم استشعار عظمة من أخطأت فى حقه سبحانه . . فكان ما كان !

ومن ثم . . فأصحاب هذه المدرسة يتوبون . . ثم يتوبون من التوبة !!

وهنا ندرك إلى أى حد كانت التوبة نعمة عظمى :

إنها الباب المفتوح . . أو خط الرجعى إلى ما قبل العصيان . . ولو أنه أغلق لحدث أمران أحدهما مر : إما الانطواء . فالعقد النفسية وإما التسيب والفوضى!

وبالتوبة تنشط الإرادة من جديد . . ذلك بأن الإرادة هى مركب العبودية . وأساس بنائها الذى لا تقوم إلا عليه .

فلا عبودية لمن لا إرادة له .

بل أكمل الخلق أكملهم عبودية ومحبة . وأصحهم حالا .

وأقومهم معرفة . وأتمهم إرادة .

وهنا سؤال يفرض نفسه . . وقد شغل العلماء أنفسهم به وهو : ما هو وضع المذنب بعد التوبة ؟

هل يعود . . كما كان . . قبل المعصية ؟

أم يعود أفضل مما كان ؟!

قال فريق من العلماء : إذا كان للعبد حال أو مقام مع الله . . ثم نزل عنه إلى ذنب ارتكبه . . ثم تاب من ذنبه .

هل يعود إلى مثل ما كان . . أو لا يعود ؟

بل إن رجع رجع إلى أنزل من مقامه ، وأنقص من رتبته أو يعود خيراً مما كان ؟

قالت طائفة : يعود بالتوبة إلى مثل حاله الأولى ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له .

وإذا مُحى أثر الذنب بالتوبة صار وجوده كعدمه . فكأنه لم يكن . فيعود إلى مثل حاله .

وقالوا : ولأن التوبة هى الرجوع إلى الله بعد الإباق منه . . فإن المعصية إباق العبد من ربه . فإن تاب إلى الله رجع إليه .

قالوا : ولأن التوبة كما ترفع أثر الذنب فى الحال بالإقلاع عنه . . وفى المستقبل : بالعزم على ألا يعود . . فكذلك ترفع أثره فى الماضى جملة .

• • •

خلق الحياء

ويبقى الحياء طوق النجاة . وباعث الأمل في قلوب العائدين إلى ربهم.

ولو لا هذا الخلق : لم يُقْرِ الضيف . ولم يوف بالوعد . ولم تُؤد أمانة ولم يقصد لأحد حاجة . . ولا تحرى الرجلُ الجميلَ . . فآثره . . والقبيح فتجنبه ولا ستَر له عورة . ولا امتنع من فاحشة .

وكثير من الناس ـ لو لا الحياء الذى فيه ـ لم يؤد شيئًا من الأمور المفترضة عليه . ولم يرع لمخلوق حقًا . ولم يصل له رحمًا . ولا بَرَّ له والدًا .

فإن الباعث على هذه الأفعال:

إما دينى : وهو رجاء عاقبتها الحميدة .

وإما دنيوى : وهو حياء فاعلها من الخلق .

فقد تبين أنه : لو لا الحياء : إما من الخالق ، أو من الخلائق . . لم يفعلها صاحبها [1] .

ورحم الله عبد الله بن مسعود حين قال : ما ندمت على شيء ندمى على يوم مضى من عمرى : نقص به أجلى . ولم يزد به عملى !

وعلى المسلم اليوم أن يناقش نفسه الحساب :

كم من الأيام انصرمت من عمره . . لتكون شاهدة عليه ؟! فهل أعددت لهذه الشهود جوابًا ؟!

• • •

(١) مفتاح دار السعادة (٢٩٩) .

التوبة .. أو السلعة الغالية

التائبون هم السعداء :

السعداء بما ينالون من الخيرات :

فهم لها سابقون :

يستمتعون بها فى الدنيا . . ثم هى لهم فى الجنة نعيم مقيم .

أنها ذلك الباب المفتوح بين أيديهم . . والذى يصل بهم إلى نعمة هى أربى من الدنيا وما فيها :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قالت قريش للنبى ﷺ : « ادع ربك يجعل لنا الصفا ذهبا . . فإن أصبح ذهبا اتبعناك . فدعا ربه . فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن ربك يقرئك السلام . ويقول لك : إن شئت أَصْبَحَ لهم الصفا ذهبا ، فمن كفر منهم عذبته عذابا لا أعذبه أحدًا من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة . قال : بل باب التوبة والرحمة » (١) .

وهكذا يجىء اقتراح قريش صادراً عن نزعة مادية . . حوّل الإسلام مجراها . . ترقيا بالأمل فيما هو أفضل من الدنيا وما فيها .

ومن أجل ذلك : كان دعاؤه ﷺ . . متجاوزاً كل متاع زهرة الحياة الدنيا . . معلما أمته كيف تتعلق قلوبها بما هو أكرم وأعز .

عن عائشة رضى الله عنها ، قالت كان رسول الله ﷺ ، يكثر من قول : «**سبحان الله وبحمده . أستغفر الله . وأتوب إليه** »، قالت : فقلت : يا رسول الله، أراك تكثر قول : سبحان الله وبحمده ، وأستغفرب الله وأتوب إليه ؟ فقال : **خبرّنى ربى أنى سأرى علامةً فى أمتى ، فإذا رأيتها أكثرت من قول : سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله ، وأتوب إليه فقد رأيتها** : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾

(١) رواه الإمام أحمد (١/ ٣٤٥) ورواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ﴿٢﴾ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

وعلى إثره ﷺ سار الصالحون. الذين جعلوا من التوبة شرعة لهم ومنهاجا.

قال عمر رضى الله عنها : « اجلسوا إلى التوابين : فإنهم أرق أفئدة » (١).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : « التوبة من أفضل مقامات السالكين لأنها أول المنازل . وأوسطها . وآخرها » .

فلا يفارقها العبد أبدًا . . ولا يزال فيها إلى الممات : وإن ارتحل السالك منها إلى منزل آخر ارتحل به . ونزل به فهى بداية العبد ونهايته .

وحاجته إليها فى النهاية ضرورية . كما حاجته إليها فى البداية كذلك (٢).

ولقد وصل الأمر بالصالحين من أمتنا أن بلغت حساسيتهم المرهفة حدًا نزَّهوا فيه ألسنتهم حتى من اغتياب الكافر ، احتفاظا بالنفس صفحة بيضاء من غير سوء.

سئل ابن وهب رحمه الله ، عن حكم اغتياب الكافر ؟

فقال : أليسوا ناسا ؟!

فلما قيل له : نعم.

قال : اقرؤوا قوله عز وجل : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة:٨٣] .

ويعني ذلك : أن الإسلام يحترم مشاعر الإنسان مهما كانت عقيدته . .

وقد وعى هذا الدرس أناس فى بلاد غير إسلامية : فقد حدثنى من أثق أنه كان فى دولة أجنبية . . غير إسلامية . . واللقاءات . . إلا أن الغريب الملفت للنظر : أنه لم يسمع أحدًا يغتاب أحدًا !!

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ١٥).

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٩٨) .

صور من توبة الصالحين.

وعن أهمية الاستغفار قال أبو موسى رضى الله عنه : « كان لنا أمانان : ذهب أحدهما ـ وهو : كون الرسول فينا . وبقى الاستغفار معنا : فإذا ذهب . . هلكنا » (١) .

وعلى هذا الأساس توالت وصايا الصالحين بالالتزام بالاستغفار والتوبة :

قال الربَّيع بن خثيم : تضرعوا إلى ربكم . وادعوه فى الرخاء فإن الله تعالى قال :

« ومن سألنى أعطيته .

ومن تواضع إلى رفعته .

ومن تضرع إلىّ .. رحمته .

ومن استغفرنى .. غفرت له » (٢) .

إن لحظة الإنابة من لحظات الصفاء . . والإجابة مضمونة . .

ولكن المشكلة هى : الدعاء .

فهل دعونا الله حقًا ؟ تلك هى القضية .

(١) التوبة إلى الله . للغزالى (١٢٤).

(٢) منهاج الصالحين (٩٥١) .

الصلاة ومستقبل الأسرة

يقول الله عز وجل ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى (١٣١) وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴾ [طه: ١٣١، ١٣٢] .

تمهيد :

من مآرب المضلين التأثير على الفقراء . . بما يحاولون تزيينه من متع الدنيا يرفلون فيها . . عن :

المناظر والأصوات والروائح . والمساكن . والمناكح .

يريدون بهذه الحرب الإعلامية الضغط على أعصابه الأخيار، كما فعل «قارون» الذى خرج على قومه فى زينته فحقق بهذا الإعلام المزيف بعض أغراضه .

وتجيء الآية الكريمة لتحمى المسلم من الوقوع فى هذا الشرك المنصوب ؛ اعتزازًا بما منحه الله من إيمان هو أربى فى الميزان من كل ما يتنافس فيه المتنافسون: وليعلم المسلم أنه لا قيمة للحياة الدنيا . . إيثارا لدار هى الحيوان . . وأن مما يدل على الإخلاص . . وأجدر بالخلاص : تفريغ قلبه من كل هموم العيش .

فما أمرت به من الطاعات . . لو شغلت به نفسك . . لشغلك عما نُهيت عنه !

وأن من هوان هذه الدنيا : أن الله عز وجل ، لم يجعلها ثوابا لطبع . . ولم يجعلها كذلك عقابا لكافر : استهانة به . . وبها .

وإذن فلا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا وتطل النظر إليها إعجابا بها واستحسانا لها : يعينك على هذا ما يلى :

١ ـ إن ما يتقلب فيه المترفون . . هو نعمة حقًا . . ولكن لا يُقصد بها تعظيمهم أو تفضيلهم عليك . .

٢ ـ وإنما هى فتنة ، واختيار منته بهم إلى :

أ ـ المعيشة الضنك فى الدنيا .

ب ـ والعذاب الأليم فى الآخرة .

٣ ـ وقد يحققون بهذه النعم فائدة فى الدنيا . . ولكنهم سوف يفارقونها . . أو تُفارقهم . . فلا ينتفعون بها كما يشتهون .

وإذن : فما آتاك الله خير مما أتاهم :

فرزق ربك وإن بدا فى ناظريك قليلا فهو خير : لأنه يكفى . . ولا يطغى . ويدنى من الله سبحانه فيُعلى .

وحبس النظر على ظاهر ما مُنح المترفون مانع من الإحساس بهذا الفضل العظيم عليك . . دونهم .

[المؤمنون عند حسن الظن بهم]

وقد كان المؤمنون عند حسن الظن بهم :

وذلك أنهم شددوا على أنفسهم . . إلى الحد الذى كانوا يغضون فيه أبصارهم حتى لا ترى : أبنية الظلمة . وعُدد الفسقة . لباسهم ، ومركوبهم ؛ استهانة بهذه المظاهر . واكتفاء بما منحهم الله تعالى من رزق معنوى هم به أغنى . وهم أبقى .

ومنهم كان عروة بن الزبير : رضى الله عنه كان إذا رأى ما عند السلاطين ،

يفزع إلى هذه الآية الكريمة . فيتلوها ثم يؤذن فى الناس : الصلاة . . يرحمكم الله :

وإنها لصيحة رشيدة من صيحات التحرر من سجن الدنيا طبق هذه القاعدة التى تقول :

لا تتخذوا الدنيا ربًا . . فتتخذكم عبيدًا .

وهذا هو ما يليق برب الأسرة تحديًا لشانئيه

أن يشغل نفسه بحق ربه سبحانه وتعالى . بالصلاة التى يأمر أهله بها ، وقيل هذا يصطبر عليها ليضل بين أيديهم قدوة مانعة لهم من السقوط فى براثن الأعداء :

ولا عليه . لا على رب الأسرة بعد ذلك عن هموم الرزق فسيكفيكه الله . .

كما يقول المفسرون . [فإن ما لنا من العظمة يأبى أن نكلفك أمرا ولا نكفيك ما يشغلك عنه] ا هـ .

نحن نرزقك . لك ولهم ما قدّرناه لكم من أى جهة شئنا . من ملكنا الواسع . وإن كان يظن أنها بعيدة .

ولا ينفع فى الرزق حول محتال ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب .

ولا تدأبوا فى تحصيله . والسعى فيه :

فإن كلاً من الجدّ فيه . والمتهاون به . لا يناله أكثر مما قسمناه له فى الأزل . .

ولا أقل :

فالمتقى لله . المقبل على ذكره . . واثق بوعده . قانع راض . . فهو فى أوسع سعة .

والمعرض : متوكل على سعية . . فهو فى كدٍّ وشقاء ، وجهد وعناء أبدًا . . والعاقبة للتقوى .

وهكذا كانت الصلاة سبيلا إلى رخاء الأسرة . .

الأسرة التى تلتزم بأمر الله فينجز الله سبحانه لها ما وعدها .

وقد كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا نزل بهم أمر . . فزعوا إلى الصلاة

ومن سننه ﷺ قوله يقول الله تعالى : « **تفرغ لعبادتى . . أملأ صدرك**

غنى. وأسد فقرك . وإن لم تفعل : ملأت صدرك شغلا ، ولم أسد فقرك » أخرجه ابن ماجه .

ومن سيرته ﷺ : « كان رسول الله ﷺ إذا أصابته خصاصة نادى أهله : يا أهلاه .. صلّوا .. صلوا »

• • •

الأمل الأكبر

ويبقى الأمل فى صدور المسلمين ثوبًا ينصر الله على أعدائنا الذين يريدون احتواءنا . .

وذلك بعض ما يشير إليه قوله عز وجل :

﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ .

﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ .

فهذا دليل على ظهور الحق فى النهاية . . وأن أعداءنا راحلون « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .

• • •

الصلاة ومستقبل الأسرة

يقول الله عز وجل : ﴿ ولا تَمُدَّنَّ عينيك إلىٰ ما مَتَّعْنا به أزْواجًا منهم زهْرةَ الحياة الدُّنيا لنفتنهم فيه ورزقُ ربك خيرٌ وأبقىٰ (١٣١) وأْمُرْ أهلَك بالصَّلاة واصْطَبِرْ عليها لا نسألُك رزقًا نحن نرزُقُك والعاقبةُ للتقوىٰ ﴾ [طه: ١٣١، ١٣٢] .

ومن معانى الآيتين الكريمتين :

مسؤولية رب الأسرة عن صلاح البيت ومن وسائل إصلاح البيوت :

إقام الصلاة .. والتى لابد أن يلتزم بها الوالد التزاما صارمًا جازما .. بالجد فى مقاومة خواطر السهو عنها ، حتى ينسج أفراد البيت على منواله .

ولقد كان هناك رجال مؤمنون « اصطبروا على الصلاة استهدافا لصلاة الأسرة ومنهم ذلك الذى قال لولده :

لأزيدن فى صلاتى من أجلك يا ولدى فلعلى أن أُحفظ فيك ..

ولقد صار ذلك يقينا بطاعة أوامر الشرع . وثقة بالصلاة ودورها فى رخاء البيت .. بل ووجوده أساسًا .. حتى قال أحد الصالحين :

إذا رأيت الرجل يسرع فى صلاته فترحم على عياله !!

بمعنى أن تراخى الوالد فى الصلاة قاض على أولاده الذين صاروا بإهمال الصلاة أمواتا .. وإن كانوا فى زمرة الأحياء ..

ولم يكن الآباء حراصا فقط على أداء الصلاة تخلصا من عهدتها . وإنما كان الحرص على أدائها ابتداء .. كان هذا الحرص أمرا مفروغا منه .. وأهم من ذلك أن تكون الصلاة فى جماعة .

ويروى فى ذلك : أن عمر رضى الله عنه تصدق يومًا بمائتى ألف درهم .. وذلك لما فاتته صلاة جماعة .. واحدة !!

ولقد صاغت هذه التوجيهات رجالا صادقين .. ومنهم ذلك الشاب الذى

نزل بلدا . . فكانت أولى اهتماماته أن يجعل من صلاته ضمان حياته .

وألا يضيع من بركتها عليه . . فكان أول عمل قام به : سؤاله عن إمام المسجد وهل يأكل حلالا ؟

حتى إذا جاءه الجواب بالإيجاب كان قرير العين بهذا الرزق المعنوى . . ولم يَفُته من الدنيا شيء يبكى عليه !

فلنكن عمليين ولا نكتفى بالبكاء على الأطلال .

ولنتعلم من بلاد تسكنها روح الإسلام الذى بقى لنا منه جسمه المادى فقط ، بينما روحه هناك فقد وَجَد العالمُ الغربى نفسه أمام تمثال منكس الرأس لرجل زنجى . . فقرر إنقاذ ضحايا الاستبداد . . بدخول كليه الطب وقد أشرف على الأربعين .

وهكذا قرر الرجل علاج هؤلاء المعذبين فى الأرض بديلا عن التباكى عليهم!!

أما بعد :

فيقول صاحب الظلال : أول واجبات المسلم : أن يحوّل بيته إلى بيت مسلم . وأن يوجه أهله إلى أداء الفريضة التى تصلهم معه بالله : فتوحد اتجاههم العلوى فى الحياة .

وما أروح الحياة فى ظلال بيت : أهله كلهم يتوجهون إلى الله . ثم يقول عز وجل : ﴿ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ .

على إقامتها كاملة . وعلى تحقيق آثارها : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

وهذه هى آثارها الصحيحة .

وهى فى حاجة إلى « اصطبار » على البلوغ بالصلاة إلى الحد الذى تثمر فيه

ثمارها هذه : في المشاعر والسلوك . . وإلا فما هي صلاة مُقامة ؟ إنما هي حركات وكلمات .

هذه الصلاة . والعبادة . والاتجاه إلى الله هي تكاليفك .

والله سبحانه ـ لا ينال منها شيئًا .

فالله غني عنك . وعن عبادة العباد جميعا .

﴿ لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ : إنما هي العبادة تستجيش وجدان التقوى ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ .

فالإنسان هو الرابح بالعبادة في دنياه وفي آخراه .

يعبد : فيرضى ، ويطمئن . ويستريح .

ويَعبُد : فيُجزى بعد ذلك الجزاء الأوفى ، والله غني عن العالمين.

إنها إذن صحبة الأخيار . .

وبصحبة الأخيار يكون صلاح الأعمال . والأحوال .

ثم هي لون من التعاون على البر والتقوى تسخر به كل إمكانات الأسرة لتكون في خدمة مصالحها . . بدل أن تذهب بها الأهواء بددا .

وتلك هي مقومات الأسرة لمن يشاء أن يتخذ إليها سبيلا . .

وإنه لمن الغريب المريب : أن يجد الظامئ الماء بين يديه . . ثم لا يرتوى.

والدواء متاح . . ثم لا يتناوله ؟!

• • •

من هنا يبدأ الإصلاح

يقول الله عز وجل : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ... ﴾ [النور: ٣٠، ٣١] .

يقول العارفون :

إن العين باب إلى القلب :

فإذا نظرت .. فتح الباب ..

وإذا فتح الباب .. دخل اللص ـ الشيطان ـ ليسرق الإيمان .. وإذا ضاع الإيمان .. فلا أمان ..

وهنا نفهم سر هذا الفزع الكبير .. من لدن هذا العابد الصالح والذى اعترف بخطورة النظرة . والتى هى سهم من سهام إبليس .. كيف كانت سببا فى قتله .. وذلك قوله : عيناى: أعانت على سفك دمى .

ومن أجل ذلك .. ومن رحمة الله عز وجل بعباده أن يأمرهم بغض البصر .. توجيها أزليا قائمًا على رؤوسهم .. بل تهديدا رعيبا لهم إذا لم يغضوا من أبصارهم .. لأنه عز وجل : ﴿ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

وخير للمسلم أن يغض بصره .. فيسلم .. من أن يتمادى فى غيه .. فيندم .. ولات ساعة مندم . ونتساءل :

لِمَ قدّم سبحانه وتعالى أمر المؤمنين بغض إبصارهم على أمره بغض بصر المؤمنات؟

يقول المجربون العالمون بطبائع النفوس : أن من طبع المرأة أن تتخذ من أنوثتها سلاحا تحاول به إيقاع الرجل فى شَرَكها ..

فإذا استطاع الرجل أن يتجاهل هذا السلاح : استهانة به ، وسخرية منه . . إذا استطاع ذلك فقد قَلَّ سلاحها . . وجردها من عُدتها . . لترجع كسيرة . . صغيرة في نظر نفسها

مما يحملنا على القول : بأن بداية طريق الطهر : أن يغض الرجل طرفه ابتداء فإن فعل . . فقد فرض على الشيطان أن يخنس مهزومًا مدحورًا . . ليخلوا الأطهار بالساحة بعدما هربت شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا .

ومن رحمته عز وجل : أن يجيء التحذير هنا مشددًا مؤكدًا : ﴿ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

ذلك بأن باب الجنس دقيق . . وقد يحاول أحد الطرفين تحقيق مآربه . دون أن يشعر به أحد . . وقد ينسرب هاربا من يد القانون .

ولعلنا نذكر شاهد ذلك من قول الشاعر :

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة محزون ولم تتكلم

وهكذا تخاف أهلها . . ثم لا تخاف من خلقها . وخلق أهلها . . ومن أجل ذلك يجيء ، قوله عز وجل : ﴿ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

ليعلم المستهترون أنهم مشمولون بعناية الله تعالى ورقابته . .

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩] وإذن . . فاحذروه على أنفسكم . . فأنتم في نقطة الضوء . .

• • •

والى الرجال تحذير خاص

وفى معرض أمر الرجال بغض البصر يقول عز وجل : ﴿ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ [النور : ٣٠] .

و ما لم يذكره سبحانه مع النساء . .

وربما جاز لنا أن نقول ـ والله أعلم بمراده ـ إن الإحساس بالرجولة قد يسول للرجل تصور أنه مطلق السراح : ينظر كيف يشاء . .

وأنه إذا كانت هناك احتمالات نقصٍ فهى أولى بالمرأة لضعفها المشتق من أنوثتها .

ولهذا . . كان لابد من ردع هذه النظرة المتعصبة من قِبل الرجل بأن مرارة النظرة وسلبياتها أقرب إليه هو . . ولن تحميه ذكورته أو رجولته من دنس النظرة الخائنة . . والتى عليه أن يتلاقاها . . فرارا من تركماتها على القلب الذى يتأثر حتما بواردات هذه النظرات .

• • •

الصالحون .. بالفعل

وقد كان هناك رجال مؤمنون . . واقعون تحت سطوة الإحساس بالمسؤولية فى هذا الباب . . حتى حمَّلوا أنفسهم ما لا يطيق غيرهم .

منهم « ابن سيرين » رحمه الله . والذى قال يوما : ما غشيت امرأة قط . . غير أم عبد الله (زوجته) وحتى فى المنام لو أنه رأى امرأة غيرها . . صرف بصره عنها !!

منشأ هذه الحساسية:

وقد تضرب كفًا بكف تعجبًا وإعجابا بهذا المستوى العالى من الالتزام ثم تتساءل : من أى نبع رقراق كان يتحدر هذا الشعور النبيل ؟

والجـــواب : كان يتحـرر من يقين عميق بمسؤولية الإنســان عن عمله : وقد تسمع واحداً من هذا الطراز العـالى يقول لك : إذا قال الله عز وجل : ﴿ **ليسأل الصادقين عن صدقهم** ﴾ [الأحزاب:٨] .

وإذا قال تعالى : ﴿ ... **ولنسئلن المرسلين** ﴾ [الأعراف:٦] .

فإذا كان الصادقون مسؤولين عن صدقهم . .

وإذا لم يكن المرسلون بنجوة من السؤال . .

فكيف بنا نحن اليوم ؟!

وماذا علينا أن نعمل ؟!!

ومن أجل ذلك حاسبوا أنفـسهم قبل أن يحاسبوا : حاسبوها حتى على النقير والقطمير .

والصالحات بالقوة:

ومنهم تلك المرأة التى رفـضت بشدة نصـيحة من أمـرتها بالحـجاب . . هذا الساتر الذى لا تستـيغه لاسيما وهى مقيمة فى إيطاليا !

وقلت لها : ليس الحجاب فرض . . وإنما الفرض هو ستر العورة : سترها بما تشائين . . ما دمت ملتزمة بالإسلام .

أن جمال أخلاقك . . وما تشاهدين من تجاوز بعض المحجبات لا يعفيك من المسؤولية : مسؤولية إبداء الزينة للزوج وما ذكرته الآية الكريمة ، أما إبداؤها هكذا للهرّ الجائع . . فهو إهمال للفـرض . . وترجيح للفضيلة . . مع أن الفريضة هى «رأس المال » والفضيلة هى « الربح » ولن يكون ربح بغير رأس مال !!

أما بعد :

فقد قال الرجل الإيطالى لصديقه المسلم : أرأيت هذه المرأة «العارية» الجميلة؟

فقال له المسلم : فكيف لو رأيتها بثيابها ؟

الطريق إلى قلب الزوج

سأل الفتى زميلـه فى العمل : إن كان يعرف أسرة طيبة يمـكن أن تكون فيها «بنت » تصلح أن تصير له زوجا . .

وسأل الفتى المستشار . . مجـرد سؤال . . ثم أخبر زميله بما سمع . . وتمت مراسم الخطبة . .

ثم جاءت ليلة الزفاف ! . . فكانت المفاجأة !!

لقد لاحظ الفتى أنه أمام عملية تزوير . . وما يراه من « بهرج » العروس . . يخفى من ورائه سـرًا . . فاصطنع حيلة مؤداها : أن طلب الفـتى من عروسه أن تتوضأ . . ليصليا ركعتين . . هما براعة الاستهلال لحياة مباركة ؟

ولم تكن هناك « بركة » وإنما كانت « معركة »؟!

فقد فوجئ الزوج بالوضـوء . . وقد أظهر المخبوء !! أظهر القـبح المستخفى من وراء المساحيق . . والتجاعيد التى ظهرت بها « العروس أكبر من سنّها !!

ولقد أزال الوضـوء فقط مظاهر الكذب والتدليـس . . لكنه لم يسـتخرج هذه المرة خطايا الزوجة المتوضئة . . والتى أنهالت على زوجها ضربا لما أراد الفرار .

وفكذا : صـار « الحدث » « حديثـا » على كل لسـان وعندما حاول الـباطل «الغالب» أن يطمس معـالم الواجب !والذى يعنينا هنا : أن التزوير . . عن طريق المساحيق . وفن التلفيق . . لن يكون طريقًا إلى قلب من نحب .

وإذا لم يغن التـزوير عن الحق شيـئًا . . فمـا زالت هناك بقيـة من اصطناع وسائل آخرى للوصول إلى اللباب.

• • •

لغة الزهور

تقول كاتبة عصرية :

الزهور هى رسالة حب ووفاء بين المحبين وأجمل هدية يمكن أن يتبادلها الأزواج والمخطوبون ، وفى الحقيقة أن لغة الزهور ليست بدعة أو مقولة قد تنقضى يوما ما ، ولكنها حقيقة واقعة يؤكدها خبراء علم النفس فى دول العالم المختلفة .

يقول الدكتور ميلتون مارلتون فى كتابه : « منزل وحديقة أفضل » الزهور أرق وأجمل لغة بين المحبين فليس هناك أفضل من باقة زهور يتلقاها الإنسان من شخص عزيز عليه فهى تفعل فعل السحر بين الزوجين عندما يقدم الزوج لزوجته باقة من الورد لن تكلفه كثيراً ولكنها تعبر بصدق عن حبه وتقديره لشريكة حياته حتى لا يفتر الحب وتسرى بينهما السكينة والهدوء والطمأنينة التى تسمو بالمشاعر والوجدان وتبارك التواصل والاستمرارية التى أصبحت أملا عزيز المنال بين كثير من الأسر حديثة الزواج ، حيث اتجهت المشاعر الإنسانية اتجاهات أخرى مادية جنحت عن الشعور الإنسانى والوجدانى ، لذلك فهناك حقيقة يجب ألا يغفلها الأزواج هى أن الزهور يجب أن تكون رسائل المحبة بينهم ولا سيما فى هذا العصر الذى يصرخ كل شىء فيه بالسعى المادى غافلاً الجانب الروحى والإنسانى فى الحياة . ويضيف د . ميلتون فيقول : أما عن دور الزهور فى الخطبة والزواج فقد يكون دورًا خطيراً فى بعض بلاد العالم مثل ما يحدث فى جزر هاواى حينما تريد الفتاة الزواج تضع زهرة على أذنها اليمنى وعندما تتم خطبتها تضع الزهرة على أذنها اليسرى ، أما المرأة المتزوجة فتضع وردتين إحداهما على أذنها اليسرى وأخرى على أذنها اليمنى .

وعندما يتخاصم الزوجان تكون زهرة القرنفل هى رسول المحبة والاعتذار بينهما فهى تعبر عن اعتذار صاحبها وعدم رضائه عن كل ما بدا منه ، وفى المجر تتخذ الوردة كطريقة للتفاهم والتخاطب فإذا قبلت الفتاة باقة الشاب تعنى أنها قد

وافقت على خطبته وما عليه إلا أن يتحدث مع أبيها فى أمر زواجهما .

وفى رومانيا حينما يتقدم الفتى للخطبة يضع وردة فى إناء ويضع الإناء على نافذة الفتاة التى اختارها ويريد الاقتران بها على أن تكون الوردة مقرونة ببطاقة فإذا أخذت الفتاة الوردة والبطاقة وحملتها بين يديها يتم الزواج .

وفى النهاية لماذا لا تتغير تقاليد الزواج عندنا ، ولماذا لا يتقدم الفتى لخطبة فتاته ببطاقة ورد بديلا من الهدايا التى تكلفه الكثير ، وهل هناك فى الدنيا أحلى من الورد ؟ نتمنى أن يأتى هذا اليوم الذى تتغير فيه مفاهيم كثيرة بالية لابد أن يكون أساسها الإصلاح . ا . هـ .

حكم الإسلام :

ونحن باسم الإسلام نطالب بالتغيير .

التغيير على الطريقة الإسلامية .

أن تنظر إليها . . وأن تنظر إليك . .

فإذا ذلك أحرى أن يدوم الود بينكما . .

وانظر إليها . . فإنه أحرى أن يؤدم بينكما .

وإذا كانت « كل الظرق توصل إلى « روما » . . فإن طريقا واحداً هو الذى يجعلنا فى قلب من نحب : أن نعرفه أوّلا . . ثم نعترف به ثانيا !!

• • •

الطريق إلى قلب الزوج

تمهيد :

قيل لإبراهيم بن أدهم: ما لنا ندعو ولا يجاب لنا ؟!

فقال: لأنه تعالى دعاكم فلم تجيبوه . ثم قرأ ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾ ﴿**ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾.

وقد عرفنا فيما سبق . . كيف كانت الخطبة المتسرعة سبيلا إلى فشل «مشروع الزواج» ومن صور استجابتنا لأوامر ديننا أن نعود إلى ماضينا . . نستلهمه الدرس المفيد فى هذا الباب : بهذا الموقف الذى كانت فيه النصيحة خالصة . . من صديق إلى صديقه الذى بين له فكرة الزواج كمبدأ . . ثم حدد له معالم شريكة الحياة بلازيف ولا تضليل :

عن علقمة قال: إنى لأمشى مع عبد الله بن مسعود بمنى . إذ لقيه « عثمان ابن عفان » فقال: هلم يا أبا عبد الرحمن . . قال: فاستخلاه ، يعنى : أسرّ إليه .

فلما رأى عبدُ الله أن ليست له حاجة . قال لى : تعال يا علقمة : قال : فجئت . فقال له عثمان : ألا نزوجك يا أبا عبد الرحمن جارية . بكرا ، لعله يرجع إليك من نفسك ما كنت تعهد . رواه مسلم ، كتاب النكاح .

وهذا صديق صدوق : يختار لصاحبه ما تقر به عينه . . والذى وصاه بالبكر:

١ ـ لأنها المحصلة لمقاصد الزواج :

أ ـ فإنها ألذ استمتاعا .

ب ـ وأطيب نكهة .

جـ ـ وأرغب فى الاستمتاع الذى هو مقصود الزواج .

٢ ـ ولأنها أحسن عشرة

٣ ـ وأفكه محادثة.

٤ ـ وأجمل منظرا .

٥ ـ وألين ملمسا .

٦ ـ وأقرب إلى أن يعودها زوجها الأخلاق التى يرتضيها .

وهذا دليل على استحباب البكر ، وتفضيلها على الثيب .

وإذا كانت البكر وكانت الثيب .. صالحين معا للإنجاب . وهو مقصود الزواج الأول.. لكن تفضيل البكر يعنى ضرورة اتساع معنى المتعة . ليكون جمال الظاهر مقصداً من مقاصد الزواج مؤكدا أن الإسلام لا يرفض المتعة .. متى كانت حلالا.

شاهدان من حكمة الرسول :

ولأن رفض الزواج حرمان للنفس من إشباع حاجاتها فلا يكون المحروم سويا.

لأن الأمر كذلك .. تراه ﷺ يقطع الطريق على كل من يرفض فكرة الزواج ابتداء .

عن سعد بن أبى وقاص قال : « ردّ رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل . ولو إذن له . لا ختصينا » رواه مسلم ، كتاب النكاح .

معنى التبتل :

قالوا فى معناه : الانقطاع عن النساء .. تفرغا لعبادة الله تعالى .

ومن معانى ذلك : أن الأعراض عن اللذات من غير إضرار بالنفس ، ولا تفويت لحق الزوجة فلا بأس .

ولا حظ قوة الالتزام بأوامره ﷺ .. إلى الحد الذى لو أمرهم بالاختصاء

لأطاعوا .

لكنه ﷺ لم يأمرهم بالاختصاء : لأنه حرام .

وما كان له ﷺ أن يحمل القاعدة الشبابية على منهج حفنة من الشباب بلغ بهم الزهد مبلغه . . حين استدبروا الحياة بما فيها الزواج وقد غلبهم على هواهم . سائرا بهم إلى هداهم .

• • •

ونعود على بدء لنتأمل الموقف الذى استفتحنا به هذه الحلقة لنقول : إذا كانوا يقولون : كل الطرق توصل إلى « روما » !

فإننا نقول : وليست كل الطرق توصل إلى قلب الزوج . . إنما طريق الوصول هو : حسن تبعل المرأة لزوجها . . وليس من حسن التبعل أن تدلس عليه !

وإذا كان هناك من سلفنا صالحون مَنْ فوجئوا ليلة زفافهم بأخت « العروس » الأقل جمالا . . ثم رضوا بذلك . . . فإن ذلك هو الاستثناء من القاعدة التى تؤكد حق الزوج فى الاستمتاع بالجمال . . مع الكمال .

ونذكر هنا قوله ﷺ : « ... فاظفر بذات الدين ، تربت يداك » .

ذلك بأن الدين هو جوهرها الذى تتعامل معه . . أما المال . . فيذهب . . وأما الجمال . . فيزول . . وأما الحسب . . فهو لأبيها . . وليس لها .

والمفروض أن يبقى الزوج صالحا للقوامة بقواه هو . . وتبقى الزوجة مؤهلة لحسن التبعل بمواهبها هى . . وليس بمواهب أبيها . . أو عائلتها . .

ذلك بأن المظاهر المستوردة . . لا تغنى عن المخابر .

مع الأخذ فى الاعتبار أن هناك ذرية سوف تجىء ولن يكون الأولاد أسوياء . . إلا فى بيت سوى : يقوم الأب فيه بدوره . . وتقوم الأم كذلك : يتساندان . . ولا يتعاندان ، بل ويتعاونان . . على البر والتقوى سبيلا إلى مزيد من الوقار ، وسلامه القرار .

القوامة ومخاوف الزوجة

يقول الله عز وجل : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ [النساء: ٣٤] .

بعض النساء خائفات من « قوامة » الرجل فراراً من غروره الذى يدخل به ساحة البيت .

هذا الغرور المشتق من قوته وسطوته . . والذى يحقق به أطماعه فى مملكته . والتى يظن أنه فيها السيد المطاع .

وإذ يبدو بعض الأزواج كذلك . . فإنهم لا يشكلون القاعدة وإنما هو : الاستثناء . . من تلك القاعدة التى تؤكد أن هذه « القوامة » إنما هى رحمة مهداة ونعمة مسداة !

وقد استمعت . بل استمتعت بمنطق تلك الزوجة التى تقول لصاحبتها من الصنف الأول :

إنك تخافين من زوجك لأنه « جبار » وأنا مثلك ، أعترف بأنه « جبار » ولكن ليس من « الجبروت » . . والتسلط . . ولكنه « جبار » بمعنى أنه : يجبر خاطرى . . يجبر المكسور من أمور البيت فإذا هو قائم يؤدى وظيفته ؟!

وحتى لو أخذنا معنى « الجبار » من قوته وتمكنه . . فإن ذلك من رحمة الله عز وجل بنا . . ولحسابنا نحن الزوجات فى نهاية المطاف !

ولنأخذ الطلاق مثالاً : والذى هو بيد الرجل . . لا بيد المرأة : فالمرأة : سريعة الانفعال . . كما يقرر ذلك كاتب تقدمى . والذى يقول :

ما الذى يرضى المرأة ؟

الجواب : لا أحد ولا أمل معها !! فالمرأة : لأنها متقلبة المزاج . . فهى أكثر من واحدة . . وفى اليوم الواحد ! فالتى قابلتها فى الصباح ليست بالضبط التى

ستلقاها عند الظهيرة . . ولا بعد العشاء . . ولا قبل النوم ولا فى الصباح . . إذن . . . فالرجل متعدد الزوجات [١] .

أما الرجل : فهو عاقل . . مكيث . . فلا يطلّق إلا بعد روية . . يحمله على ذلك هذا السبب النفسى . .

ثم هناك سبب اقتصادى :

أ ـ ففى عنقه نفقة العدة .

ب ـ وأجرة الرضاعة .

جـ ـ وباقى المهر .

كل هذه التكاليف . . تتراءى له . . فتكف لسانه فيتريث فلا يطلق !

ثم إن له حق القوامة . .

ومع هذا كله . . فإنها لها أن تشترط فى عقد الزواج أن يكون لها حق تطليقه! فإن وافق . . فالشرط صحيح .

وبالتأمل فيما سبق يتبين لنا أن الطلاق لمصلحة الأسرة كلها . . بما فيها الزوجة بطبيعة الحال . .

وإذ يحصحص الحق هكذا . . فما هو سر تلك الشكوى من . . قوامة الرجل ؟

إنه التقليد . . والذى انتهى بالتخلى عن مقوماتنا . . راضين بالفُتات : نستجديه من خارج حدودنا . . وصار الأمر على ما قيل : والِيْنا الأعداء . . وقد نهانا الله عن موالاتهم وقلدناهم ، وقد منعنا ديننا من تقليدهم .

وتركنا فضائلنا . . لأزيائهم . وشريعتنا . . لقوانينهم .

---

(١) أنيس منصور ، الأهرام ٣٠/ ١٠/ ٢٠٠٤ .

ومساجدنا . . لملاهيهم .

نحن أعطيناهم السلاح الذى يقاتلوننا به .

جاؤونا بالخمور تهرى أمعاءنا . وتمزق أكبادنا . . فشربناها ودفعنا الثمن !

وجاؤونا بالفنانات يخربن بيوتنا . يمرضن جسدنا . . ويسمّمن أرواحنا . فهبطنا على أقدمهن . . ودفعنا الثمن !

إن أبناءنا وبناتنا .وأموالنا . وأخلاقنا : إن لم نجاهد من أجلها . ،نجعلها فى خدمة ديننا . . ستكون عونا لعدونا . وعقبة فى سبيل تقدمنا .

والتي تكشف من جسمها إنما تنكشف للعدو قلعة من قلاع الوطن . لأن كشفها يفسد أخلاق الشباب . . فتذهب رجولتهم . . ويفقدهم روح الكفاح . .وما كان العدو ليغلبنا . . لو لا أن أضاع علينا أخلاقنا .

والسؤال الذى يعرض نفسه ـ بعد ذلك ـ هو :

هل ينبغى أن تزاحم المرأة الرجل ؟

سؤال يطرح نفسه فى مزدحم الحديث عن قضية « المساواة » بين الرجل والمرأة وقد أجابت عنه الأستاذة زينب الرافعى (١) .

وفى مستهل الجواب : تدعو النساء إلى تحديد معنى « المساواة » بين الجنسين:

هل هى فى العمل ؟ أم فى الحرب ؟ أم فى السلم ؟ أم فى الحمل والرضاعة ؟!

هل يردن أن تحمل المرأة الفأس ، وتجرى خلف المحراث ؟

هل تعمل « بالمنشار » وتصعد على الخشب الممدود فوق العمائر لتبنى ؟ إن هذه الوظائف ـ على كثرتها ـ لا يقوم بها إلا ربع الرجال : فخبرينى يا فتاة :

---

(١) وهى ابنة المرحوم : مصطفى صادق الرافعى .

تريدين أن تكوني رجلا كاملاً . . يقوم بواجباته كلها . ويحتمل ما عليه ما تكاليف الرجولة بشقائها وآلامها ؟

ولو قامت المرأة بأعمال الرجل . . فمن يقوم بشؤون بيتها لقد باعت أمومتها . واشترت الوظيفة .

• • •

القوامة ومخاوف الزوجة

يقول الله عز وجل : ﴿ الرجالُ قوامون على النساء بما فضل اللهُ بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ [النساء : ٣٤] .

قد يتصرف الزوج ـ بحكم قوامته ـ قد يتصرف داخل البيت : متطاولا . . كأنه المئذنة . . متصدرًا . . كأنه القبلة . . منتفخًا كأنه ممتلئ بالفروق بينه وبين زوجته !!

وبهذا المنطق المتعسف . . تتجمد العواطف فى قلبه . . فلا يستطيع « التعبير عنها » ومن ثم يستحيل « عبوره » إلى قلب زوجه . . يصفها الشاعر القائل :

إن البكاء هو الشفاء لما بين الجوانح .

وإذ يفعل بعض الأزواج ذلك . . فإنهم بهذا المسلك المعيب لا يمثلون الإسلام . . وإنما يمثلون أنفسهم التى تتخذ إلهها هواها !

وإذا كان هذا النشاز لا يمثل حقيقة الإسلام . . فإن الإسلام بحقائقه هو الذى يخدم نفسه بنفسه . . بعيدًا عن ممارسات بعض المنتسبين إليه . .

ومن شواهد ذلك :

قد أظهر استطلاع للرأى نشرته الصحف التركية أن ٣٩ ٪ من الزوجات التركيات يعتقدن أن للأزواج الحق فى ضربهن . . وفى حالات معينة .

وأوضح الاستطلاع ـ الذى شمل ثمانية آلاف امرأة متزوجة أن كثيرًا من الزوجات يرين أن تحدى الزوجة لزوجها أو الرد عليه مبرر للضرب . . بل وأكدت بعض النساء المتعلمات اعتقادهن أن من حق الزوج ضرب زوجته لأسباب كان[1].

ويعنى هذا : شهادة المرأة : وكيف كانت قوامة الرجل منسجمة مع طبيعة المرأة التى قد يفسدها الدلال . . ولا تقيمها ـ أحيانا ـ إلا الشدة وأن المساواة

(١) الأهرام : ٢٩/ ١١/ ٢٠٠٤ .

ضرب من المستحيل [إننا إذا أعلنا المساواة بين الرجل والمرأة : فيجب على الحكومة أن تسن قانون يجعل الحبَل على كل منهما سنَة !فهل تحبل مرة . وهو مرة ، وهى ترضع ولدا . وهو يرضع ولدًا .

وأن ينص هذا القانون على أن من يستعمل « نون النسوة » يعاقب بغرامة قدرها : عشرة جنيهات . . مثلا .

يا سيداتى: أعدن التفكير فى أسس هذه النهضة . وأقمنها على أساس : الدين . والخلق . . والعلم النافع] .

أما رفض القوامة . . طمعا فى مساواة لا مسوغ لها . . فهذا هو التقليد الأعمى .

يقول أحد الباحثين :

إن المرأة فى أوروبا تشتغل . . ولكن : عن عوز وحاجة .

وكريمات السيدات لا يشتغلن شيئًا إنما تعمل البائسات الفقيرات . بل ويتمنين زوجًا يخلصهن من جهد العمل . .

وعقلاء أوروبا يصيحون شاكين من مزاحمة المرأة للرجل : فقد عطلت بيتها . وشغلت الرجل بغير العمل : فقللت نتاجه .

ورضيت بالأجر الخسيس . . فنزلت الأجور ؟

أفنبدأ نحن من حيث أراد الغرب أن ينتهى ؟!! تحقق نحن ما يريدون هم الفرار منه .

ويقول القرضاوى : فى ميدان الاجتماع: حيث صارت المسلمة أسيرة التقاليد الغربية الغازية . المتعلقة بالزى والزينة . والاختلاط بغير حدود : فخرجت على أرسخ التقاليد الإسلامية . فى مدة قياسية .

وغدت أداة من أدوات الإفساد فى المجتمع ـ بعضهن ـ ومعولا من معاول الهدم فى البنيان الأخلاقى للأمة . فاقت فى تحللها من الآداب الإسلامية ما كان

يدعو إليه المقلدون للغرب . الذين أطلقوا على فكرتهم وصف «تحرير المرأة »[١].

وما هذا التحرر إلا : ظاهر رواء . وباطن خواء :

كتب الأستاذ الزيات إلى صديق له يصف « باريس » فقال : [باريس : بلد لا يعرف إلا المال واللذة : فأينما توجهن لا ترى إلا مصايد للرجال . ومعارض للجمال : كأن سكانها جميعا نساء :

يعرض جمالهن عن الناس . . بشكل ممقوت . يحط من شأن الجمال . ويقلل من قدر المرأة .

ويبقى الإسلام هو الرحمة المهداة على لسان رسول كريم :

أرسله رحمة للعالمين كافة .

أرسله رحمة للذين استضعفوا في الأرض .

لقلة المال . . كالمساكين .

أو لفقد العشير . . كالموالي .

أو لضعيف النصير . . كالأرقاء .

أو لطبيعة الخلقة . . كالنساء .

فكفل الرزق . . للفقير . . بالزكاة . .

وضمن العز للذليل . . بالعدل.

ويسَّر الحرية للرقيق . . بالعتق .

وأعطى الحق للمرأة . . بالمساواة .

المساواة : في منطق الإسلام وليست المساواة في بلاد لا تدين بهذا الإسلام.

• • •

(١) الصحوة الإسلامية (١٩).

من مظاهر القوة فى الأسرة المسلمة

يقولون : على قدر قوة الرامى تكون إصابة الهدف . . وبنفس القوة نقول، وعلى قدر قوة الأسرة يكون تحقيق هدفها . .

إن الأسرة من « الأسْر » وهو القوة .

وإذا كان هدفها بعيدًا . . فلابد أن تكون من القوة بحيث تحقق هدفها ذلك البعيد . . وإنها لكذلك :

وفى هذا الصدر يفرض هذا السؤال نفسه :

ما هو سر قوة الأسرة فى الإسلام ؟

الجواب : إنه لا يعود إلى الظاهر . . وإنما هى المخابر : هى : منظومة القيم التى تربط على قلبها .

والحديث الشريف يستبعد المال والجمال والحسب . . والتى لا يصلح واحد منها . . ولا مجموعها . . لا يستطيع أن يمسك على الأسرة وجودها : لأن المال يذهب . . والجمال يغيض . . وواقع الحياة شاهد بتبادل المواقع بين الناس : فالدهر قلّب : يوم لك . ويوم عليك . . ولا يبقى إلا الدين الذى يصير به المسلم للخير فعولا . . وللرحم وصولا .

وعن هذه القيم تتحدث الآية الكريمة : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الروم: ٢١] .

إنها قيم : التجانس . والمودة . الرحمة . والسكن . .

والتى تبقى بها الأسرة تواكب الزمان :

إنه التجانس : من حيث خلقت الأنثى من نفس بدن الرجل ، أى : من جنسكم بعد إيجادها من ذات أبيكم آدم عليه السلام . . لتسكنوا إليها : مائلين

إليها بالشهوة والألفة . . ولم يجعلها من غير جنسكم . لئلا تنفروا منها .

ثم هى المودة : فلا يحب واحد من الزوجين أن يصل إلى صاحبه مكروه . مع ما طبع عليه الإنسان من محبة الأذى .

إلا أن مادة (ودد) تدور على معنى الإتساع والخلو . .

فالود هو : الخلو عن إرادة المكروه . . فإذا حصلت إرادة الخير وإيثاره كان حبًا .

والود: أول التخلص من داء أثر الدنيا . لما يتولد لطلابها من الازدحام عليها من الغل والشحناء .

فمن ود . . لا يقاطع .

ومن أحب . . واصَل وآثر .

ثم هى مودة « بصيغة التنكير » : مبالغة .

مبالغة يذهب الخيال فى عمقها كل مذهب ، فهى مودة عميقة إلى الحد الذى يقول أحدهما للأخر : يا أنا !!

ثم تجىء الرحمة منكرَّة أيضًا : ومبالغتها فى اتساعها .

فهى معنى يحمل كلا على أن يجتهد للآخر فى جلب الخير . ودفع الضير . . ولما كانت إرادة الخير قد تكون بالمنّ ببعض ما يكره . . جمع بين الوصفين وهما من الله . .

والفرْك ـ وهو البغضة من الشيطان .

ثم إن المودة بين الزوجين مجعولة أولا من الله عز وجل .

مجعولة فعلا . . إنها مودة واقعة .

أما غيرها من المودة فهى متوقعة !

وذلك قولـه عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الممتحنة: ٧] .

ومن مظاهر القوة :

أن كلا الزوجين « لباس » للآخر .

يقول عز وجل : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [الممتحنة: ٣] .

هن لباس لكم : وإذن فهى : ستر لك .

ومفصلة على قدك . . فهى كافية مقنعة لك . . فلا تبتغ سواها .

وأيضًا : فلا غنى لك عنها كما وأنه لا غنى لك عن اللباس الساتر .

ذلك بأن المخالطة والملابسة قد تضعف من الصبر عليهن .

وإذا سوّلت للزوج رجولته فتعامل مع زوجته على أساس أنه الأقوى . . فهى محتاجة إليه أوّلا .

إذا كان الأمر كذلك . فإن الآية الكريمة تطامن من هذا الإحساس بتقديمها فى الذكر ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ ﴾ لفتا لنظره . ليعلم أن حاجته هو إليها أقوى !

والآية الكريمة مع هذا . وفوقه تتجاوز المتعة الحسية . . إلى التركيز على القيم النبيلة . والتى بها تستقر العلاقـات . . وتستمر ثم إن غاية هذه العلاقة لن تكون هذه المتعة . . لأنها عابرة ذاهبة . .

وإنما هى : الولد . . والولد الصالح .

وهذا ما نص عليه المفسرون تعليقا على قوله عز وجل : ﴿ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ قالوا : هو الولد الصالح .

الولد : ذكرًا أم أنثى . . وهى الغاية التى يمتد بها العمر ويخلد الذكر . .

وتعبيرًا عن هذا الامتداد . . نذكر عمر رضى الله عنه . . والذى لم تنقطع صلته بابنته حفصة رضى الله عنها بزواجها .

فإنه لما تأيمت . . عرضها على بعض الصحابة زوجة وأين هذا من الأسرة المفككة فى غيبة الإيمان هناك . . وفى بلاد لا تدين بالإسلام ؟

وتأمل مشهد الفتاة هناك . . وهى بكر . . تخرج شاكية باكية . . لأن أباها رفض أن تسكن معه فى بيته إلا أن تدفع إيجارًا باهظا كان فى حسه أغلى من شرفه وشرفها . . تأمل ذلك . ثم ردد معتزًا بما قال شاعرنا :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

• • •

الأسرة وصناعة المبادئ

قال الولد لوالده : إن الخبز قد غلا ثمنه !

فقال الوالد لابنه وهو يحاوره : والله يا بنى : لا أبالى . . ولو أضحت كل حبة بدينار !!

فعلينا أن نعبد الله كما أمرنا . وعليه أن يرزقنا كما وعدنا . .

وينتهى درس « التوكل » والذى كان تفسيراً عمليا لقوله عز وجل : ﴿ **ومَن يتق الله يجعل له مخرجا (٢) ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا** ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] .

وفى تعليق على الآية يقول : أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى : من العجب سلامة دين ذى العيال . . إذا ضاق به الكسب . . فإنه إذا لم يقدر على الحلال . . ترخص فى تناول الشبهات . . فإن ضعف دينه . . مد يده إلى الحرام.

فكذلك صاحب العيال : إذا ضاق به الأمر . . لا يزال يحتال .

فما مثله إلا كمثل الماء إذا ضُرب فى وجه « سكر » أى : سَدّ .

فإنه يعمل باطنا . . ويبالغ . . حتى يفتح فتحة . .

ولكن موقف الوالد هنا يبدو فيه التوكل على الله : فهو خير معتصم .

وليس معنى ذلك اطراح الأسباب جملة : فما زالت الأسباب فى الشرع.

كقوله تعالى : ﴿ **وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم** ﴾ [النساء: ١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿ **فذروه في سنبله** ﴾ [يوسف: ٤٧] .

ولقد شاور ﷺ طبيبين .

ولما خرج إلى الطائف . لم يقدر على دخول مكة . حتى بعث إلى « المطعم

ابن عدى » فقال : أدخل فى جوارك .

وقد كان يمكنه أن يدخل متوكلاً . بلا سبب [١]

التوكل فى حياة الأسرة :

وعلى أى حال .. فقد كان ما مضى درسًا بليغًا فى أخذ الولد بقيمة التوكل .

ولكن الدرس الأبلغ ما كان من الوالد والوالدة .. علميًا .. والأولاد يسمعون ويشاهدون .

لقد تعرضت الأسرة لضغوط دَين لم تستطع سداده .. وبدل أن يقول الرجل لامرأته : بيعى ما تبقى من متاع البيت سدادًا لبعض الدَّين .. بدل هذا . يقول لها واثقًا متحديًا يا قسوة الموقف : تصدقى بكل ما فى البيت ؟!

وتصدقت الزوجة بكل ما فى البيت .. إلا « الرحى » التى استبقتها فجاءتها الهدية « قمحا » وكان المتوقع أن تأتيها « دقيقا » لو أنها تصدقت « بالرحى » ؟!

المهم : أنه درس عملى فى « التوكل » يصنعه الوالد صنعًا .. ولا يؤلف فيه بحثا ؟!!

وكان من كمال الدرس : أن تستثنى « ربة البيت » «الرحى » لتكون المفاجأة تمامًا للدرس ؟!

ويبقى الموقف فى ذاكرة الأطفال وميضًا يتراءى عبر ما مضى من العمر .. شاهدًا بأن التوكل هو : التخلص ـ فى ساعة العسرة ـ من كل حول وطول .. اعتمادًا على القادر سبحانه وتعالى .. وحده .. لا على أحد من خلقه .. ثم يتوج فى النهاية بالشكر .. وليس بالشكوى !

ألا إن قبول « المحل » لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده .

---

(١) صيد الخاطر (٩٢، ٩٣) .

وقد أخلى الوالد هنا ـ ومعه زوجته ـ أخليا قلبيهما من الدنيا بكل ما فيها . . ومن فيهـا . . لتمتد فيـها قيمة التوكل بحـراً لا ساحل له . . وعندئذ . . يجيء الفرج! .

وهكذا الزوجان المخلصان :

يأكل أحدهما . . فيشبع الآخر .

ويشرب . . فيرتوى .

ويأخذ النوم . . فيرتاح .

يتآلفان . . عن قرب .

ويتعاطفان فى البعد .

يتناصفون . . فى الخلاف .

ويتحالفون . . فى الكريهة .

والأولاد من حولهم . . يتعلمون . . ثم يعملون وعلى منوالهم ينسجون !

وبينما الزوجة الناشز : فى الفقر ، تكون مصدر تفريق . . وفى الغنى مظهر تعويق . فإن الزوجة « المتدينة » صابرة محتسبة ، يجرى الوفاء مع أنفاسها . .

ولئن كانت الـدار ضيقـة . وكان الرزق محـدوداً . . فإن وفاءهـا لا يتخلى عنها، وهى مع زوجها فى سلام ووئام .

فـلا يضيـق « سَمّ الخيـاط » بمتـحـابين فى الوقت الذى تضيق فيـه الدنيـا بمتباغضين!!

وما أضيع العمر مع شريكة حياة : (أناقة فى المظهر . وشناعة فى المخبر ».

وأجملْ بشريكين فقيرين: يتنافـسون فى الفضل . . لا فى الفضالة : بطونهم جوعى . . وأرواحهم شبعى .

حلوقهم ظمأى . . وعقيدتهم ريًّا .

ورغباتهم معتزة . وليست ملتذة .

كل ذلك بين يدى ذرية لا تتلقى « القيم » بالتلقن وإنما : بالتقليد . .

وبالممارسة . . لا بالمدارسة !

• • •

يأكل الذئب من الغنم القاصية

فى كتابه « تجريد الأغانى » يقول ابن واصل الحموى : أن « عمر بن ربيعة » شاعر الغزل قال يوما :

كنت أُعشق!!

وقد قيل عنه : ما عُصى الله بشىء كما عُصى بشعر ابن ربيعة . .

وقد ولد فى الليلة التى قتل فيها عمر بن الخطاب . رضى الله عنه . فقيل: أىّ حق رُفع . . وأى باطل وضع ؟!

ولكنه قال لبعض بنى أخيه . وهم فى ملابس الإحرام: « ورب هذه الكعبة. ما كشفت ثوبا عن حرام قط ».

ثم قال لأخيه « الحارث » فى مرض موته ، وقد جزع جزعًا شديدًا : «أحسبك إنما تجزع لما تظنه بى : والله ما ارتكبت فاحشة قط .

ثم يقول الراوى : قدمت امرأة مكة . وكانت من أجمل النساء . . فبينما «عمر » يطوف . . إذ نظر إليها . فوقعت فى قلبه ! فدنا منها . فكلمها. فلم تلتفت إليه .

فلما كان فى الليلة الثانية . . جعل يطلبها . حتى اقترب منها . فقالت : إليك عنى . . فإنك فى حرم الله ؟!

فألح عليها . فكلمها. حتى خافت أن يشهر بها .

فلما كانت الليلة الثالثة : قالت لأخيها ـ دون أن تخبر عمر ـ أخرج معى يا أخى . وأرنى المناسك . فإنى لست أعرفها فأقبلت . وهو معها .

فلما رآها « عمر » أراد أن يَعرض لها . . فنظر إلى أخيها معها .

فعدل عنها .

وعندئذ تمثلت المرأة بقول : « النابغة الذبياني :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقى صولة المستأسد الحامي

فلما حُدِّث « المنصور » بهذا الحديث قال : « وددت أنه لم تبق فتاة من قريش . إلا سمعت بهذا الحديث » .

وإذ يشير « المنصور » إلى سر هذا الموقف . . فإننا نذكّر بالحديث الشريف الذي ينبغي أن تذكره . فلا ننساه : « **لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفراً يكون ثلاثة أيام فصاعداً ، إلا ومعها : أبوها ، أو أخوها أو زوجها . أو ابنها أو ذو محرم منها** » متفق عليه .

وفي رواية أبي هريرة رض الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ، تسافر مسيرة يوم وليلة ، إلا مع ذي محرم عليها** » .

وفي رواية : مسيرة يوم .

وفي رواية : مسيرة ليلة .

وإذا كان « المنصور » الخليفة يركز على الحدث . . فإننا نركز على الحديث والذي يجب أن يكون قاعدة الانطلاق .

وإذ يود المنصور أن تسمع به كل فتيات قريش . . فإننا نود أن لو سمعت به كل فتيات العرب . . والمسلمين ! .

• • •

من دروس الحديث الشريف

١ ـ مع أن عمر بن ربيعة شاعر الغزل . . لكنه يقسم أنه لم يرتكب فاحشة طول حياته . .

ولكن هذا القسم لا يعفيه من أن يكون واحداً من ضحايا هذه القاعدة : «من

وضع نفسه فى مواضع الشبه ـ وهو برئ ـ فلا يلومن إلا نفسه » .

وقد تغزل بنساء شريفات عفيفات . . متقوّلا عليهن الأقاويل فلا جرم كان متّهما .

٢ ـ ومع ما يحمله فى قلبه من براءة الأطفال . . ولكن الاختلاط ماضى بالشريف إلى « الحمى » الذى وقع فيه فعلا !!

ولن يشفع له ماضية الطاهر النقى . . إزاء لحظة تخلى فيها عن حيائه الذى أكده من قبل بالقسم العظيم .

٣ ـ من شأن البنت الحرة إذا ما تعرضت لإغراء أن تحتال . . وبلا ضجيج .

وقد احتالت الفتاة هنا على أخيها فعلا : فلم تشأ أن توغر صدره عليه . . حتى لا يكون صداه .

وأين منها تلك البنت العابثة التى تشكو إلى أهلها من تصرف عارض . . لتخفى بهذه الشكوى ما قدمت يداها من قبل ؟!

٤ ـ لقد أثبتت الفتاة هنا أنها تلك الشجرة المباركة : تحاول الحشائش الضارة أن تتسلقها . وتمتص رحيقها . ولكن الشجرة الأصيلة : تظل ثابتة . متأبية سامقة .

لقد كانت عظيمة : تستسلم لها تلك العظمة التى تتأبى على المهرجين والمهرجات .

ألا وإن العظمة الحق : ليست فى ألا تسقط . . ولكنها بالدرجة الأولى : أن تسقط . ثم تنهض . . ومن قريب .

٥ ـ والموقف يؤكد ما قرره الشرع الحنيف : « **ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما** » .

الشيطان : الذى يحرض على خيانة الزوجه .

وعقوق الولد .

ودعارة المرأة .

ليكون الدستور هو : لا داعى لسماحة موسى . . ولا لبلاغة هارون » .

وإنما الحاكم هو : قوة شمشون ، وغنى قارون ولله فى خلقه شؤون !!

٦ ـ ومرحبا بالندم . . ندم الفتاة التى تحدثت مع فتى غريب . . وفى الحرم والكعبة ملء العيون . . مرحبا بالندم الإيجابى على فرصة ضاعت . . أو تجارة بارت لتستأنف حياة الطهر من جديد . .

• • •

يأكل الذئب من الغنم القاصية

يقول ﷺ : « **لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر . أن تسافر سفراً يكون ثلاثة أيام فصاعداً .. إلا ومعها : أبوها ، أو أخوها ، أو زوجها ، أو ابنها ، أو ذو محرم منها** » متفق عليه .

وفى رواية : مسيرة يوم .. وفى رواية : مسيرة ليلة ..

لا يزال حديثنا موصولاً .. حول سفر المرأة مشروطًا بمحرم :

قال الفتى العائد من الغرب : إن فى هذا لحجرًا على الزوجة ، وهدما للثقة لها .. والمفروض أنها وقد صارت زوجة أن تكون حرة فى تحركاتها ، وسواء كان سفرها قريبًا أم بعيدًا .

وقلت للفتى : لقد غاب عنك ترهيب الإسلام من سفر الرجل : وحده .. أو مع آخر فقط يمثل هذين الحديثين الشريفين :

أ ـ عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **لو أن الناس يعلمون من الوحدة ما أعلم . ما سار راكب بليل وحده** » رواه البخارى والترمذى وابن خزيمة .

ب ـ وعن أبى هريرة رضى الله عنه . قال « **لعن رسول الله ﷺ مخنثى الرجال : الذين يتشبهون بالنساء ، والمترجلات من النساء ، المتشبهات بالرجال ، وراكب الفلاة وحده** » رواه أحمد . وبقية رواته رواة الصحيح [1] .

وقلت للفتى الغاضب : إن كراهة سفر الرجل وحده .. لا تقدح فى أهليته .. ولا تنقص من ثقتنا به .

والمرأة كذلك .. بل هى أحق به وأولى .. بل إن الأمر هنا لا يعدو أن يكون حماية لها من الذئاب : فنقطع دونها الأسباب .. ونغلق الأبواب !

---

(١) راجع الترغيب والترهيب للمنذرى (٤/ ١١١) .

ونحن لا نرتاب فى طهارة المرأة . . ولكنها نحذر من عدم كفايتها لحماية نفسها من طمع الطامعين .

وإذا كان بعض الناس يطلبون السعادة فى الذهب والفضة والتحرر . فإننا باسم الإسلام نطلبها فى : الدار الصالحة . والمركب الصالح . والمرأة الصالحة . .

ومن صلاحها أن تظل على عفتها كالبيض المكنون . . المصون !

إننا ننظر إلى الوراء . . بعمق . . ثم ننظر أمامنا . . بوضوح : ليتأكد لنا صدق الإسلام فيما ذهب إليه من آداب فى هذا الباب . . فراراً من الذئاب . . الذين يحاولون ـ كلما سنحت لهم فرصة ـ أن نتحلب أشداقهم إزاء ساحة . . بلا حراسة . . وأمام ضحية قد لا تستطيع قطع الكف الممتدة أليها . . ولكنها قد تقبّلها ؟!

وأحيانا يكون معك سيف الحق وبرهانه :

لكن السيف لا يقطع . . والبرهان لا يقنع . .

ويخاصة مع هذا الزوج الذى يفرط فى منح زوجته الثقة المطلقة زاعمًا أنها «رجل» .

وقلت له : دعواك غير صحيحة لأنك أول من يعلم أنها أنثى . وليست رجلا؟!

ثم إنك لا تغار على عرضك ، فالزوجة الجالسة بين الرجال سوف ترى فى كل رجل ما لا تراه فى زوجها ـ كما أن العكس صحيح أيضًا .

وتعبير الحديث الشريف مرة : مسيرة يوم . . ومرة مسيرة ليلة . .

وذلك بعد « ثلاثة أيام » .

هذا التنوع لا يجعل الامتداد الزمنى محددًا . . ولكن الأمر متروك للزوج الغيور والذى يعلم من أخلاق زوجته ما يحدد حجم الخوف منها . أو عليها .

ولا حظ من فقة الحديث : أنه حصر الحراسة فى جنس الذكور القادرين على حفظ البيضة ــ دون الإناث . . لأنهن ضعاف !

ثم بدأ بالوالد : لأن الوازع الطبيعى فى الدفاع عنها قوى : فهى بضعة منه . . ولأن التحرش بها عدوان عليه شخصيا من حيث كان هجومًا على حماه هو !

أما أمها : فضلا عن كونها أنثى . . فقد يكون الإعجاب بابنتها بعض مآربها؟! لأنها منسوبة إليها . . والإعجاب . . بابنتها يضاف لحسابها ؟!

بدليل أنها لا تغار على ابنتها بنفس النسبة لو تعلق الأمر بزوجة ابنها . . لانتفاء هذا السبب !!

ثم يجىء الأخ . . والزوج . . والابن فى مرتبة تالية :

فقد يترخصون فى أسباب الحماية . . لحاجات فى النفس . ومن نفس النوع؟!

• • •

تحذير من العقلاء

وفى ضوء هذا الحديث الشريف . . جاءت تحذيرات العقلاء من التقليد . . حذر العواقب الوخيمة : قالوا : « احذرى تهوس الأوروبية فى طلب المساواة بالرجل .

لقد ساوته فى الذهاب إلى الحلاق .

ولكن الحلاق لم يجد فى وجهها اللحية !!

إن الكلمة الخادعة إذ تقال لك . . هى أخت الكلمة التى تقال ساعة إنفاذ الحكم للمحكوم عليه بالشنق !

يغرونك بكلمات : الحب ، والمال ، والحرية ، والمساواة . كما يقال للصاعد إلى « الشناقة » .

ماذا تشتهى ؟ ماذا تريد ؟!

فإذا هى خالطت الرجال . . فإنها تخالط شهوات . فيجب أن تحذر وتبالغ .

وقالوا : إن المرأة التى تزاحم الرجل . . إنما تزاحم نفسها :

لأنها تسلم بيتها لغيرها . ممن ليس لهن عواطف الأم ، ولا حنان الزوجة . ولا غيرة الأخت .

والمرأة : لن تكون كالرجل . . إلا إذا خلعت الحياء . . الذى هو أخص صفاتها . وأجمل زينتها .

بل إن الحياء . . هو الحياة !

• • •

السماحة عندنا .. وعندهم

من معانى السماحة:

أ ـ المساهلة : بمعنى الموافقة على ما يراد منك ، ومن الطرف الآخر.

ب ـ الاتساع : اتساع الصدر لقبول وجهة النظر الأخرى . . واتساع القلب لتجاوز زلته .

جـ ـ البساطة : بلا تعقيد .

د ـ الوضوح : بلا غموض .

هـ ـ السرعة : فى عودة المياه إلى مجاريها ،

وذلك هو هدف السماحة : أن تطيع الله تعالى فيمن عصاه فيك .

نحن .. وهم :

إذا ضُم معن السماحة على هذه المعانى النبيلة الجليلة . .

فماذا هناك ؟ إن العفو عندهم يساوى الانتقام . . حين يزيد النار اشتعالا .

وذلك قولهم : اغفر لعدوك نكايةً فيه .

وذلك أيضًا فعلهم : فهم يوصون المرأة المطلقة بما يُبقى على جذوة الحقد فى قلبها . . فقالوا لها : حتى يذهب حبيبك السابق من مخيلتك فعليك بالآتى :

أن تمسكى قلمًا . ثم سطرى كل عيوبه .

ثم حدثى زميلاتك بكل هذه العيوب . . وبذلك تندمل الجراح ؟!

ولكننا نتساءل : هل تندمل الجراح فعلا ؟

والجواب : لا .

لأن للمطلّق عينين ولسانا وشفتين . . وسوف يرد الصاع صاعين . . دفاعا

عن النفس . . وبذلك . . لا تندمل الجراح . . وإنما تنزف دائمًا ما دامت حرب الأعصاب هكذا مستمرة.

أما فى الإسلام :

ففيما يتعلق بالمطلقة فالقرآن الكريم يقول : ﴿ **وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته** ﴾ .

وذلك مما يبقى على قيمة « السماحة » التى لا يحبط مفعولها فراق أعزاء الأمس القريب .

فالفراق لا يعنى الشقاق . . إذا ما أحست المطلقة بالضياع .

ذلك بأن الله القادر سبحانه يَعدُها بالعوض : الذى هو آت لا ريب فيه .

وإذن : فلتتراجع مشاعر الانتقام ، ولتتوقف حرب المهاترات . . ولنعتصم بالسماحة التى تسع الجميع .

نلتزم بها كما أمرنا ربنا : لينجز لنا ما وعدنا بالبديل الذى يمتد فى فراغنا.

ثم إن هناك العِدَّةَ . . بعد الطلقة الأولى .

والعدّة بعد الطلقة الثانية .

وكلتاهما قريب من مائة يوم . . يراجع فيها الزوجان حسابات ربحهما وخسارتهما . .

ولعل منفعة الزوجة فى العود إلى العش القديم تكون أظهر .

ومن أجل ذلك . . فسوف تتعامل مع الموقف بقيمة السماحة فلا تفحش . . تاركة للصلح موضعًا .

وحتى إذا طُلقت للمرة الثالثة . . وكان لابد من أن تنكح زوجًا آخر . . فإن طِيف الزوج القديم . . والعش القديم يظل يلاحق الزوجة .

وذلك بعض ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ... ﴾ [البقرة: ٢٣٠] .

يعني ذلك : نسيان مآس الماضي . . لنبدأ الحياة من جديد بعد ما نسجناه بالتسامح والعفو والمغفرة .

أما بالنسبة لمخالفينا في الدين : فإن السماحة تتجاوز حدود البيت . . لتشمل هؤلاء المخالفين .

ونقرأ في ذلك قوله عز وجل على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦] .

وتأمل مسافة الخلف بين التوحيد . . والوثنية . .

ثم تأمل ثانيًا من ذكريات الخليل المرّة مع قومه الذين حكموا عليه بالإعدام حرقًا .

ومع ذلك : فقد كان أمره معهم على ما قيل : أريد حياته . . ويريد قتلي!!

إنه ـ كما تفيد الآية الكريمة ـ لم يدع على عدوه بالويل والثبور وعظائم الأمور : لم يطلب تحطيمه . . ليشرب من نفس الكأس : ولكنه عليه السلام يتعامل مع خصومه بقيمة التسامح . . التي زينت له أن يدعو لهم بالمغفرة . . متخليا عن مشاعر الانتقام . .

لأنه لا يعمل لحساب نفسه . فينتقم ممن أساء إليه .

ولكنه مشغول بمستقبل الدعوة . . فكانت نهمته في العفو وليست في الانتقام .

إن الدعوة باقية . . أما نحن : فنذهب ونروح .

ومن معاني ذلك : أن خصومنا قد يباهون بأنهم يتعاملون مع الناس

والأحداث بالسماحة . . كما نتعامل نحن تماما .

ولكنا نقول :

إن السماحة هناك بضاعة مزجاة . . إنها كزهور الزينة : ظاهر رواء . . وباطن خَواء . . بلا رائحة . . لأنها بلا جذور إيمانية تمنحها الاستمرار . .

أما نحن : فإننا ننطلق أو هكذا يجب أن نكون ننطلق من مبدأ الإيمان الجامع المانع .

الإيمان الذى يشكل الرصيد . . الذى يجعل لأعمالنا قيمة تذكر فتشكر :

بالتوحيد . . عقيدة .

والوحدة . . هدفا .

• • •

السماحة تحت سقف البيت

يقول الله عز وجل : ﴿ يا أيُّها الَّذين آمنُوا إنَّ منْ أزْواجكُمْ وأوْلادكُمْ عدُوًا لكُمْ فاحذرُوهُمْ وإن تعْفُوا وتصفحُوا وتغْفرُوا فإنَّ اللَّهَ غفُورٌ رَّحيمٌ ﴾ [التغابن: ١٤] .

على تعدد أنشطة المسلم اليومية . . فإنه يتوخى بها جميعًا هدفًا واحدًا هو ما ذكرته الآية الكريمة : ﴿ وسارعُوا إلىٰ مغْفرةٍ منْ ربِّكُمْ وجنَّةٍ عرْضُها السَّمٰواتُ والأرْضُ أعدَّتْ للْمُتَّقين ﴾ [آل عمران: ١٣٣] .

عقبات على الطريق :

وقد تعترضه في الطريق عقبات . . منها الصعب . . ومنها الأصعب . . مما يتطلب اقتحامه عزمًا :

وفي مقدمة ذلك : الزوجات والأولاد .

فقد جبلت النفوس على حب هذين النوعين :

حب الزوجات : استجابة لغريزة الجنس ، وغريزة الاجتماع . .

ثم حب الأولاد : استسلاما لغريزة الأبوة وغريزة حفظ النوع .

ولأن هذه الضغوط ثقيلة على كاهل الإنسان . . إلى الحد الذى قد يطغى هذا الحب . . فيورط المحب فيما لا يليق . . والصاحب ساحب . . كما يقولون . و«الولد مبخلة ، محزنة مجبنة [١] .

لأن الأمر كذلك . . فإن الآية الكريمة تحذر الآباء أن ينقادوا لرغبات أزواجهم وأولادهم .

سبب نزول الآية الكريمة :

وفي سبب نزول هذه الآية الكريمة يقول المفسرون : كان الرجل إذا أراد

---

(١) رواه أبو يعلى والبزار كما في مجمع الزوائد (٨/ ١٥٥) .

الهجرة . . تعلق به بنوه وزوجته .

فقالوا : أنت تذهب . . وتذرنا ضائعين ؟!

لقد صبرنا على إسلامكم . . ولكنا لا نصبر على فراقكم !! .

رد الفعل :

وقد كان فى الآباء من استسلم . واسترخت إرادته . فأطاعهم ولم يهاجر .

وفوق هؤلاء كان هناك الصنف الأعلى ، والذى طلبت إرادته . . فلم تسترخ . . وتجاهل عواطفه . . بل داس على نداءِ غريزته . . فهاجر . .

ومن هؤلاء . . من وجد في المدينة من إخوانه من سبقه إلى الهجرة . . فحزن حزنًا قرر معه حرمان أهله الذين ثبطوه فقرر قطع معونته عنهم .

وجاءت هذه الآية الكريمة لتعلن فصل الخطاب فى هذه القضية الأسرية الحيوية برمتها :

من فقه الآية الكريمة .

تستهل الآية بنداء التشريف والتكليف معا:

أما التشريف : فلأننا أهل لأن ننادى من قبل الحق الأعلى .

وأما التكليف : فبحكم إيماننا بالله عز وجل . . فنحن مطالبون بإيثار طاعته سبحانه . . حتى على طاعة أعزائنا .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ... ﴾ .

يعنى : بعضهن . . وبعضهم : أعداء . وليس كل الزوجات . . ولا كل الأولاد أعداء وإنما : إن من الأزواج أزواجا . . ومن الأولاد أولادًا هم أعداء : يعادونهم ، ويَعقّونهم ، ويُجرعونهم الغصص .

والآية الكريمة تقدم الأزواج على الأولاد .

مما يفيد : أن نسبة العداوة فى الزوجات أعلى . . لماذا ؟

لأن الزوجة : من خيفتها أن يتزوج عليها أو أن يطلقها . . تراها مشغولة بما يُبقى على الرجل . . لها وحدها .

وقد يحملها ذلك على أن تستعين بكيدها العظيم . . ردعا له .

أما الولد : فهو مطمئن : لأنه فى حماية « غريزة الأبوة » التى لن تتخلى عنه أبدًا .

إن أباه يحبه « غريزة » وليس عاطفة كحبه له .

ومع هذا الفارق . . إلا أن من الأولاد من يشكل عدوًا لوالده .

ومن أجل ذلك يجىء التحذير صراحة : ﴿ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ .

فهذه الزوجة عدو : وإن أظهرت غاية المودة وهذا الولد أيضًا عدو : وإن أبدى لوالده فائق الاحترام .

قال أبو حيان رحمه الله : ولا أعدى على الرجل من زوجه وولده [إذا كانا عدوين] .

أما فى الدنيا : فبإذهاب ماله . وعرضه .

وأما فى الآخرة : فبما يسعى فى اكتسابه من الحرام لأجلهما .

سوء الظن عصمة :

والمطلوب هنا هو : سوء الظن [1] الذى هو عصمة . .

وإذن فاحذروهم . . ولا تأمنو إغوائهم .

ولكن شدة الحذر لا تعنى الغلظة . التى قد تصل إلى ترك الإنفاق عليهم :

فاعفوا : ولا تعاقبوا .

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط .

واصفحوا : ولا تعاتبوا .

ثم اغفروا : استروا ما حدث كأن شيئًا لم يكن . . لتعينوهم على الاعتذار . . والعزم على تجديد الإحسان إليكم .

ذاكرين الغُنم الأكبر وهو فوزكم بجزاء من جنس عملكم: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

إن حقك فى غفران الله شرط لأداء واجبك فى العفو عن عياله .

• • •

شبابنا إلى أين ؟

عن أنس بن مالك رضى الله عنه : « جاء ثلاث رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فلما أخبروا . . كأنهم تقالوها . فقالوا : وأين نحن من النبى ﷺ ؟!

قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال أحدهم : أما أنا : فإنى أصلى الليل أبدًا .

وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر .

وقال آخر : أنا أعتزل النساء . . فلا أتزوج أبدًا .

فجاء رسول الله ﷺ فقال : « **أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟**

أما والله : إنى لأخشاكم لله . وأتقاكم له: لكنى :

أصوم .. وأفطر .

وأصلى .. وأرقد .

وأتزوج النساء .

فمن رغب عن سنتى فليس منى ؟ »[1] .

مدخل :

كان للرسول ﷺ مقامان كريمان :

يقضى أولهما : أن يكون المثل الأعلى فى القانتين :

ويقضى ثانيهما : أن يكون القدوة المثلى فى الهداة المرشدين.

كان فى مقام العبودية : يصل ليله بنهاره فى خدمة مولاه . ويقوم من الليل

---

(١) البخارى : كتاب النكاح . والرهط من ثلاثة إلى عشرة . والنفر من ثلاثة إلى تسعة وكلاهما اسم جمع لا واحد له من لفظه.

حتى تتورم قدماه . .

وكان فى مقام الهدى والإرشاد يترفق بصحابته . ويدعوهم إلى الأخذ بالأيسر من الأمور . . ما لم يكن إثما . . ويحذرهم التكلف والتعمق . ويقول لهم : « **خذوا من العمل ما تطيقون . فإن الله لا يمل حتى تملوا** » البخارى (٣).

ومع هذا التوجيه العام . . فقد كانت له مبادرات فردية تتعقب المشددين على أنفسهم رحمة بهم : فهو الذى قال لعبد الله بن عمرو : « **صم وأفطر ـ ونم وقم فإن لجسدك عليك حقًا . وإن لعينك عليك حقًا . وإن لزوجك عليك حقًا . وإن لزورك عليك حقًا** » البخارى .

وهو ﷺ الذى قال لحنظلة : « ... **ولكن يا حنظلة : ساعة وساعة ... ثلاث مرات** » سنن ابن ماجه (٤٢٣٩).

وهكذا كان منهجه ﷺ الوسط : لأن الإفراط كالتفريط : كلاهما بعيد عن سواء الصراط .

• • •

واقع الشباب

وعندما تتأمل واقع الشباب اليوم . . سابحًا بفكرك سبحًا طويلا فسوف تلقاهم : إما مفتون بالدنيا . . سار مع الذين يعبون من نعيمها عبا . .

وإما هارب من هذا النعيم . . مشدد على نفسه . . آخذ بالعزائم فى كل الأمور . . غائب عن الساحة . . فليس له فيها « حضور ».

وثالث : جالس على كراس المتفرجين : لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

الأول : كالهيماء التى عناها الشاعر القائل :

فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد صداها . . ولا قاض عليها هيامها

والثاني: يؤثر أن يكون « مائعًا » وهو الموقف السلبي الذي يرفضه الإسلام :

فالقرآن حجة لك . . أو عليك . . ويرفض .

الموقف الثالث: المائع المستريب .

والذي يعنينا هو الهارب . . وكيف نعود به إلى أن يعيش العصر . متمسكًا في نفس الوقت بالأصول .

إن التفريط كالإفراط : كلاهما بُعدٌ عن سواء الصراط . كما أشرنا فالذين يعبون من نعيم الحياة عبا . . كالذين يرفضون هذا النعيم رفضًا . كلاهما متنكب الصراط السوي .

والموقف الأمثل هو : التوسط . .

أما الغلو . . فهو ترف .

وأما التفريط . . فهو زهد .

وما عليك إلا أن تمد جسرًا فوق هذين التصورين . . فرارًا من الآثار المترتبة على ذلك .

لأنك لا تستغني عن الدنيا . . مادمت فيها . .

فإذا أنت زهدت فيها . . ثم عدت إليها بمقتضى حاجتك إليها . . فماذا يحدث؟

لسوف تدخل فيها بعنف يصعب معه أن تعود سيرتك الأولى زاهدًا . . والسبيل القاصد هو : التوسط . . فرارًا من هذه النكسة المتوقعة !!

وهو ما أدركه « عمرو بن العاص » رضي الله عنه . . والذي كان قرر الفرار من الدنيا جملة . .

فلما صقلته التجارب قال : ياليتني أخذت برخصة رسول الله ﷺ وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩] .

شبابنا إلى أين ؟

وقفات بين يدى الحديث الشريف

وما يزال حديثنا موصولاً تعليقًا على موقف الشباب الذين شددوا على أنفسهم فى العبادة .

جاء فى فتح البارى كتاب النكاح:

أن رسول الله ﷺ ذكرَّ الناس . وخوّفهم فاجتمع عشرة من الصحابة هم :

أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، وابن مسعود ، وأبو ذر ، وسالم مولى أبى حذيفة ، والمقداد ، وسلمان . وعبد الله بن عمرو بن العاص، ومعقل بن مقرن. اجتمعوا فى بيت عثمان بن مظعون رضى الله عنهم جميعًا .

لم تكن قضية الشباب دنيوية . . أو شخصية ولكنها « حق الله » عز وجل : وكيف يؤدونه كاملاً غير منقوص ؟ كيف . . والموج ثائر . . والشاطئ بعيد؟! ولقد كان اتفاقهم فى حد ذاته ظاهرة صحية .

فكثير من الشباب يبددون طاقاتهم فى خلافات عقيمة حول قضايا فرعية : ولكن هؤلاء الشباب كانوا أكبر من ذلك .

لقد أيقنوا أن الحياة الحق وراء هذه الحياة لا فيها . .

وتكون على أتمها حين يتساوى الناس فى الشعور . . لا حين يختلفون .

وحين يتعاطفون بإحساس الألم الواحد . لاحين يتنازعون بإحساس الأهواء المتعددة .

على أن هناك أمرًا آخر . . يجعل من رفض الاستمتاع بالدنيا كلية أمرًا وخيم العاقبة وهو : أن الدنيا أم البشر .

وقد سئل الإمام على رضى الله عنه : ألا ترى الناس يحبون الدنيا . .؟ فأجاب: إنها أمهم . . فكيف لا يحبون أمهم ؟!!

ويعنى ذلك :

أن الزاهد فى الدنيا سوف يحتاج إليها يومًا . . لأنه أمه . . فإذا عاد إليها بعد طول حرمان . . فسوف يكون الاندفاع العنيف . . تعويضًا عما سلف من حرمان . . وعندئذ يكون هلاك الإنسان !

أجل : نحن أمام مجموعة من الشباب : أحسوا بالعافية تسرى فى أبدانهم وأن لهم فضلا من الطاقة يجرى فى عروقهم . .

وعهدنا بشباب على هذا النحو . . أن تتوزعهم مناعم الدنيا التى يتعاملون معها بهذه العافية . . ويبددون على موائدها تلك الطاقة الوافرة.

ولكن هؤلاء الشباب كان لهم مع الدنيا شأن آخر:

لقد أحسوا بنعمة العافية . . ونعمة الطاقة . . فقرروا أن يتجهوا بهما إلى المنعم بهما سبحانه وتعالى : شكرًا يقيدهما بعيدًا عن مجالات الترف المردى . .

إن هذه الطاقة أمانة استودعها الله تعالى إياهم .

ومن حفظ هذه الأمانة أن تعود إلى صاحبها وواهبها سبحانه وتعالى . . وهذه فحوى قضيتهم : فى مطاويها وفى مراميها.

ولكن . . كيف السبيل إلى تحقيق هذا الأمل ؟

لقد اختاروا أن يتجهوا إلى الأسوة الحسنة : إلى الرائد الذى لا يكذب أهله ﷺ . . منطلقين من قوله عز وجل : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب: ٢١] .

ويعنى ذلك أنهم لم يتخذوا قرارهم إلا بعد استفتاء أهل الرسول فهم أدرى بعبادته.

لكن ما هو القرار الذى اتخذوه ، ولم ينفذوه إلا بعد أن يسألوا؟

لقد كان القرار صعبًا . . مجحفًا :

لقد اتفقوا على ما يلى :

صيام النهار .

وقيام الليل .

وألا يناموا على الفُرش .

ولا يأكلوا اللحم .

ولا يقربوا النساء .

بل ويجبّون مذاكيرهم!!

يعنى : قرروا اعتزال الحياة . . وتجريدها من أهم عناصر القوة فيها .

وبعضهم قرر أن يبيع داره . . ليجعل ثمنها فى سبيل الله ، ثم يجاهد الروم حتى يموت . . فلقى ناسا . فنهوه عن ذلك .

وأخبروه خبر الرهط . . فراجع امرأته . وكان قد طلقها فعلاً .

ولاحظ أنهم سألوا زوجاته ، ولم يسألوه ﷺ : فهم يعرفون سلفا أنه من التواضع بالمكان المكين . . ومن ثم فلن يحدثهم بما يريدون . . مدفوعا أيضًا بشفقته عليهم . . والتى بها يأبى أن يحملّهم فوق ما يطيقون .

من أجل ذلك . . سألوا من شاهده . . وعن كثب : سألوا عن العبادة السرية . . وبعد أن سمعوا . . قرروا تنفيذ خطتهم . . بناء على أن عبادة الرسول وإن بدت أقل مما كنا نتوقع . . إلا أن له خصيصة غفران ذنبه العاجل والآجل . . والتى تجبر عمله . . دونهم . . الأمر الذى يفرض عليهم مضاعفة الجهد فى العبادة . . والتى بها يتحررون من عقدة النقص .

• • •

شبابنا إلى أين ؟

لا يزال حديثنا موصلا تعليقًا على موقف الشباب الذين شددوا فى العبادة على أنفسهم .

وعلى الفور . . أعلنوا هذا القرار الصعب : وهو التفرغ الكامل للعبادة والهروب من الحياة فلما سمعهم الرسول ﷺ . . كان هذا الحوار . . والذى بدأ بتقرير حقيقة اجتماعية على غاية ما تكون الأهمية . . وهى :

أنه سألهم أولاً : أنتم الذين قلتم كذا وكذا .

ذلك بأن كثيرًا من الناس يحكمون قبل أن يتبينوا . وقد يجىء حكمهم فى النهاية ظالما . . حين يركبون الموجة مع من يحدثهم فلا يدققون . . وهذا ما عالجه ﷺ ، لقد تأكد أولا . . فلما تبين له ﷺ أنهم الذين قالوا ما قالوا . . بدأت خطته المثلى :

لقد أقسم ﷺ أنه أتقاهم لله . وأخشاهم له . . يحدد بذلك أن هذه الغلو فى الدين :

أولا: مُذهب للطاقة التى سوف تتبدد يوما . . ليكون الغالى ذلك المنبت : لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى .

وثانيًا : إن أفضل العمل ما كان ديمةً : يداوم عليه صاحبه . . « لأن أفضل الأعمال أدومها وإن قلّ ».

وثالثًا : إن هذا النفر من الشباب هاربون من الحياة . . هاربون من المعركة . . إلى مغارة فى جبل أو مدخل . .

وتلك خطة تقر بها عين الشيطان : أن تحرم الأمة من طاقتها الفاعلة.

وماذا بعد اعتزال النساء ، والصيام ، والقيام .

هل هذا مما يغيظ الله به الكفار ؟!!

أبدًا . إنه لو تم . . لكان غاية الغايات عندهم : أن تذبل هذه البراعم المتفتحة: أن تتبدد طاقة الأمة لينفرد أعداؤها بالساحة .

وفى النهاية . . لفت أنظارهم إلى منهجه ﷺ فى العبادة . . والذى يقوم على محور التوسط :

التوسط : الذى نؤدى له حق الله . . تعظيمًا له سبحانه . . وحق العباد : شفقة عليهم.

وذلك هو معنى العبادة الحق . . لمن شاء أن يتخذ إليها سبيلا . .

ثم يجيء التهديد الرعيب: « **فمن رغب عن سنتي فليس مني** » .

لقد قلب هذا البيان النبوى حساباتهم كلها . . حين تبينت لهم معالم السنة التى طلبوها . . وأن من حاد عنها حرم من « جنسية » المجتمع الإسلامى.

ذلك بأن الغلو فى الدين على نحو ما قرر هؤلاء الشباب يحرم الأمة من نشاط خير عناصرها . ويجعلها تحت رحمة أعدائها .

أعدائها الذين يصنعون الصاروخ . . وينسجون لهم الثوب . . ليكونوا استقلالها فى خبر كان .

ولقد كان ﷺ فى حواره معهم على غاية ما تكون الحكمة : جاء فى فتح البارى: فبلغ ذلك النبى ﷺ . فحمد الله وأثنى عليه وقال: ما بال أقوام قالوا كذا . .

لم يشأ ﷺ [أن يعين أشخاصهم : رفقًا بهم ، وسترًا لهم] واضعًا بذلك من مبادئ الدعوة احترام شعور المخطئ . ورفض التشهير به حتى لا يكون رد الفعل هو العناد ومواصلة الخطأ .

وفى قوله ﷺ : « **إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له** »

فيه إشارة إلى رد ما بنوا عليه أمرهم وهو : أن المغفور له لا يحتاج إلى مزيد

فى العبادة . بخلاف غيره فاعلمهم : أنه مع كونه لا يبالغ فى التشديد فى العبادة أخشى لله . وأتقى . . من الذين يشددون.

وإنما كان كذلك :

لأن المتشدد لا يأمن من الملل . بخلاف المقتصد : فإن أسكن : لاستمراره. . وخير العمل ما دام عليه صاحبه [١] .

وهكذا يقذف الرسول بالحق على الباطل . . حين يكشف للشباب هنا تلك الرغوة العائمة عن الصريح الثابت.

ومن ثمرات الحديث ما نلخصه نقلا عن فتح البارى: وفى الحديث من الفوائد :

تتبع أحوال الأكابر للتأسى بأفعالهم.

وذلك مما يحمِّل الكبار فى المجتمع مسؤولية إضلال النشء وهدايتهم . . فليتقوا الله فيهم . . لأنهم بالنسبة لهم فى نقطة الضوء : بهم يقتدون . . وعلى طريقهم يمضون . . فلينظر الكبار ماذا يفعلون وماذا يقولون ؟

وفى الحديث : استحباب التمتع بطيبات الحياة الدنيا . . وبخاصة : النكاح.

وأنه لا يجافى الورع والتقوى، بل إن العدول عنه هو المجافى للورع والتقوى.

والمباح فى ذاته لا ضرر فيه .ولا ذم يلحق متناوليه . وإنما يعرض له ما يجعله ذميمًا منهيًا عنه . . كما يعرض له ما يجعله حميدًا ، مندوبا إليه . .

كان السلف الصالح يتناولون الطيبات ولا يتحرجون منها . . وخطر المباح إنما هو من ناحية ما يعرض له من التوسع فيه . والاشتغال به . ا . هـ .

وكيف . . والله عز وجل يقول : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

(١) فتح البارى كتاب النكاح.

أولادنا أكبادنا

يقول الشاعر العربي :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض

إن هبت الريح على واحد امتنعت عينى عن الغمض

وواجبنا هو : حماية هذه « الأكباد » الغضة الطرية . . حتى تستوى على سوقها : تعجب الزراع . ليغيظ الله بها الكفار : والوالد أصل الزرع :

يخرج من صلبه الوليد فرخًا صغيرًا . . يمده أصله بالماء والغذاء . .

حتى إذا شب الفرخ الصغير عن الطوق . . كان سندًا لأصله . حين يمده بما يقوى به من الهواء والضياء .

• • •

السهل الممتنع

وعملية التربية فى ذاتها سهلة . مقدور عليها . .ولكنها تمتنع فى نفس الوقت على من لم يقدرها قدرها . فلم يستعد لها .

وذلكم هو الذى لم يستشعر مسؤوليته إزاء وليده الذى هو بين يديه « أمانة ».

أمانة ينبغي إن يؤديها مستشعراً : أن قلب وليده الطاهر جوهرة نفيسة خالية من كل نقش وصورة.

وإذن . . ففى استطاعته أن يكتب فى هذه الصحيفة البيضاء ما يريد وما يكتبه بيده . . سوف يرتد إليه : خيرًا كان أو شرًا .

• • •

دور المجتمع

ويتحمل المجتمع مسؤوليته فى تربية اليتيم بخاصة : ذلك بأنه لما فقد العائل .

صار إحساسه بالغربة حاداً . . ومن ثم فحاجته إلى التربية أشد :

يقول الإمام محمد عبده شرحًا لقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ [الضحى: ٩] .

ولو علم الناس ما فى إهمال تربية الأيتام من الفساد فى الأمة لقدروا عناية الله بأمرهم فى كتابة قدرها . ولبذلوا من سعيهم . ومن مالهم فى إصلاح حال الأيتام كل ما استطاعوا .

ولو أحس كل واحد بأن الموت قريب منه . وأنه هدف ليناله : لا يدرى متى يأخذه عن ولده فيتركه ، إما غنيا يأكل ماله الأوصياء . أو فقيراً يستذله الأدنياء . .

لو علموا ذلك لتسابقوا إلى تقويم أمر اليتيم تسابقهم إلى اللذة والنعيم .ا. هـ.

سألت الرجل الذى قرر الزواج من أرملة أخيه المتوفى : هل تتزوجها . . لترعى أيتامها ؟

أم . . لهوى فى نفسك ؟!

وسكت الرجل فلم يجب . . وقلت له : حكِّم اليتيم . . كما تحكم ولدك . وامنعه من الفساد .

وأصلحه كما تصلح ولدك . . فإن فعلت كانوا أولادك مع أولادك من صلبك .

واقرأ قوله عز وجل : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩] .

حتى اللقيط : وحتى اللقيط الذى نبذه أبوه . . لا يؤاخذ بذنب من أتى به . . فإن حقه فى الحياة مكفول . . يقول عز وجل: ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٥] .

ومن معانى فى ذلك : استثمار كل طاقة لخدمة أهداف المجتمع . ووقايته من الانحلال . على ما يقول صاحب الظلال : ونظرا للفوضى فى علاقات الأسرة فى الجاهلية .

والفوضى الجنسية كذلك . التى تخلف عنها أن تختلط الأنساب وأن يجهل الآباء فى بعض الحيان .

فقد يسر الإسلام الأمر ـ وهو بصدد إعادة تنظيم الأسرة وإقامة النظام الاجتماعى على أساسها ـ فقرر فى حالة عدم الاهتداء إلى معرفة الآباء الحقيقيين . . أن يجعل مكانًا للأدعياء فى الجماعة الإسلامية : قائما على الأخوة فى الدين . والموالاة فيه : ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ .

وهى علاقة أدبية شعورية ، لا تترتب عليها التزامات محددة كالتزام التوارث، والتكافل فى دفع الديات ـ وهى التزامات النسب بالدم ـ التى كانت تلتزم كذلك بالتبنى ـ وذلك . كى لا يترك هؤلاء الأدعياء بغير رابطة فى الجماعة . بعد إلغاء رابطة التبنى .

وهذا النص : ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ ﴾ يصور لنا حقيقة الخلخلة فى المجتمع الجاهلى . وحقيقة الفوضى فى العلاقات الجنسية .

هذه الفوضى . وتلك الخلخلة فى المجتمع الجاهلى . . التى عالجها الإسلام بإقامة الأسرة على أساس الأبوة . وإقامة نظام المجتمع على أساس الأسرة السليمة .

وبعد الاجتهاد فى رد الأنساب إلى حقائها . . فليس على المؤمنين من مؤاخذة فى الحالات التى يعجزون فيها عن الاهتداء إلى النسب الصحيح ا . هـ .

• • •

آباء .. أوفياء

وقد كان هناك آباء .. على مستوى المسؤولية : ومنهم « ابن المعلى » والذى نصح ولده يوما فقال له : تشبه بأهل الفضل تكن منهم ، وتصنع للشرف تدركه.

واعلم أن كل امرئ حيث يضع نفسه ، وحسبك الحديث الوارد « من تشبه بقوم فهو منهم » .

قال بعض الحكماء :

أعلموا أن مجدكم الذى بناه آباؤكم .. متى لم تعمروه .. فأفعالكم خراب.

قال الشاعر :

المجد إن خان التليدَ طريفُـــه للمدعى : فخرابه خـوان
حسب الفتى عارًا به : ألا يـرى إلا بذكر قديمــه يـــزدان
وكفاه نبلا أن يكون لذاتـــــه إن شال وزن قديمه رجحـان
وأتم ذلك مفخـرًا : ما طابقت فى طينهن أرومها أغصـــان

إنها التربية الاستقلالية .. التى لا تجعل من الولد مجرد تكرار لحياة أبيه.. وإنما هو من بعده يحمل رايتـه .. ولكن بشخصيته المستقلة التى يجدد بها ذكرى أبيه ليكون له من بعده عمرًا ثانيا ـ بل ربما حقق لنفسه أعمارًا .

• • •

إلينا أيها الحائرون

حاول الصبى اليابانى . . وكان عمره أحد عشر عامًا . . حاول أن يسأل أستاذه فى أمر ذى بال . .

ولما لم يستأذن التلميذ فى السؤال . . عَدَّها الأستاذ إهانة له . . فأهانه وعلى الفور اتخذ التلميذ القرار الصعب وهو : الحكم على نفسه بالإعدام شنقًا !!

وفعلا نفذ الصبى الحكم . . على ما كان فيه من قسوة وتسرع !

وفى الوقت الضائع . . قرر ناظر المدرسة استصحاب المدرس المعتدى إلى بيت التلميذ . . ثم قدما لوالده اعتذار المدرسة كلها . .

وكان على المدرس أن يستشعر فى تلميذه روح الطموح . فيفتح صدره لهمومه . .

ولكن بعض المدرسين قد تأخذه العزة بالإثم . . ليكون ممن عناهم الشاعر القائل :

ولا يليق بمن يرنو لمدحكمو أن ينسخ الحمد قبل الإذن بالحمد

موقف الإسلام :

يؤكد الإسلام ضرورة الصبر فى التعامل مع طالب العلم . .

ومن مظاهر الصبر هنا :

إرخاء الحبل لطالب العلم . . ليسأل . . وعن هذا الطريق . . لا تتنامى فقط معارفه . . وإنما مع هذا . . وفوق هذا . تتكامل شخصيته ليكون من بعدنا امتداد حياتنا . .

فإذا أخطأ التلميذ . . كان الضرب أحد الوسائل المجدية فى رد التلميذ إلى الصواب . شريطة ألا يشوه وجهًا . ولا يكسر عظمًا . .

ثم استبعاد « التثريب » أو التوبيخ والذى قد يتحمل الصبى أثر الضرب . لكنه يرفض التوبيخ : فالعذاب الأليم أيسر من العذاب المهين . . من حيث اتصال « التوبيخ » بكرامة الإنسان .

وهذا هو الذى جرأ ولدًا أن يواجه أباه بهذا الإنذار ردًا على إهانته له : قال الولد : إن عظيم حقك يا أبت علىّ . . لا يبطل حقى عليك !!

منطلق التربية الحديثة:

ونظرية التربية الحديثة تأخذ هذا الاتجاه الإسلامى : إنها تتجنب التوبيخ . . وإن أقرت « الضرب » فى حال الضرورة القصوى .

وقد أثبتت الأبحاث العلمية أن التوبيخ بالكلام لا يقل ضررًا عن العقاب بالضرب لأنه يحدث الآثار الضارة نفسها التى يحدثها الضرب فى نفسية الطفل.

فقد يلجأ كثير من الآباء والأمهات إلى عقاب أطفالهم عند الخطأ بالتوبيخ أو بالكلمات الجارحة اعتقادًا منهم أن هذا الأسلوب أفضل من الضرب بالنسبة لنفسية الطفل . ويؤكد الدكتور سيد صبحى أستاذ الصحة النفسية : أن معظم الأطباء النفسيين يحذرون من ضرب الأطفال لاعتقادهم بأن الأطفال الذين تعرضوا للضرب فى طفولتهم يفقدون ثقتهم بأنفسهم وينعدم لديهم الإحساس بالأمان ، ولكن للأسف لم يهتموا كثيرًا بإجراء أبحاث عن الآثار المترتبة على توبيخ الأطفال بالكلام حتى جاءت آخر دراسة ، وأكدت أن احترام الذات يتضرر كثيرًا عند التعرض للعقاب بوسيلة أو بأخرى لأننا عندما نعاقب الأطفال فإننا نعطيهم الإحساس بأنهم لا قيمة لهم ، وينصح الدكتور سيد صبحى والقائمون على الدراسة الآباء والأمهات الذين يرغبون فى إقامة علاقة قوية مع أبنائهم ألا يكثروا فى تعنيفهم وتوبيخهم وأن يعالجوا المواقف التى يسىء فيها الأطفال التصرف بالتروى ورؤية الموقف من جميع جوانبه ، لعل هناك أسباب قد لا ترجع إلى الطفل وحده ، فقد يشترك الأبوان أو أحدهما معه . كما أنه يتعين على الآباء أن

يقتنعوا بأن العقاب يجب أن يكون على قدر الخطأ الذى فعله الطفل ولا يبالغون فى رد فعلهم ولا ينسوا أن التوبيخ والتعنيف لا يقل ضررًا عن الضرب .ا. هـ.

من مجالس العلم:

وإذا كانت الأشياء تتميز بأضدادها ، فإننا نواجه هذا الموقف القاسى . . بواحد من دروس التربية الإسلامية تتأكد به حاجة البشرية إلى الإسلام فى هذا الزمن الرديء : كان « حذيفة بن اليمان » رضى الله عنه أسعد الناس بصحبة الرسول ﷺ . لكن الذى كان بنغص حياته هو : ماذا بعد وفاة الرسول ﷺ ؟ كيف تكون صورة الحياة ؟

وكيف يتصرف الأحياء ؟ يقول حذيفة رضى الله عنه : كان الناس يسألون رسول الله عنه الخير وكنت أسأله عن الشر : مخافة أن يدركنى.

قلت : يا رسول الله : إنا كنا فى جاهلية . فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟

قال : « **نعم** » .

قلت : فهل بعذ هذا الشر من خير ؟

قال : « **نعم . وفيه دَخن** » .

قلت : ما دخنه ؟

قال : « **قوم يستنون بغير سنتى ، ويهتدون بغير هديى : تعرف منهم وتنكر** ».

قلت : وهل بعد ذلك من شر ؟

قال : « **نعم . دعاة على أبواب جهنم : من أجابهم إليها .. قذفوه فيها** » .

قلت : يا رسول الله : فما تأمرنى إن أدركنى ذلك ؟

قال : « **تلزم جماعة المسلمين وإمامَهم** » .

قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟

قال : « **تعتزل تلك الفرق كلها .. ولو أن تعض على أصل شجرة . حتى يدركك الموت . وأنت على ذلك** » .

والشر من بعد الخير هو :

ما وقع بين الصحابة من خلاف .

وكمن معانى الدخَن : ظهور الفرق الضالة . والمذاهب الهدامة .

أما الدعاة الواقفون على أبواب جهنم . فهم : ناس من جلدتنا . ويتكلمون لغتنا :

يدعون إلى أفكار مستوردة .. فإنها شر : وشر ما فيها : أن يتبناها أناس مسلمون مثلنا ! ويدعون الناس إليها .

• • •

الحل الإسلامى

والحل الإسلامى هنا هو :

لزوم الجماعة : ففى هذا الزمان الذى تتعدد فيه المذاهب فإن الحل هو : الانتماء إلى الجماعة التى لا تعرف إلا بالإسلام.

كالماء الذى لا تكون الطهارة إلا به ، فإنه هو الذى يصدق عليه اسم : «الماء» إنه : « الماء » هكذا . بلا قيد .

وليس هو ماء الزهر . المقيد .

ويكون الأنتماء للجماعة « وإمامهم » ولم يقل : زعيم ولا حاكم ..

لأنه لازعامة ولا حكم .. إذا لم يكن مقيمًا لأركان الشرع .

• • •

من وسائل التربية .. المجدية

تمهيد :

صحيح ما يقول علماؤنا وهو :

[أن التلميذ يرى مدرِّسه : بعينين . . ويرى وجها واحداً] .

لكن المدرس يرى : ألف عين . وألف وجه : وإذن فلا جرم يحفظ التلاميذُ . . وهو يضيع .

ويذكرون . . بينما المدرس ينسى :

وبهذا القياس فالمدرس الذى أهان تلميذه . . فقتل نفسه تحت ضغط إحساسه بالهوان ـ وهو ما أشرنا إليه فى الحلقة السابقة ـ هذا المدرس معذور إلى حدٍ ما . . حيث كان فوق طاقته أن يدرك حق هذا التلميذ فى السؤال . . فى خضم هذا العدد الهائل من تلاميذه . .

ولكنه غير معذور حين حاسب تلميذه حسابا عسيراً . على موقف ربما كان فاتحة خير للمجموعة كلها . . بقدر ما كان تعبيراً عن همٍّ تجيش به نفس صبى تائه يتلمس طريقه إلى حيث الأمان . . فلما جاءه وجد الهوان !

وسائل بديله:

ولقد كان هناك وسائل بديلة . . تصحح ما حدث من تجاوز ومن هذه الوسائل ما يلى :

فى بلد أجنبى : اكتشف مصحح المادة أن الطالب صاحب ورقة الإجابة قد غش من زميله . أو هما معا تبادلاً الغش .

فماذا فعل المدرس ؟

لم يتحمل مسؤولية الموقف وحده . . فقرر رفع القضية إلى إدارة المدرسة والتى قامت بواجبها بتأديب الطالبين . . تأديبا يذكرٌ . . ولا يفجرٌ لقد أرسلت

المدرسة إلى الطالبين ورقة إجابة واحدة . كتب عليها .

اقتسما هذه الدرجة بينكما : وكان ذلك يعنى « رسوبهما » معا . . وفى هدوء . . وكان درسًا بليغًا فى بيان عقبى الغش الذى لن يماروا فيه من بعد!

وفى دولة متحضرة : ادّعى أربعة طلاب أن عجلة السيارة قد انفجرت فى الطريق . . وهذا هو الذى حال بينهم وبين حضور الامتحان ؟

ولكن إدارة المدرسة لقنتهم درسًا عمليًا . . ظهر به المخبوء ، وتأكد به عنصر الردع . لقد قررت إدارة المدرسة وضع كل طالب منفردًا فى حجرة خاصة .

ثم وزعت على كل واحد منهم ورقة الإجابة . . ومعها سؤالان :

الأول : سؤال فى نفس المادة التى تخلفوا عنها . . وعليه عشرة فى المائة (١٠٪) من الدرجة النهائية .

والسؤال الثانى : وهو الأهم : كان على النحو الآتى أى إطار فى السيارة هو الذى انفجر ؟! ولما كانوا كاذبين ابتداء . . اختلفت إجاباتهم!

وكان هذا الاختلاف سبيلا إلى « وحدة » الجزاء وهو : رسوبهم جميعا ، رسوبا مشفوعًا بعتاب رقيق مؤثر وهو : إن هذا الرسوب أقل ما يجب إزاء طلاب، لم يكذبوا فقط وإنما كذبوا . . وعلى أساتذتهم . . وإذن فهم على من سواهم أجرأ .

وتم درس التأديب هكذا : فى صمت . . وبلا تشنج !

ذلك بأنه إذا نحّى الانفعال . . اتسعت الرؤية . وإذا اتسعت الرؤية . . ضاقت العبارة . . فلا تثريب . . ودق التأديب فلا تعنيف.

وإذا كان الفنان عبد الوهاب يزهو بأنه يستطيع تلحين « أى كلام » فلماذا لا يتباهى المربى بأنه يستطيع التعامل مع « أى تلميذ »؟!

عود على بدء:

ونعود على بدء . . لنعلق مرة أخرى على المشهد الذى سأل فيه التلميذ أستاذه . . فأهانه . فانتحر !

وبداية نقرر ما يدعو إليه الإسلام من ضرورة فتح صدورنا لأسئلة التلاميذ . . عبر حوار يزداد به التفاهم . . وبالتالى يمتنع التصادم .

وضربنا لذلك مثلا : موقف الرسول ﷺ : والذى دخل فى حوار طويل مع حذيفة رضى الله عنه . والذى شفى الله صدره بجوابه ﷺ.

ثم نستفتى المجربين من المربين والذين يقررون ما يلى : أن التلميذ قد يكون موهوبًا . وموهبته تلك تمنحه الإحساس بأنه « متميز » .

ويعنى ذلك التميز أنه إنسان غير عادى ، بمعنى أن من حوله لا يفهمونه . . لأنهم ليسوا فى مستواه . .

ومن ثم . . قد يلجأ إلى السؤال الغريب . . أو السلوك المريب إعلانا عن نفسه . . وتنويها بها ! وقد يزعج ذلك « المربى » . . والذى قد يلجأ إلى «الترهيب » ردعا لتلميذ يحس بالاغتراب فى بيته لا تقدره قدره .

وإذا يحدث من « المدرس » الذى ليس والد هذا لتلميذ ، فكيف يحدث من والد مع ولده وهو بضعة منه ؟!

وهذا هو الذى حدث بالفعل حين تخلى آباء عن أبنائهم فأخرجوهم من حياتهم بهذا الجفاء . . ليعينوا أعداءنا على تحقيق ما عجزوا عن تحقيقه بقوة السلاح .

قال أحد هؤلاء الآباء . . وقد سئل عن سبب تأخير زواجه إلى سن متأخرة؟ قال : لأعاجل أبنائى باليتم . . قبل أن يعاجلونى بالعقوق !!

وهكذا يعاقب أبناءه ـ مع سبق الإصرار والترصد ـ يعاقبهم بذنب لم

يرتكبوه . .

مع أن الوالد « الأكبر » أقدر على حسن أعداد ولده من الآباء الشبان .

ولكن الإحساس الميت بالمسؤولية عن النشء .

والغفلة عن طبيعة النفس الإنسانية . وهى : أنها مجبولة على طبائع فاضلة . .

وهذه الطبائع وإن كانت محمودة . . لكنها فى حاجة إلى التهذيب . لا إلى التثريب . خوفًا عليها من أضداد هذه الفضائل . . والتى يحاوب الشيطان والهوى . . التمكين لها فى أنفسهم .

إن الأرض ـ وإن كانت خصبة ـ فإنها لا تستغنى عن الماء ينعش عناصر النماء فيها . .

وكذلك أولادنا فى مقتبل أعمارهم :

إنهم فى حاجة إلى كل ذريعة . . تلزمهم بأحكام الشريعة . . وإلى كل وسيلة . . تتأدى بهم إلى الفضيلة .

• • •

أولادنا يدافعون عن أنفسهم

رأت عيناى . وسمعت أذناى هذا الحوار الساخن :

قال الأستاذ لتلميذ الفتى : المزهوّ بشبابه . . الآخذ بالعزائم فى كل ما جاءت به الشريعة الغراء . . والذى يريد ـ بالقوة ـ فرض رأيه . . فلا يكون لغيره اعتبار إلا إذا سار على دربه . والتزم بوجهة نظره؟

قلت له : ما رأيك ـ دام فضلك ـ لو مارس « الممرض » وظيفة الطبيب؟

وقبل أن يجيب عاجلته قائلا : كذلك « أعشار » المتعلمين اليوم . . و «أرباعهم » الذين يمارسون دوراً لم يؤهلوا له : لسوف يشكلون عبئا على الدعوة التى تناشدهم أن يتركوها للمتخصصين !

إن بعض الشباب اليوم يريد أن يفرض إرادته على الحياة : يأكل ما يشاء . . والحياة طوع يديه . .

ثم يطيش . . ونحن نصبر عليه .

لقد أعطيناه الأمان .. فماذا حدث ؟

لم يعد خائفاً . . ولا غريبًا كما كان وإنما صار فى نظر نفسه كما قال الشاعر :

وإنما واحد الدنيا وسيدها من لا يعوّل فى الدنيا على أحد

لقد صار أمة وحده ، لم يعد واحداً من المؤمنين . . ولكنه فى نظر نفسه صار أمير المؤمنين : بل نصب من نفسه خازنا للجنة يدخل فيها من يشاء . . ويمنع من يشاء !

ثم يستطرد الأستاذ قائلا ناقلاً عن أحد الباحثين قوله :

وبعد ذلك ينتقل الشاب الغريب المغترب الخائف من نفسه الواثق من الآخرين، إلى مرحلة شديدة التناقض!

فهو الشاب الغاضب الساخط على كل أنواع السلطة ، سلطة الأب والأم والعسكرى والمدرس

والذى لا يريد أن يتحكم فيه أحد أو يحتكم إلى أحد .. لأنه حر يريد أن يكون حر الرأى والقرار .. ومن هنا أنسحب من المجتمع يواجهه ويقف ضده ، دفاعًا عن حريته وكرامته .. ورفضًا للقوالب الفكرية والاجتماعية وطلبا لما هو أكثر احترامًا ولما هو أبقى ..

وفجأة تجد هذا الشاب قد استسلم تمامًا لواحد آخر .. جعله يتصرف فى فكره وفى حياته . ويرسم لها الطريق إلى حاضره ومستقبله .. ويتجه إلى ماضيه أيضًا يعيد رسمه .

شىء عجيب : إن هذا الشاب الذى رفض القيود عندما جاء إلى المدينة أو إلى العاصمة نراه قد ارتضى ما لا نهاية له من القيود .. فهو المتعلم يفضل واحدًا جاهلاً مرشدًا له وهاديًا وخبيرًا وأميرًا .. وهو الذى لم يطع لأمه أمرًا ، ولم يطق من والده رأيا ، أصبح لا رأى له ولا أمر .. ولا تفكير ولا تدبير .. وإنما نزل عن كل حقوقه لواحد آخر .. ورأى فى الاستسلام سلاما وإسلامًا . ورأى فى هذه الطاعة عظمة وكبرياء . كيف ؟ هذا ما حدث ألوف المرات . فيقال له إن الناس جميعًا كفرة بالله واليوم الآخر . فيصدق ذلك . مع أن من بين هؤلاء الكفرة من يعرف فى الدين أضعاف الذى يعرفه ومن بينهم مئات الألوف يفهمون القرآن وملايين يحفظون القرآن . ومنهم علماء وأساتذة وفقهاء .. ولكنه يراهم كفرة لأنهم جهلة بحقيقة الدين الذى يسمعه ليل نهار من شباب صغار مثله ، وربما أصغر ؟!

ويرى أن واجبة هو هداية هؤلاء الناس بالقوة ـ مع أن ذلك ضد مبادئ الإسلام . ويرى أن ساعة الحساب قد دقت ، وإنها دقت ثم توقفت انتظارًا لما سوف يطلقه من نار على مجتمع الكافرين ..

وتتعاظم هذه المفهومات الخاطئة لأن أصحابها يتعاطونها سرًا وخوفًا وأنهم قد استسلموا تمامًا . . وكل ذلك حدث بعيدًا عن عيون الأغلبية وأذانها وأيديها وقبضتها . .

ولا تزال أفكارهم تتضخم وتتورم حتى تصبح سدًا عاليًا بينهم وبين الأغلبية . . ويكون السد العالى جامعًا لهم مانعًا لغيرهم . . ويكون العداء فى أعلى درجاته . فلا يبقى إلا أن يزيل أحدهما الآخر ! . هـ .

قال الفتى لشيخه : هذا حديث عن « شاب » وليس عن « الشباب » عامة وكأنك تريد أن تحمّل شباب اليوم ما لا يتحملون . .

والحديث عن الشباب ومشاكله فى العالم الإسلامى يحتاج إلى تبيين أن ظاهرة التطرف ليست ظاهرة إسلامية بل هى ظاهرة عالمية . ولقد سمعنا جميعًا عن ظهور فئات متطرفة فى أوربا وأمريكا بعد الحرب العالمية كظاهرة الوجودية وكذلك ظواهر التطرف بين الكاثوليك والبروتستنت والمتعصبين فى المانيا وأمريكا والألوية الحمراء بإيطاليا وفئات التطرف للجيش الأحمر اليابانى ، والسيخ فى الهند والحكاية المشهورة بالانتحار الجماعى فى غويانا . . إلخ . ويحدث يوميًا من الشباب احداث فى العالم لا يصدقها عقل . ولا شك أن مجتمعنا الإسلامى بسبب انفتاح نوافذه على الغزو الفكرى والفراغ الهائل وضعف الإيمان ينعكس عليه ما يجرى فى العالم ، فموجة التطرف وردت علينا بأشكال مختلفة كالتطرف الشيوعى والتطرف العلمانى ممن تأثروا بأفكار دخيلة اعتنقوها بغلو إلى حد حربهم بكل الوسائل ضد الإسلام . والإصرار بكل الوسائل المتطرفة إلى حد القتل لفرض هذه التيارات فى مجتمعنا . وقد تختلف هذه الوسائل . والتطرف الدينى ظهر فى وسط موجة التطرف هذه كردة فعل لذلك التطرف الذى عبر عن نفسه بالعنف ورفض الحوار والتعصب الذميم لأفكار بشرية . ! . هـ .

وما يزال حديث « الشاب » موصولاً : دفاعًا عن الشباب الذين كان لهم دورهم فى ترقية الحياة.

جاء فى تفسير ابن كثير [١] .

قال ﷺ لأصحابه : « **أى المؤمنين أعجب إليكم إيمانًا ؟** » قالوا : الملائكة ، فقال : « **ومالهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟!** » ، قالوا : فالأنبياء . فقال : «**ومالهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم ؟!** » ، قالوا : فنحن ، فقال : « **وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ولكن أعجب المؤمنين إيمانًا قوم يجيؤون بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها** » .

وإذا كان ذلك شأن الذين آمنوا به ﷺ دون أن يروه . . فلا شك أن نسبة العجب تكون أربى إذا كان المؤمن شابا . تناوشه الشهوات من كل جانب . .

ولذلك روى : « **عجب ربك من شاب ليست له صبوة** » .

ومه انتفاء الصبوة كانوا مجاهدين : حملوا أرواحهم على أكفهم : فمارسوا القتال صغارًا . فاكتسبوه خبرة أججت فى صدورهم شعلة الحماس . . فتنافسوا فيه . . ثم كان لهم دورهم على المستوى الإدارى والاجتماعى :

وخذ أمثلة على ذلك :

فى السنة الثالثة عشرة للهجرة تولى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد قيادة إحدى الجماعات المقاتلة .

وكان سنه إذ ذاك ثمان عشرة سنة . وقد استشهد سعيد بن خالد بن سعيد بن العاص استشهد شابا (قبل اليرموك).

عهد « عمرو بن العاص » والى مصر . . عهد إلى « الفتى » « عقبة بن نافع» بفتح المنطقة المتاخمة للحدود المصرية الغربية .

وكان « عمير بن سعد » ضابط الاتصال بين أبى بكر من ناحية . . وبين خالد ابن الوليد .

---

(١) (٤/ ٣٠٥) رواه البخارى .

وكان « البراء بن عازب » ممن ردهم الرسول ﷺ فى غزوة أحد لصغر سنه .

وفى فتح إفريقيا : كان الذى قتل قائد الروم « جرجريوس » شاب ملثم هو : عبد الله بن الزبير ».

والذى قسم الغنائم شاب هو : عبد الله بن العباس .

وكان لهؤلاء الشباب زملاء من الشباب : دخلوا بلاد النوبة .

وفرضوا الجدية . وأمنوا الحدود الجنوبيه !

وهكذا لم يكن أبناء القواد الكبار بمأمن من الموت . . بل كانوا قبل آبائهم ، على خط النار .

الشباب والحكم المحلى:

أواخر السنة العاشرة . . أسند ﷺ ولاية « نجران » إلى « عمرو بن حزم الأنصارى وكان فى السابعة عشرة من عمره ومع ذلك تحمل مسؤولية الحكم والتى كانت تعنى :

حكم الناس ، وتعليمهم ، وأخذ الصدقات:

وتولى « عمير بن سعيد » من قبل « عمر » دمشق . وحماه.

وقد ولّى « عثمان » « عبد الله بن عامر » سجستان وهو دون العشرين رضى الله عنهم أجمعين.

وكان « عبد الله بن عامر » قائد حركة الفتوح فى المشرق.

وقد أدى العمرة بعد ما فرغ من أداء واجبه فى الجهاد [1] . .

وذلكم هو الشباب : إنهم هم القاعدة . .

أما الاستثناء . . فهم أولئكم : الذين يذهبون إلى الحرم . . فيحتلونه . . بلا رصيد من الجهاد ؟!

(١) راجع : فتوح مصر لابن عبد الحكم (١٢٨ ، ١٢٩).

حرمة البيوت

يقول الله عز وجل : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢٧، ٢٨] .

تمهيد :

كان الرجل إذا سئل عن أجمل مكان فى الدنيا . . فكان يجيب : أجمل مكان فى الدنيا هو : بيتى !

ذلك بأنه مملكته التى يكون فيها على سجيته . مستورًا بلا رقيب !

لقد جعل الله البيوت سكنا : يفيء إليها الناس . فتسكن أرواحهم . وتطمئن نفوسهم . ويأمنون على عوراتهم وحرماتهم . ويُلقون أعباء الحذر والحرص المرهقة للأعصاب .

والبيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرمًا آمنًا ، لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنهم . وفى الوقت الذى يريدون ، وعلى الحالة التى يحبون أن يلقوا الناس عليها [١] .

وقد كانوا فى الجاهلية يهجمون على البيوت . . فلا يستأذنون . . فيكشفون من أسرار البيوت : عورة تثير فيهم شهوة . . أو وضعا لا يجب أهل البيت أن يراه أحد !

فلما وقع « حديث الإفك » . . حان الوقت إلى وضع ضوابط الدخول على البيوت . . فرارًا من آصاء ذلك الهجوم على بيت هو فى الواقع ملك لأصحاب البيت . ومملكتهم التى لا يحل لأحد دخولها إلا بإذنهم بل ورضاهم . . وإلا كان

---

(١) الظلال .

الدخول غصبا !

أهمية الاستئناس :

أما الاستئناس فهو : استعلام . . واستكشاف . . أو « إستشعار » عن قرب يعلم به الضيف ما إذا كان مأذونا له بالدخول . . أم لا .

وإذن : فلا يكفى مجرد الاستئذان : خروجًا من العهدة .

إنما يقوم القادم : السلام عليكم . . أأدخل ؟

ويقول ذلك ثلاثا . . رعاية لمشاعر أهل البيت وظروفهم : فإنهم فى المرة الأولى . . يسمعون . .

وفى الثانية : يستعدون .

وفى الثالثة : يأذنون . . أو لا يأذنون :

فقد يكون أثاث البيت بسيطًا . .

وقد يكون جيدًا . . لكنه غير مرتب .

أو يكون الطعام مما يراد إخفاؤه . . وبخاصة إذا كان الداخل بالذات من القادحين لا من الناصحين .

ولا حظ صيغة الجمع فى الآية الكريمة:

﴿ لا تَدْخُلُوا ﴾ لتدرك أن الجماعة القاصدة بيتًا ينصح بعضها بعضًا . . وقلما تجتمع على منكر . . ومع ذلك فلابد من أن تستأنس !

وإذن : فاستئناس الفرد أولى . . حيث لا يؤمن عليك العثار وحتى إذا كان أعمى . . فإن من العورات ما يكتشف بحاسة السمع !

صفة الاستئناس :

أولاً : ألا يواجه الباب .

ثانيًا : بلغة اليوم يدق « الجرس » بلطف . .

وقد كان للعلماء حرمتهم فكان الطالب :

أ ـ يجئ في الوقت المناسب .

ب ـ فإذا دق الباب . . دقّه بأظافره . . احترامًا .

بل قد يمكث لدى الباب فى مهب الرياح السافية . حتى لا يزعج استاذه . . محققا بذلك مصلحة الطالب الذى لن يفيد من أستاذه إلا إذا أخذ حظه من النوم . . فإذا هو معتدد المزاج !

أما ما يحدث اليوم من قرع الباب بعنف . والصياح بصاحب الدار فهو حرام كما يقول « الرازى» .

من الذى يملك الإذن:

يملك الإذن:

أ ـ صاحب الدار .

ب ـ أو الخادم .

أما الصغير . . فلا يملكه .

ولعل بناء الفعل للمجهول فى ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا ﴾ . . لعله يعنى كما يقول علماؤنا : يعنى : بناء البيوت على الستر . . وينبغى أن تظل كذلك . . حتى وإن قيل : ارجعوا . . صراحة!!

أبعاد الخيرية : أما الخيرية التى تجيء ثمرة الالتزام بهذا الأدب العالى . فمشار إليها بقوله عز وجل : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

يقول القضاعى : لتكون حالكم حال من يُرجى أن يتذكر :

يتذكر: برجوعه إلى نفسه . . عند سماع هذا النهى . فيعرف : أن ما يسوؤه

من غيره . يسوء غيرَه منه . فيفعل ما يجب أن يفعل معه . خوفًا من المقابلة ؛ لأن الجزاء من جنس العمل .

بوابة الحياء :

وكفى بالحياء خيراً : أن يكون على الخير دليلاً . . وإنه لهو الخلق العظيم الذى يجب أن يتشح به المسلم فى معاملته لغيره . .

ولقد كان هذا الخلق أصيلاً فى جبلة سلفنا الصالح .

ومنهم ذلك الرجل الذى كان يقول : كنت أستحم فى بيت مظلم فكنت أحنى صلبى حياء من ربى !

واقعنا اليوم :

قد نهجم على البيوت . . وقت الطعام . . أو وقت المنام . فإذا لم يطعمونا . . شهرّنا بهم!

وإذا لم تستح فاصنع ما شئت !

• • •

من عقوق الآباء للأبناء

يقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦] .

تستهدف خطة الإسلام المثلى فى تكوين الأسرة : زرع النخوة فى الرؤوس . . وبث العزة فى النفوس . .

وعلى خط مواز . . كانت هناك محاولات يهودية لإجهاض هذه الخطة الراشدة . . وعلى كل الجبهات :

« فرويد » يفسد الأخلاق .

و« ماركس » يفسد المال .

و« دركايم » يحطم الأسرة .

وإذا كان أمر أعدائنا كذلك . . فماذا فعلنا ؟

أحيانا . . نخدم أعداءنا . . من حيث لا ندرى !

وذلك . . عندما يتطوع آباء وأمهات . . بتصرفات تتحقق بها أهداف أعدائنا . . مدفوعين بالأنانية الباحثة عن متعة النفس . . ولو على حساب أفلاذ أكبادنا :

يقول أحد الآباء وقد سئل عن ولده :

بلاء لا يقاومه صبر . ونعمة لا يجب بها الشكر !

ويقول آخر : لا مرحبا بمن إن كنت غنيًا . . أذهلنى ، وإن كنت فقيرًا . . أتعبنى .

أهتم بفقره بعد وفاتى . . ولا ينالنى منه سرور فى حياتى !

وهكذا . . تقابل النعمة بالكفران . . فلا تبقى فى النفوس بقايا رغبة فى تربية هذا الجيل . . الذى يفتقد العواطف البديلة والنبيلة .

وبعض الأمهات على ذات الطريق:

وإذا كان ما يقول الوالد منطقيا ـ فى نظره طبعًا ـ عندما يحس بمسؤوليته إزاء ولده الذى يحمل اسمه . .

إذا كان الأمر كذلك . . فما بال الأم التى كنا نسمع ونرى من حبها لولدها أنها قد تدعو عليه بالمكروه . . لكنها تكره من يقول : آمين !

ما بالها تختار لولدها عروسا . . فإذا بدأ شهر العسل بدأت معه المتاعب ! بما تثير من الغبار . . غيرة من تلك « الأنثى » التى اغتصبت ولدها منها ؟!!

ومع أن الوليد « الحفيد » يمكن أن يملأ فراغ حياتها حين يكون هذا الحفيد مكان والده . . فإن الأم تثيرها حربا شعواء . . ولو انهدم المعبد على كل من فيه!

وإذا بك أمام عقول حائدة . . وأجسام خائرة . . فى حاجة إلى أن تجدد لها ما اندرس . وتوضح لها ما التبس . . عن طريق النصيحة التى ننظم بها الموجود . . وننبه على المفقود:

وليس من قصد الحق فأخطأه ، كمن قصد الباطل ابتداء . .

إنها الأنانية :

ونذكر هذا الصنف من الآباء والأمهات بما قاله « ابن عطاء الله » فى حكمه: اخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك : لتكون لنداء الحق مجيبًا . ومن حضرته قريبًا » :

وذلك يعنى : التخلص من كل صفة ذميمة فى مقدمتها الأنانية التى تقول : أنا ومن بعدى الطوفان!

وأن تجعل مراقبتك لمن هو ناظر إليك . وشكرك لمن تدوم نعمه عليك . وطاعتك لمن هو مستغن عنك ، وخضوعك . . لمن أنت محتاج إليه . . واتق الله في أمانة ائتمنت عليها . .

ثم تحس مشاعرك . . لتسمع صوت الفردية التي تقف من وراء هذا الظلم المبين . . والتي تعاقب به ولدك . . والذي سوف يرد لك الجميل من نفس النوع: غدا أو بعد غد وإن غدا لناظره قريب .

يقول « الزيات » في مقال تحت عنوان : « الفردية علتنا » :

لا تزال الفردية أبين الصفات المميزة للعرب . ولا تزال هذه الصفة أبين ما تكون في مصر :

فالسياسة هنا وهناك . . لا تكاد أحزابها تقوم على فكرة جامعة . ومبدأ متحد ، وإنما هي : فرد يبنه في الخير . أو ينبغ في الشر . فتأتلف عليه الأفراد المختلفون . فيكون منهم مكان « النظام » في العِقد : يمسكه ما دام حيًا قويًا . .

فإذا انقطع . . ذهب الحَب أباديد .

والاقتصاد هنا وهناك : جهود فردية تخشى المنافسة .

وتتعجل الربح . وترضى بالنصيب الأخس ؛ لأن الفردية قتلت فينا الثقة . . فلا نساهم في رأس مال .

وأضعفت شعورنا بالخير العام . . فلا نشارك في مشروع .

وانتشر بيننا داء الحسد . . فلا نستقيم على رأى جميع .

فإذا رأيت الأحزاب تتناقض ، وتنحل . ومشروعات الشباب تضعف وتعتل . والإدارة تسوء وتختل . . فابحث علل ذلك ـ غير مخطئ ـ في هذه الفردية ، حين تتعلى . . فتستبد . أو حين تتدلى . . فتستأثر . ا. هـ .

وهو نفسه ما تريده بعض الأمهات المستبدات . . مدفوعات بموجات من

«الغيرة» لا مسوغ لها .

ومن عقوق الآباء للأبناء:

من صور هذه العقوق تفضيل الولد على البنت . . هذا الخلق الذى يجدد به بعضنا ما كان عليه الحال فى الجاهلية :

إن تفضيل الولد على البنت يسضر بها وبه وبالمجتمع ، فهو يضر بالبيت لأنه يشعرها بالدونية ويفقدها ثقتها فى نفسها وهذا يؤثر تأثيرًا سلبيًا على قدراتها العقلية والوجدانية فى تعاملها مع أولادها فى المستقبل ، فعندما تصبح أما فإنها لن تتمكن من تنشئة أبنائها فى مناخ يتصف بالصحة النفسية طالما هى محرومة منها . كما أن شعورها بالدونية يؤثر على مكانتها فى المجتمع فتميل إلى الانعزالية والانطوائية . . ومن جهة أخرى تفضيل الولد على البنت يضر بالولد أيضًا لأنه يشعره بالغرور والتكبر والأنانية والتسلط على الجنس الآخر ، وكلها صفات سلبية سيئة تؤدى إلى زيادة السلوك المنحرف والعنف ، كما أن التفضيل يرسخ فى ذهن الولد أنه الجنس الأقوى والمتفوق على الجنس الآخر ، وينمو هذا الشعور عنده ويعكسه على علاقته بأمه وأخته وهو صغير ثم يمتد بعد ذلك لزوجته مما يؤدى إلى إفساد الحياة الزوجية مستقبلاً . ويضر بالمجتمع . ا . هـ.

• • •

من بر الآباء .. بالأبناء

يقول الله عز وجل : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ والحجارة ...﴾ [التحريم:٦] .

تمهيد :

كان المؤمن الحق يشعر بأن الآية الكريمة رسالة إلهية .. موجهة إليه هو شخصيًا .

ومن أجل ذلك : كان إحساسه بالمسؤولية حادًا .. حمله على سرعة الاستجابة .. فلم يخذلوا القرآن .. ولم يخذلهم القرآن :

أجل : كان هناك آباء صدق سارعوا إلى تطبيق الآية الكريمة على أنفسهم .. قبل أن يطالبوا بها غيرهم ..

لقد كانوا يعدون الولد « أمانة » وهم مطالبون بالحفاظ عليها .. فحمل الأب منهم نفسه على « برّ » ولده أولاً .. حتى يفوز ببر ولده ثانيًا !!

ولم يكن قصارى جهدهم أن يظل الولد فى بؤرة اهتمامهم .. نظريا .

وإنما كان أمر الوالد مع ولده على هذا النحو الذى عناه الشاعر القائل :

إذا مرضنا أتيناكم نعيدكم

وتذنبون فنأيتكم فنعتذر !!

وكانت للآباء ـ تعبيرًا عن هذا الإيثار وهذه الحفاوة ـ كانت لهم توجيهات يمكن أن تكون اليوم منهجًا فى التربية الواصلة بالجيل الجديد إلى ما ترجوه لهم: عناية بهم . وإشباعًا لغرائزنا فى نفس الوقت:

من وصايا الآباء:

قال الوالد لولده . وهو يعظه : يابنىّ : لسانك سيف مصلت يتغالب عليه :

عقلك ، وغضبك ، وهواك.

فإذا غلب عليه عقلك ـ فهو لك . .

وإذا غلب عليه غضبك وهواك . فهو لعدوِّك .

فإن استطعت أن تحتفظ به . وتصونه .

فلا يكون إلا لك . . ولا يستولى عليه عدوك . . فافعل .

واحرص على ألا يصدر منك إلا ما يسعد الآخرين:

وهكذا . . يعين الوالد ولده على أن يحكِّم عقله في كل أموره: فراراً من تحكّم هواه فيه . .

ذلك . بأن تحكيم العقل يعنى أن المعركة لحسابك . . بقدر ما يكون تحكم الهوى هزيمة لك لحساب عدوك . .

ومهما يكن من أمر . . فلتكن مصدر خير يسعد بك الآخرون .

وفى آخذ الولد بسليقة الثقة بالله عز وجل . . ونبدأ اليأس . .

والتعامل مع الحياة بطاعة الله عز وجل . . فهى سبيل الوصول إلى المأمول: فى هذا المعنى يقول والد لولده:

« يا بنى : إياك والجزع على ما فات . والطمع فيما لا يرجى :

فما اشتد خطب . . إلا وأعقبه فرج .

ولا انسد باب . . إلا وسوف ينفرج :

فإن الله عز وجل قد جعل مع العسر يسريسن . . وجعل فى الصبر خير البلدين .

وما زال مع الصبر الظفر والأنس .

ومع الجزع الكدر واليأس .

فاختر لنفسك ما يدنيك من الله ويقربك .

واطّرح عنها ما يحزنك ويكربك» .

وهكذا يحرص الوالد ولده على بذل وسعه . . ليغير الله ما بنفسه .

وكيف كان الحزن على الماضى آكلا عافية الإنسان . . بقدر ما كان سعيه سبيله إلى الكمال .

من التربية العملية:

كان الإمام « السبكى » يسير مع ولده فى الطريق . . وفجأة نبحهما كلب .

فما كان من ولده إلا أن شتم الكلب!

فنهره والده . . حتى لا يتعود لسانه الفحش!

وفهم الولد الدرس . ولم تأخذه العزة بالإثم: فمهما تقدمت به السن فهو لا يزال فى نظر أبيه « بنى » .

بُنى : بالتصغير . . ما دام فى حضرة والده « الكبير » .

من آثار هذه التربية:

يقول الحكماء : من أعطَى . . فليصمت ، ومن أخذ . . فليتكلم .

وقد أعطى الوالد أثمن ما يعطى . فصمت . . ولم يكن كما قيل :

أفسدتَ بالمن ما أسديت من نعم ليس الكريم إذا أعطى بمنّان!

ولكن الذى تكلم . . فهو الولد . .

الولد : الذى كان بره بوالده جزاء من جنس عمله . . شاهدًا بأنه « ما نحل والد ولدا أفضل من أدب حسن :

قال الابن البار لأخويه :

إما أن تمرّضوا والدنا . . ولكم الميراث .

وإما أن أمرضه أنا ولا ميراث لى !

فقالوا له :

بل مر ضه أنت . .

فمرضه . . ولم يرث .

لم يرث الثياب ولكنه فاز بالثواب !

إن الابن البار هنا :

لم يكن قويًا ، فينتصر .

ولا بريئًا . . فيعتذر .

وليس له مهرب . . فيفر . .

ولكنه واجب الإنصاف . . وحق الاعتراف . .

• • •

من عناصر القوة فى تكوين الأسرة

عندما حرَّضنا الإسلام على« الظفر » بذات الدين سبيلا إلى السعادة . .

عندما فعل الإسلام ذلك . . لم يكن إهمالا للجمال ولا للمال أو الحسب والنسب . .

وإنما هى الإشارة إلى أن فى الحياة ما هو أجمل وأكمل من المال والجمال والسلطان . . وهو : الدين . . الذى به يعلو البناء . . ويتجمع الشتات . .

وهو ما نصحت به الأم الإفريقية ابنتها قائلة :

ارض زوجك . . طول حياتكما، حتى يرضى عنك يوم انتقالك . وإذا حدث وكان موتك قبله فابحثى منه عن رضاه ، فلعلك حينئذ ترحلين مكرمة . وهاهو لك : الطريق المستقيم ، عيشى معه بأدب . ولا تدخليه فى غضب . وإذا تفوه مغاضبًا . . فلا تردى عليه . واجتهد فى أن تصمتى . ذلك . . بأن علامة السوط تزول . لكن آثار الشتائم لا تزول.

وهكذا كانت توجيهات الأم « ذات الدين » لتكون ابنتها كذلك . .

منطلقة فى ذلك من مسلمات هى :

الكلب الأبيض لا يعض كلبًا أبيض .

والفضيلة أعظم ثروة .

والأصبع الواحدة لا تستطيع أن تقتل ولو نملة.

وإن أحسن ثمرة قد يكون يداخلها دود .

ولا نجاح للأسرة إلا بالزوجة الودود !

وتلك هى الزوجة فى ظل الإسلام.

وحتى فى الجاهلية كان حالها كزوجة أفضل من حالها عند اليهود.

فالعربى كان ينظر إلى المرأة التى مات عنها زوجها كأنها قطعة من آثاث البيت . . يرثها معه . . ولكن لا تعضلوهن .

أما اليهود: فكانوا إذا مات الزوج . . فُرِض على أخيه الزواج بامرأة المتوفى . . ثم إنجاب ولد منها . ينسب إلى أخيه الميت :

وهو زواج بالإكراه.

ثم نسب كاذب !

واليوم : ما فى الغرب شىء يسر القلب !

فهاهم أولاء ينعون على الإسلام التعدد . . بينما يبيحون تعدد الخليلات ؟!

ونقول لهم . . بالعقل .

الإسلام يقول للشاب العاجز عن الزواج : اصبر . ويقول للمتزوج بواحدة: لا تستطيع النفقة الباهظة . .

وإذا استطعت . . عجزت عن العدل.

وللزوجة حق اشتراط ألا تكون لها ضرة . . وقال ابن حنبل وعلى الزوج أن يلتزم بما نص عليه فى العقد . . وإلا فمن حقها أن تطلب الطلاق. وهكذا تقوم الأسرة على أصولها عصية على الانهيار بسبب زوجة منحها الدين جوهر العزة والغيرة على عرضها .

شاهد من مكة المكرمة :

« كان بعض السيدات من اللاتى تخلَّفن ولم يحججن ، يخرجن بالليل لابسات زى الرجال ، متسلحات بالخناجر ، معتجرات ببعض ما يُشدُّ به الرأس من العصائب والخرق ، متجلببات ، ومتشلحات بالعباءات والمشالح الثقيلة ، ومتلثمات بكلل خاصة ، ويصحبهن بعض الجوارى والغلمان ، وبعضهن يحملن الطبول ، فيطفن بمكة كلها والغلمان يدفون على الدفوف، ويقرعون على الطبول،

والبعض يرقص ويلهو ، وبعضهم يلبس ما يشبه فراء الغزال ويرقص ، ويسمون هذه اللبسة وهذه الرقصة بـ « الغزالة » ، كما يسمون هذه الحفلة وهذه الخروجة العجيبة بـ « القَيْس » (بفتح القاف وتسكين الياء ثم السين) . . وغالبًا ما تبدأ هذه الخرجة من جرول ومن المعابدة ، ثم تعم مكة كلها ، وينادى من بالنوافذ متخلفًا عن هذه الخرجة بقوله : (وحيك يا عساس) جملة يقولونها لأخذ الحذر والانتباه خوفًا من اللصوص الذين يهاجمون البيوت ».

ومن عناصر القوة:

ألا يكره مؤمن زوجته المؤمنه!

وقد اختص الرجال بالنهى عن كره الزوجة دون الزوجات . . لأن المفروض أن الزوجة لا تكره زوجها بأى حال . . ثم أن الزوج يرى نساء غيرها : فالخوف منه هو . . والخوف عليها هى معنى أن مصلحتها مرعية . والإشفاق عليها مانع من ظلمها .

النخوة هنا : وليست هناك .

من خصائص الزوجة التى تستقر بها الأسرة وتستمر :

أن تحفظ الرجل فى ماله وعرضه . .

وفى الوقت الذى كانت حرية المرأة مانعة من انحرافها فإن الإسلام جعل منها شريفة أصيلة نبيلة . .

ويظل الجمل جملا والناقة ناقة . . فلا يستنوق الجمل أبدًا .

وأين هذا من الذى يحدث هناك حيث لا دين ولا حرية . فلا حميّة؟!

كان المخرج زوجا للممثلة . .

وكان يقول للبطل !! فليكن الموقف جادًا : وهكذا يحرّض البطل على أن يكون جادًا مع زوجته الممثلة ؟!

ولتنجح « اللقطة » وليسقط العرض ليسقط الزوج « الفنان » !! ورحم الله أيام زمان : يوم كان الفنان شيخًا :

الشيخ سلامة حجازى .

والشيخ زكريا أحمد .

إنه الفن المحروس بالفضيلة . فلا ينحرف أبدًا . .

أما بعد :

فإذا كانت الكلمة الطيبة تجرى على لسانك عسلا . . ثم هى لا تلسعه . وإذا كانت الكلمة الخبيثة تحرق « المودة » وتخرب البيوت . .

فلماذا لا نحرص على الأولى . . ونفر من الثانية ؟!

● ● ●

مسؤولية الزوجة عن سعادة الأسرة

عندما تنتقل « الفتاة » من منزلها إلى بيت الزوجية . . فقد تغير كل شيء وعليها أن تحاول « التكيف » مع تقاليد هذا المستقر الجديد : من قبل . . كان الوالدان . وكان الإخوة يرخون لها الحبل . . نزولا على رغبتها . .

أما اليوم : فقد ألقت عصاها واستقر بها المثوى في بيت لم تألفه ، وصاحب لم تعرفه . . على نحو تغيرت فيه العلاقات الأسرية تماما . . وهي مسؤولة منذ اليوم الأول عن كل ما يحدث في البيت الجديد . .

أول خطوة على الطريق:

وأول خطوة في الرحلة الجديدة هي : محاولة الانسجام مع الزوج : وذلك بمحاولة تحسس مزاجه . . ورغائبه . . ثم العمل على أن تكون معه على نفس الخط : إلى ذات الاتجاه . . يقول المجربون:

الشخصية التي تتسم بالانضباط والدقة في أداء أي عمل تكلف به نجدها تتجه نحو الانضمام إلى الحياة العسكرية ونجد الشخصية التي تميل إلى مناقشة الآراء المجردة ومحاولة فهم العالم بشكل كلي وفق منظور عقلي تتجة نحو دارسة الفلسفة .

أما التفسير الثاني فإن المهنة بكل ما تحمله من خصائص ونظم في العمل وفي العلاقات الاجتماعية تصبغ وتلون وتهذب الشخصية المنتمية إليها ، فنجد مثلا بعض الشباب الذين كانوا يبدو عليهم مظاهر عدم الالتزام في المظهر أو السلوكيات وقد أصبحوا مثالا للالتزام بعد أن تعودوا على السلوكيات الحميدة الموجودة في المهنة ، وأيا كان التفسير فإن الدراسات تؤكد أن هناك علاقة وثيقة بين المهنة ومن يمارسها ، وأن هذه العلاقة لا تؤثر على صاحب المهنة فقط وإنما تؤثر بالتبعية على زوجته نتيجة لما يعرف « بالالتصاق » فنجد أن الشخص الملتزم في حياته المنضبط في مواعيده الذي يحرص على الدقة الشديدة في أداء عمله من الصعب عليه أن

يتقبل أو يفهم ميل زوجته إلى الفوضى وعدم النظام داخل المنزل ، وعندما ينشأ الخلاف بينهما على هذه التفاوت في الطباع نجد الزوجة رغبة منها في التفاهم وانطلاقا من الحب المتبادل بينهما تتجه إلى اكتساب عادات جديدة من النظام والالتزام في أداء الأعمال المنزلية وتصبح مع الوقت مثالا للدقة في كل شيء . ومن ناحية أخرى نجد أن هناك نماذج من الزوجات لا يستطعن التجاوب مع شخصية الزوج أو التطبع بطباعه ، وأشهر مثال لذلك : الفيلسوف سقراط الذى كانت زوجته تهتم بالمأكل والمشرب دون أن تهتم بآرائه الفكرية ولم تكتسب منه أى شيء فكانت حياتهما الجحيم بعينه ، فلأنه لا يحبها فلم يكن قوة دافعة لها ولم تحبه فلم يكن لها قدوة !!

ونسأل الدكتور محمد عويضة هل هناك تأثير من الزوجات على شخصية الأزواج ؟

يقول : من المؤكد أن هناك تأثيراً متبادلاً بين الزوجين ، فكما أن الزوجات يكتسبن بعض السلوكيات والقيم من أزواجهن فمما لا شك فيه أن الأزواج يكتسبون بعضا من السلوكيات والقيم من زوجاتهم وذلك وصولاً للهدف السامى وهو التفاهم واستمرار الحياة الزوجية فنجد الزوج الذى كان يسخر من العواطف قد أصبح كائنا رومانسيا ، والزوج البخيل قد أصبح كريمًا مثل زوجته ، والزواج المنطوى قد أصبح اجتماعيًا والزوج العبوس قد أصبح مبتسمًا وهذا يتوقف على شطارة الزوجة كما يقولون !!

كيف نواجه الإعصار ؟

ربما كان الزوج بطبعه يحمل مزاجا حادًا . .

وربما كانت طبيعة المهنة ثقلا على أعصابه . .

ولهذا . . فقد يعود إلى البيت مثقل الرأس بهموم المزاج .

أو هموم الوظيفة .

إنه لن يستطيع التخلص من كل طاقة الغضب فى عمله .

لأن العمال لهم فى عنقه حقوق تمنعه من التنكيل بهم .

وتبقى بقية من التوتر تنازعه ، ولن يستطيع إفراغها إلا فى قلب شريكة الحياة . . التى يجب عليها أن تقف إلى جانبه فى محنته . . رضا بالواقع المر . . ورحمة بزوج ينالها كفل من رضاه ومن جفاه !

وذلك بعض واجبها . وهو « حسن التبعل » والذى يعدل فى أهميته وثوابه : ما امتاز به الرجال من مثل الجهاد والإنفاق فى سبيل الله .

ثم . . يتم ذلك ابتغاء رضاه وفراراً من جفائه .

وذلك بعض ما يشير إليه قوله ﷺ : « **أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة** » .

ومع هذا فهناك زوجة تتجاهل هذه الوظيفة . وهذه العاقبة بمحاولتها فرض إرادة التغيير تحت سقف البيت متجاهلة مشاعر رب البيت . .

وعندئذ نواجهها بالحكمة القائلة :

إذا أردت أن يكون لك أعداء كثيرون . . فحاول أن تغيرّ شيئًا ما !

وعلى الزوجة أن تدرك أن عداوة الناس جميعًا لا تعنينا . بقدر ما يهمنا رضاء الزوج الذى ارتبطت حياتنا به!

أزواج عقلاء :

وقد كان هناك أزواج عقلاء . . تعاونوا مع زوجاتهم على البر المتبادل بينهما . . والذى يسعد به البيت : وفى طليعة هؤلاء أبو الدرداء رضى الله عنه والذى كان ينصح زوجته قائلا : « إذا غضبتُ . . فاسترضينى . . وإذا غضبتِ . . أسترضيك » .

وهو المعنى الذى أشار إليه الشاعر القائل :

خذ العفو منى تستديمى مودتى

بمعنى : المعاملة بقانون اللطف . . والتماس العذر . . وإذا اصطفى الله عز وجل الزوجة بمزيد من الصبر مثلا . . فليكن شكرها لهذه النعمة مزيدًا من الصبر والتحمل . . ولا تحاول أن تحمله على ما لم يتعود عليه . .

وهو بعض ما يشير إليه قوله عز وجل : ﴿ **خذ العفو** ...﴾ . أى : خذ من الناس ما جلبوا عليه . . ولا تكلفهم فوق ما يطيقون . .

فإذا كان الطرف الآخر هو الزوج . . كان حسن التبعل دافعا إلى مزيد من الصب . . فمزيد من العفو . .

مع العلم بأن آثار ذلك عائدة على الزوجة أيضًا وليس على الزوج وحده .

بل عائد على الذرية التى تنشأ فى جو التسامح . . كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ الله به الكفار .

من آثار هذا الاتجاه :

ومن الآثار الطيبة هنا . . هو تلك الذرية التى تتنامى فى ظل هذا الود أوفياء أسوياء . .

ومنهم ذلك « العامل » فى قصر المعتصم : لقد زاره الخليفة يومًا . .

فسأل ولده قائلاً : « دارى أحسن أم دار أبيك » ؟

فقال الغلام : ما دام أمير المؤمنين فى دار أبى . . فهى أحسن . . فلما سأله الخليفة ثانيا مشيراً إلى خاتم فى يده :

هل رأيت أحسن من هذا الخاتم ؟ قال الغلام : « اليد التى هو فيها ».

وسر الخليفة بالولد سروراً عمليا حين وهبه الخاتم!

وكان السرور الأعظم هو : سرور والديه : تآلفا . . ثم تكاتفا . . لتربية ولد هو أربى فى الميزان من كل ما يستهوى الإنسان .

عندما ما تكون « الكرة » فى ملعب الزوج !

مما أدرك الناس من الحكمة الأولى :

أمش ميلا . . وعد مريضًا .

وامش ميلين . . وزر صديقًا .

وامش ثلاثة أميال . . وأصلح بين متخاصمين .

وإذا كان ثمن « إصلاح ذات البين » أولى فى الميزان من عيادة المريض . وزيارة الصديق . . فإنه يكون أخطر . . لو كان المتخاصمان زوجين . . لما يترتب على ذلك النزاع من خلل تحت سقف البيت . . بل على مستوى العائلتين .

ولن نكلف أنفسنا هنا أن نغبّر أقدامنا ثلاثة أميال . . وإنما هو الحديث الخاطف . . عبر الهاتف . ومع زوجين متخاصمين . . رضيا بأن أكون حكمًا بينهما . .

وكان لسان الحال أبلغ من لسان المقال : فالزوج يريد أن يقول : « واحسرتاه! أين النساء اللاتى كن كاليمام واللواتى كن بلسما للعيون . والهيام ، صرن - جميعًا - إلى زوال وطرن جميعًا الآن . . وأصبحن فى خبر كان » .

وفى نفس الوقت تريد الزوجة أن تقول :

قلبى : ألا تنتبه ؟!

ما الذى غرك يا قلب ؟

ألا تخبرنى . . فأتبين الأمر ؟ فلو كان الأمر ذا وجه ما رفضته . . قلبى : لم لا تعتبر . . والحال أنك خبير فى الاختيار ؟!

وهكذا يعيش الزوجان أسوأ لحظات حياتهما :

ذلك . . بأن أسوأ العيوب ألا تدرك عيوبك . . ثم تتعامى عن محاسن غيرك!

لأن ذلك يعني أنك ترفض النصيحة . . فلست مما يُنصحون . .

والرافض للنصيحة هو رافض للدين كله : لأن الدين النصيحة .

وصحيح أنكما مختلفان:

لكن الاختلاف متوقع بحكم النشأة . والثقافة والمزاج ، الاختلاف في مملكة الرجال والنساء . . على سواء :

ومن الرجال جداول وجلامد ، ومن النساء حرائر وإماء .

وإذن : فالموقف يحتاج إلى شيء من التبصر . . كما يقول البصراء :

شيء طبيعي أن يختلف الزوجان ـ خاصة في البداية ـ إن مكانا واحدًا يضمهما ، ووقتا طويلاً يجمع بينهما ، ومهما كان التآلف بين شخصين يعيشان على هذا النحو . . فلابد أنت يثور بينهما الخلاف ، ويقع الشجار بين حين وحين .

والخلاف قد يكون عميقًا بعيد الجذور ، وقد يكون سطحيًا لاعمق له ، ومع ذلك فإن كان خلاف مهما كان حجمه صغيرًا أو كبيرًا ، أساسيا أو عارضا يتضمن لونا من ألوان الانفصال العاطفي بين الزوج والزوجة ، ولذلك فإن الأسلوب الذى يعالجان به الخلاف وهى شيء بالغ الأهمية لأنه ما أن يساعدهما على التقارب والوئام ، أو يدفع بهما إلى مزيد من التباعد والخصام .

وبعض الأزواج يخطئ النظر في تسوية الخلافات . . إنه ينظر إلى كل تسوية من ناحية النصر أو الهزيمة . . نصره هو وهزيمة الطرف الآخر ، أو ربحه هو وخسارة شريك حياته . . هو لا يدرك أن هذا الأسلوب هو أسوأ الطرق التى يمكن أن يلجأ إليها لتسوية أى خلاف بينه وبين زوجته . . إنه لن يزيدها إلا تباعدًا ونفورًا . . ففكرة الانتصار في الخلافات الزوجية ليست في الواقع إلا وهما كبيرًا . . فكل نصر يحرزه أحد الزوجين هو في نهاية الأمر هزيمة لكل منهما .

ولكن كيف يمكنك أن تعرف أنك من هذا الطراز الذى ينظر إلى الخلافات الزوجية من زواية النصر أو الهزيمة؟! ا . هـ .

إن المعركة بين الأخوين . . كالمعركة بين الزوجين منتهية حتمًا بهزيمة الفريقين:

لأن انتصار أحدهما مخصوم من حساب الآخر . . فهو فى النهاية نزيف من كيانهما . . لحساب أعدائهما . .

والمطلوب هو : التسامى فوق الخلافات الشخصية . . ثم إعطاء الأولوية للمصلحة الأسرية . . وخاصة إذا كانت هناك ذرية !

وهنا نتأمل توجيهات الخبيرات فى هذا المجال . . فماذا يقلن ؟ على الزوج . . وعلى الزوجة كذلك أن يسأل كل واحد نفسه :

هل أنت مستعد لإيلام شريك الحياة من أجل الانتصار عليه؟!

بعض الأزواج والزوجات يفعل ذلك . . إنه لا يتورع أن ينال من ثقة شريكه بنفسه أو اعتزازه بكرامته . . وهو فى الحقيقة لا يكسب بذلك معركة ؛ لأن المعركة تكون قد انتهت . . ولكى يحتفظ لنفسه بمكانتها يحرص على أن تكون الكلمة الأخيرة له . . إنه يتال من شريك حياته غير مبال بما يصيب نفس هذا الشريك من جراح وما يحدث لمشاعره من ألم.

هل تختزن الأحقاد أو الضغائن لتستخدمها كوسيلة لإخضاع الطرف الآخر؟

إن هناك بعض الطرق الفعالة لكسب المعارك الزوجية أو على الأصح لتحطيم الزواج على المدى البعيد . . ومن هذه الطرق ـ كما يؤكد علماء النفس ـ اختزان الإساءات العاطفية القديمة وتغذيتها بعناية ثم دفعها إلى الظهور فى اللحظة المناسبة.

فبعض الناس لديه ميل شديد لمثل هذا النوع من الانتقام ، وهو يجمع الإساءات ويدخرها عن قصد ليستخدمها فى هذا الغرض . . ولكن فى معظم

الأحيان لا يكون مثل هذا الموقف عملا إراديا بقدر ما هو عادة لاشعورية . . ولكى نتوقف عن ذلك لابد أن نخرج تلك العادة من مستوى اللاشعور إلى مستوى الشعور . . أو بمعنى آخر أن تكون على وعى بما نفعل . عندئذ يمكنك أن نتخذ قرارًا لتغيير موقفك وبإرادتك تستطيع تنفيذ هذا القرار .

صورة من تاريخنا:

تزوج شيخ القبيلة من الفتاة الجميلة !

وبالزواج تغيرت الصورة تماما : لقد كان بالأمس القريب فارس الأحلام : كان يزور غبا . . فكان يزداد حبا . .

أما اليوم . . فقد صار « مفتشا مقيمًا » .

لقد سمعها تتغنى بأبيات من الشعر . . تفيض حنينا إلى بيت أمها :

ولبس عباءة وتقرعينى أحب إلى من لبس الشفوف

وبيت تخفق الأرواح فيه أحب إلى من قصر منيف!

فماذا فعل الزوج؟

لقد سرحها إلى أهلها سراحًا جميلاً . . وفى هدوء . . وبلا مهاترات ولقد كان الزوج هنا عاقلا : من حيث علم أن الفكرة المتمكنة لا يمكن وقف زحفها . . فى حين كان وقف الجيش ممكنا . .

وأن غياب التجانس مانع من الاستقرار . . فاتخذ هذا القرار . .

وإذ يمنحه الإسلام حق إيقاع الطلاق . . فقد استعمل هذا الحق . . وفى وقته المناسب . .

لقد نظر إلى نفسه . . فإذا هى مجموعة من ملايين الخلايا .

نعم هى مختلفة . . ولكنها مه هذا التباين تكاملت . فعاش بها ولها ، أما هذه الزوجة فليست منك . . ومن حقها أن تعيش حيث تريد .

ثم هو تقدير للمرأة ككيان مستقل . . قد يكون ضعيفًا ولكن:

ولكن الماء ينحت الصخر . . مع صلابته . .

والنملة يمكن أن تؤذى فيلا . .

والظلام : يخفى فرس النهر !

ولقد آثر الرجل أن يكون صاحب المبادرة . . ذلك بأن « الحصان » الوارد أولا : يشرب الماء الصافى .

• • •

أدب المعاشرة

يقول الله عز وجل : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] .

تمهيد :

روى أن اليهود والمجوس .كانوا يبالغون فى التباعد عن المرأة حال حيضها .

والنصارى كانوا يجامعوهن ، ولا يبالون بالحيض .

وأن أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها . ولم يشاربوها . ولم يجالسوها . ولم يساكنوهن فى بيت . كفعل اليهود والمجوس.

فلما نزلت هذه الآية . أخذ المسلمون بظاهر الآية، فأخرجوهن من بيوتهن .

فقال ناس من الأعراب: يا رسول الله : البرد شديد ، والثياب قليلة : فإن آثرناهن بالثياب . . هلك سائر أهل البيت ؟

وإن استأثرناها . . هلكت الحبّض .

فقال عليه الصلاة والسلام : « **إنما أمرتكم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن . ولم أمركم بإخراجهن من البيوت . كفعل الأعاجم** » .

فلما سمع اليهود ذلك قالوا : هذا الرجل يريد ألا يدع شيئًا من أمرنا إلا خالعتا فيه [١] .

ومن معانى ما سبق :

أنه كانت هناك ممارسات كاذبة خاطئة . . وكان هناك بثّ إعلامى ردىء أحدث على الجبهة الإسلامية أثرًا . . فنزلت الآية الكريمة لتحسم القضية لحساب الحق . . تحرير للأمة الإسلامية من تقليد أعدائها . . على حساب عقيدتها .

(١) الرازى (١/ ٦٧) .

من بلاغة الآية الكريمة:

تستفتح الآية الكريمة بالفعل المضارع ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ ﴾ : يعنى ذلك صحوة الأمة التى رأت هذه النماذج الرديئة تحاول أن تفرض نفسها . . فهوت إلى الزائد الذى لا يكذب أهله . . تستفتيه . . ولم يكن السؤال واحدًا . . ولكنه تكرر كلما بدت شبهة جزيرة يروجها الإعلام المعادى . .

ثم تقول الآية الكريمة ﴿ هُوَ أَذًى ﴾ :

أذى : منكَّر : تذهب النفس فى سعته وشموله كل مذهب : إن مساحة الأذى واسعة .

فهو أذى للمرأة : لو احتبس لأضرها .

ثم إن مباشرتها فى مواضع الدم أذى للرجل أيضًا : جسمًا ،نفسا . . ثم ينعكس على الجنين كفل منه . .

ومن أجل ذلك : كان لابد من الاعتزال : فلا تباشروهن . . ولا تقربوهن ، وهو نهى عن الالتذاذ بما يقرب من ذلك الموضع .

ثم إن فى المباشرة عندئذ خطرًا على العلاقة الزوجية : من حيث كانت رائحته كريهة . . وما يترتب على ذلك من كراهة الرجل لامرأته . . لو فعل .

ثم تحدد الآية وقت المباشرة يتحقق شرطين :

﴿ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ بانقطاع الدم .

ثم يتطهرن : يعنى : يغتسلن .

وهكذا تبدد قيمة « الطهارة » أو النظافة على أوفى معانيها . . زد على ذلك ما يفوز به المتطهر من حب الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ . يحب الذين يطهرون بالتوبة بواطنهم . . وبالماء : ظواهرهم : وإذا يحب الله تعالى من تتكرر منه التوبة بتكرر الذنب . فهو سبحانه وتعالى يحب من تاب . ولم

يرجع إلى ذنبه . .

وقد يستشعر التائب نوعًا من الحساسية إذا عاد إلى ذنبه . . حين يَعُد ذلك كذبا يوشك أن يكون استهزاء . . ولكن الحق تعالى يمحو هذه الحساسية . . إذا كانت التوبة نصوحًا .

ولأن تكرار التوبة لحظة قوة : إذ يُظْهر بسببها سبحانه صفات :

الحلم ، والعفو ، والجود ، والرحمة ، والكرم .

من ذكريات هذه الآية الكريمة:

قال أحد العلماء الأجانب لما سمع هذه الآية الكريمة: من الذى يقول إن المحيض أذى ؟ فلما قيل له : القرآن . . أعلن إسلامه .

• • •

إلى الإسلام من باب الطهارة

وقد قرأت أن رجلاً بريطانيا كبيرًا دخل الأزهر يومًا فوجد شيخًا يعلم تلاميذه آداب « الاستنجاء » . . فلما تعجب مما سمع قال للشيخ : هذا ما علمه إياكم رسولكم ؟ فلما أجاب الشيخ : نعم قال له : اكتبها عنى شهادة للتاريخ إن رسولكم الذى علمكم هذا . . لهو رجل عظيم .

ومن مظاهر عظمة الرسول :

وحقًا ما قال الرجل : فلقد كان ﷺ رسولاً عظيمًا . . جاء الدنيا بشريعة عظيمة عن أبى قتادة رضى الله عنه . عن النبى ﷺ . قال : « **إذا بال أحدكم فلا يأخذن ذكره بيمينه ، ولا يستنجى بيمينه ، ولا يتنفسُ فى الإناء** » متفق عليه .

قيل : والحكمة فيه : أنه يأكل بها ، فلو استنجى بها . . لتذكر عند الأكل ما لا مسه بها . . فيتنغص عليه طيب عيشه [1] .

(١) دليل الفالحين : (٤/ ٤٩٧).

«ولا يتنفس فى الإناء . أى : حال الشرب :

أ ـ لأنه يخرج مع النفس نحو نخامة فيقذر الماء .

ب ـ ولأنه يكسب الإناء رائحة كريهة .

بل يفصل الإناء عن فيه . ويتنفس » [١] .

وعن حفصة رضى الله عنها قالت : « كان ﷺ يجعل يمينه لطعامه وشرابه وثيابه » [٢] .

ويقول « سيدون » وهو واحد من ضيوف رابطة العالم الإسلامى :

مكثت عشرين عامًا أعرف شيئًا عن الإسلام . إلى أن التقيت بمسلم من «بنغلاديش» . . لم يكن فى سلوكه ملتزمًا . . لكنه ومن خلال حديثه عن موضوع الطهارة . . آمنت بأن الإسلام دين الفطرة !

أما بعد :

فقوله تعالى : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ ﴾ .

من واقعية الإسلام . المعترف بعرامة الغريزة التى قد ترفض . حكم العقل : الذى يؤكد حدوث الأذى بينما الغريزة تتحفز للهجوم !

والحل هو : اعتزالهن . . فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

• • •

(١، ٢) دليل الفالحين : (٤/ ٤٩٧).

من براءة الرحم إلى براءة القلب

قالت زينب بنت أبى سلمة : دخلت على « أم حبيبة » زوج النبى ﷺ . حين توفى أبوها « أبو سفيان » .

فدعت « أم حبيبة » بطيب فيه صفرةٌ خَلُوق . أو غيره : فدهنت منه جارية. ثم مسّت بعارضيها .

ثم قالت : والله مالى بالطيب من حاجة . غير أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر : لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تُحدُّ على ميت فوق ثلاث ، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا .

قالت زينب : ثم دخلت على زينب بنت جحش . حين توفى أخوها : فدعت بطيب . فمست منه . ثم قالت : والله مالى بالطيب من حاجة . لكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر : « **لا يحل لامرأة تؤمن بالله اليوم الآخر تحُدُّ**[1] **على ميت فوق ثلاث . إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا** » .

قالت زينب : سمعت أمى أمَّ سلمة تقول : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺفقالت : يا رسول الله : إن ابنتى توفى عنها زوجها . وقد اشتكت عينها : افتكحلها ؟

فقال رسول الله ﷺ : « **لا : مرتين .، أو ثلاثا : كل ذلك يقول : لا** » متفق عليه .

تمهيد :

قبل الإسلام . . كانت التقاليد ثقيلة على من توفى عنها زوجها : فقد فرضت هذه التقاليد على من توفى عنها زوجها : أن تحبس نفسها فى بيت : ضيق حقير قريب السقف لا تغتسل . . بل لا تمس ماء. ولا تقلّم ظفرًا .

---

(١) الإحداد والحداد : مشتق من المنع - منع الزينة والطيب وأحدّت المرأة تحد ، ويحد . . ويقال : امرأة حاد . . لا حادة.

وتظل هكذا على مدى سنة كاملة .

فإذا انسلخت السنة خرجت على الناس بأقبح منظر . .

ثم . . وبعد هذا العذاب . . يجوز لها أن تتطهر[1] .

• • •

قيمة النظافة

ولقد جاء الإسلام نوراً ورحمة . . بما خفف الله سبحانه عن المرأة من أثقال. وعليها أن تشكر هذه النعمة .

فهى ممنوعة من الاكتحال فيها مدة يسيرة وبعدما كانت حولاً كاملاً صارت أربعة أشهر وعشرا . . ولا بأس فيها من أن تكون نظيفة . .

وهى ممنوعة فقط من الاكتحال . . وكل صور التزين .

ومع ذلك . . فإنه إذا تحقق الضرر . . جاز الاكتحال . .

ويمكن ـ احتياطا ـ أن يكون بالليل . ثم يمسح بالنهار .

قيمة الوفاء :

ويظل الحداد رمزاً للوفاء الذى يجب أن يبقى بعد وفاة العائل الكافل : يظل واجبًا فى عنق : الكبيرة والصغيرة . البكر والثيب : الحرة والأمة . المسلمة والكتابية .

ولم تكن العدة كما كانت فى الجاهلية سجنا . وإنما هى مدّة ، تستبرئ فيها رحمها . ولا تجرح أهل الزوج فى عواطفهم بخروجها لتوها .

وفى أثناء هذه العدة : تلبس ثيابا محتشمة . ولا تتزين للخطّاب .

فأما بعد هذه العدة . فلا سبيل لأحد عليها . ا . هـ.

---

(١) راجع مسلم (١٠/ ١١٤، ١١٥).

من حكم العدة :

وقد تساءل شراح الحديث فقالوا : لماذا كانت العدة أربعة أشهر وعشراً ؟

وقد أجابوا بما يلى :

أ ـ فى هذه المدة ينفخ الروح فى الولد . . إن كان . والعشر : احتياطًا .

ب ـ وفيها يتحرك الولد فى البطن.

جـ ـ ولم يوكل ذلك إلى المرأة . . خوفًا من ضغط الرغبة فى الزواج عليها . والتى قد تسول لها بالترخيص والتساهل .

سؤال يفرض نفسه:

إن براءة الرحم ثابتة بأقل من هذه المدة : مدة الحداد فما هو سر طول مدة الحداد ؟

وقد أجابوا : بأن رحيل العزيز تارك فى القلوب جراحا : قلوب أهله وذويه وصاحبته وبنيه . .

وحتى تبرأ القلوب من هذا الحزن عليه . . يجب أن تطول مدة الحداد لتتم براءة الرحم والقلب معا .

واجب المجتمع :

ومن واجب المجتمع أن يعين الزوجة المنكوبة على أمر الله . . حتى تصل بالمصابرة إلى بر الأمان . . وذلك ما يشير إليه قوله عز وجل : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ... ﴾ [البقرة:٢٣٥] .

يقول صاحب الظلال : إن المرأة فى عدتها ما تزال معلقة بذكرى لم تمت. وبمشاعر أسرة الميت .

ومرتبطة كذلك بما قد يكون فى رحمها من حمل لم يتبين . أو حمل تبين والعدة معلقة بوضعه .

كل هذه الاعتبارات تمنع الحديث عن حياة زوجية جديدة . لأن هذا الحديث لم يحن موعده . . ولأنه يجرح مشاعر . ويخدش ذكريات » ا . هـ .

وفوق هذا . . فقد يفتح التسرع بابا من الشك فى سلوك زوجة تجرّ على نفسها هذا الاتهام . . بينما هى براء من كل اتهام .

ولأن الإسلام دين واقعى معترف بعرامة الشهوة . وقوة الطمع فيمن مات عنها زوجها . فإنه أباح التعريض . . لا التصريح ، أباح التعريض بالقول المألوف المعروف . .

ومنع المسارّة فرارًا من الريبة فيها . .

إن الزوجة المتوفى عنها زوجها صارت فى نقطة الضوء . . ومحل المساءلة :

لقد كانت فى حياة زوجها حرة فى ظله . ؛ ولو كان هيكلا عظميًا .

أما بعد وفاته فهى فى موضع المساءلة عن كل حركة . .

فلتحترم نفسها أولا . . بالوفاء . . وعلى المجتمع أن يعينها على ذلك .

• • •

قليل من الحياء بعد غياب الحياة

يقول الله عز وجل : ﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٥] .

تمهيد :

يقول صاحب الظلال : إن المرأة فى عدتها ما تزال معلقة بذكرى . لم تمت . وبمشاعر أسرة الميت .

ومرتبطة كذلك بما قد يكون فى رحمها من حمل لم يتبين .

أو حمل تبين . والعدة معلقة بوضعه .

وكل هذه الاعتبارات . . تمنع الحديث عن حياة زوجية جديدة : لأن هذا الحديث . . لم يَحنّ موعده . ولأنه يجرح مشاعر ، ويخدش ذكريات .

ومع رعاية هذه الاعتبارات . . فقد أبيح التعريض - لا التصريح - بخطبة النساء : أبيحت الإشارة البعيدة . التى تلمح منها المرأة أن هذا الرجل يريدها . زوجة . بعد انقضاء عدتها . ا. هـ.

وقد لاحظ المفسرون هنا أن براءة الرحم قد تثبت من ثلاثة قروء . أو بعد ستين يومًا . . وبعدها يمكن أن تتزوج المرأة .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢١٣٤] . والسؤال الآن : لم كانت هذه الزيادة . . والحال أن براءة الرحم ثبتت . . ومن حقها أن تتزوج؟!

وقد أجابه صاحب « المنار » فقال : « إن براءة النفس من كآبة الحزن تحتاج إلى مدة أكثر » .

ثم يضيف إلى ذلك قوله : والتعجل بالزواج :

أ ـ مما يسيء أهل الزوج.

ب ـ ويفضى إلى الخوض فى المرأة . بالنسبة إلى ما يجب أن تكون عليه من عدم التهافت على الزواج . وما يليق بها من الوفاء للزوج والحزن عليه . ا . هـ.

من واقعية الإسلام :

إن التشريعات فى الزواج ربما أثار الظنون التى يتخيل معها الناس وجود علاقة سابقة مع الخاطب الجديد . . والذى انتهز فرصة موت الزوج فذهب يخطبها علانية . . فاستجابت طائعة ؟!

وقد تكون الزوجة بريئة مما يظن الناس . . لكنها بالتسريح فى القبول تضع نفسها فى مواضع الاتهام . . ومن وضع نفسه حيث يُتهم . . فلا يلومن إلا نفسه!

أ ـ ومن واقعية الإسلام أنه حدد المدة بالقدر الذى تصبر عليه ؟

الأرملة : يروى أن عمر رضى الله عنه أمر ألا يغيب المجاهدون عن أزواجهم أكثر من أربعة أشهر . وذلك بعد أن سأل أهل بيته . . وقد كان من المعروف عند العرب :

أم المرأة تصبر عن الزوج ـ بلا تكلف ـ أربعة أشهر . . وتتوق إليه بعد ذلك.

ب ـ ومن واقعية الإسلام ما أشار إليه قوله عز وجل : ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ﴾ :

بمعنى : أنه تعالى يعلم ما فى نفوسكم . محيط بخطرات قلوبكم التى ليست فى أيديكم .

ويشق عليكم أن تكتموا رغبتكم. وتصبروا عن النطق لهن . بما فى أنفسكم. فرخص لكم فى التعريض . دون التصريح . فقفوا عند حد الرخصة ﴿ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ .

وهو سبحانــه وتعالى يفر بالزوجة خاصة من مــدرجة الفتنة ومظنة الظنة . . وإن عدها المتسرعون حجراً عليها .

من صور التلميح :

وللتلميح صــور شتى .. يجمعــها كلها : إمالة الكلام عن منهجــه . . ليفهم المخاطب مــا تريد بضرب من الإشــارة والتلويح يحتمله الــكلام . . على بعد . . بمعونة القرينة . من مثل أن يقول لها : من الناس من يتمنى مثلك .

أنت زوجة صالحة :

ومن المفسرون مَن جعل مِنَ التصريح : قول الخاطب : أنت جميلة !

وفي رأيى أن هذا التركيب زلعة إلى ما لا تحمد عقباه . . ولئن جاز فى عصر فلا يجوز فى كل عصر .

مع من يجوز التعريض:

لا يجوز إلا مع المرأة المتوفى عنها زوجها . ومــثلها المطلقة طلاقا بائنا . . أما المطلقة طلاقا رجعيًا فلا يجوز . لأنهن لم يخرجن عن عصمة بعولتهن بالمرة.

من وسائل التربية:

ثم يقول عز وجل : ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ** ﴾ .

ذلك بأن المتوفَّى عنها زوجها مجلى من مــجالى الطمع . . لا سيما إذا كانت جميلة . أو غنية . .

ومن أجل ذلك فقد يتــساهل الراغبون هنا متجــاوزين الحد المرسوم . . فكان لابد من هذا التحذير . . والذى يجىء صيانة للمرأة . وحفاظا على كرامتها.

هذه الكرامة التى تجىء الترهيب تحذيراً من إهمالها . .

والترهيب بمرتبتين تأكيدا لهذه الكرامة :

أ ـ فهو عز وجل : يعلم ما فى أنفسكم .

ب ـ فاحذروه .

(ولكل جملة أثرها فى النفس . والمقصود واحد) .

وفى النهاية . . يتكامل الدرس . وتتم التربية بعنصر الترغيب : ﴿ واعلَمُوا أنَّ اللَّهَ غفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

وبالترغيب . . يفتح الله عز وجل أمام المذنب خط الرجعة . . تائبا ليعود بالتوبة النصوح أفضل مما كان .

• • •

أم المؤمنين : « أم حبيبة » والامتحان الصعب

تمهيد :

يقول الرازى بيانا لضعف الأنثى مقارنة بالرجل : الذى يربى فى الحلية يكون ناقص الذات : لأنه لو لا نقصان فى ذاتها لما احتاجت إلى تزيين نفسها بالحلية . ثم بين نقصان حالها بطريق آخر . وهو قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف : ١٨] .

يعنى : أنها إذا احتاجت المخاصمة والمنازعة عجزت . . وكانت غير مبين.

وذلك لضعف لسانها . وقلة عقلها . وبلادة طبعها . ويقال : قلما تكلمت المرأة . . فأرادت أن تتكلم بحجتها . . إلا تكلمت بما كان حجة عليها . فهذه الوجوه دالة على كمال نقصها . ا . هـ .

ثم يروى « الرازى » عن الإمام الشافعى ما يؤكد قدرة الرجل على تحقيق ما تفشل الأنثى فى تحقيقه . . قال الشافعى :

ولم أحذر الدهر الخؤون . وإنما قصاراه أن يرقى بى الموت والفقرا

فأعددت للموت الإله وعفوه وأعددت للفقر التجلد والصبرا

القاعدة . . والاستثناء :

وإذ يتحدث « الرازى » عن القاعدة الشاهدة بتفوق الذكر ، وتراجع الأنثى . .

فقد كان هناك استثناء من هذه القاعدة يؤكد أن من النساء من استعلت على هذه القاعدة . . فكانت : فى الخصام . . غالبة . . ، مع النشأة فى الحلية كانت قوية عصية على الكسر أبيه.

أم حبيبه رضى الله عنها :

وكذلك كانت أم المؤمنين أم حبيبة رضى الله عنها ، وكيف ؟ لقد كانت من اللاتى ولدن وفى أفواههن ملاعق الذهب ، ولدت فى « قصر » أبى سفيان وارث

الزعامة بعد فرعون هذه الأمة أبى جهل ،

أجل : ولدت فى جو من الرفاهية : فتلفعت بفضل مئزرها . . وستيت فى العلب .

ولكنها آثرت الإسلام على ذلك كله . . وعلى أرفع مستويات التضحية : حين رضيت بالهجرة مع زوجها . . وبالذات إلى الحبشة غريبة . . تعيش على الطوى .

الامتحان الأصعب :

ولم تقف الأقدار بأم حبيبة رضى الله عنها هذا الحد ، فهاهى ذى تقول : رأيت فى المنام كأن عبيد الله بن جحش . زوجى . . بأسوأ حال .

وتغيرت صورته . فإذا هو يقول حين أصبح : يا أم حبيبة ،

إنى نظرت فى هذا الدين . . فلم أر دينا خيراً من دين النصرانية!

وقد كنت دنت بها . ثم دخلت فى دين محمد . ثم خرجت إلى دين النصرانية .

وهكذا تواجه الزوجة أقسى وأقصى ما تتوقعه من عذاب . ولكنها تتجاوز المحنة بثباتها حين واجهته بما يلى :

أولاً : قالت له متحدية والله ما خير لك !

وثانيًا : أخبرته بما رأته فى منامها . .

فلم يعبأ بقولها : ثم مضى على حل شعره ملحداً . . لا أمل فى عودته إلى الإسلام .

١ ـ كان ـ بعد أن تنصر ـ يمر بأصحاب رسول الله ﷺ وهم هنالك من أرض الحبشة فيقول : فقَّحنا . وصأصأتم . يعنى : أبصرنا . . وأنتم تلتمسون البصر . ولم تبصروا بعد .

٢ ـ عاد إلى « الحانة » مرة أخرى . . فأدمن الخمر حتى مات .

٣ ـ وكانت « أم حبيبة رضى الله عنها تسمع وترى . . فيعتصر اليأس عود الأمل فى عودته إلى الإسلام.

بشائر الخير :

ثم قالت أم حبيبة رضى الله عنها ، رأيت فى المنام ، كأن آتيا يقول لى : يا أم المؤمنين . .

ففزعت . وأولتها بأن رسول الله ﷺ يتزوجنى . فكان كذلك ا ، هـ.

وهكذا يجئ الفرج . . ومن قريب . . وعلى نحو يؤكد أن الإسلام ينتصر بقواه الذاتية فإنه هو الذى ينصرنا . . فهو ولى نعمتنا .

دليل ذلك ما يلى:

١ ـ إذا كان عبيد الله بن جحش قد تنصر . . وسعد المغرضون هناك بهذه الردة زمنا . . فقد كان الرد الإلهى أقوى :

أ ـ فها هو ذا النجاش ملك الحبشة النصرانى . . كان هو بالذات وكيلا عن الرسول ﷺ فى زواجها بل إنه هو الذى أعطاها المهر أربعمائة دينار . . نائبا عن الرسول ﷺ . . بل وشهد على العقد . ثم أعد وليمة العرس.

٢ ـ وانتزع الإسلام من أبى سفيان شهادة كانت من تدبير الله عز وجل لا من تدبير أحد . . وذلك قوله تعليقًا على هذا الزواج (هل الفحل لا يجدع أنفه).

ومن علمها :

كانت قناة من قنوات المعرفة : حيث روت عنه ﷺ خمسة وستين حديثًا . .

وروى عنها خلق كثير : رجالا ونساء.

ومن حكمتها :

١ ـ فقد كانت رحـمًا لعثمان رضى الله عنه ، لكنها فضـلت أن تنأى بنفسها عن الفتنة التى انتهت باستشهاده رضى الله عنه.

٢ ـ بل إن الفتنة بين علىّ ومعـاوية رضى الله عنهما لم تجذبها لتلقى بنفـسها فى أتونها مع أن « مـعاوية » أخوها وربما كان الانـحياز إليهـما شكلاً من أشكال التفرق والتعصب ، فلم ترد أن تُرى داعية إلى الفرقة مائلة إلى التعصب.

ومن وفائها :

أنها لما حـضرتها الوفاة دعت عـائشة رضى الله عنها فقـالت : قد يكون بيننا وبين الضرائر : فغفر لى ولك ما كان من ذلك .

فقالت عائشة : غفر الله لك ذلك كله . .

فقالت لها أم حبيبة : « سررتنى . . سرَّك الله » .

وسلام على « أم حبيبة » فى الخالدين.

• • •

من سمات المجتمع المنافق

يقول الله عز وجل : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧] .

تمهيد :

إذا كان للمجتمع المؤمن سماته وقسماته . . فإن لمجتمع النفاق كذلك علاماته . . والتى توضحها الآية الكريمة على نحو نرى فيه المنافقين يمضون عكس تيار الإصلاح ، أمرا بالمنكر . . ونهيا عن المعروف . . ثم بخلا أنساهم الله . قبل أن ينسيهم عياله . . فى موجة من الأثرة وعبادة الذات يستشرى بها الداء . . فإذا الفسق شارة هذا المجتمع ودستوره .

الفسق الخارج به من دائرة الإصلاح . . منبوذًا هناك على جانبى الطريق اللاحب .

ثم يكون الجزاء فى النهاية : جزاء المنافقين والمؤمنين . . يكون من جنس ما كانوا يعملون .

وذلك قوله عز وجل : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] .

من سمات المنافق:

أ ـ يرفض النصيحة : وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم .

ب ـ يخاف : تدور أعينهم كالذى يغش عليه من الموت .

جـ ـ ظاهر رواء وباطن خواء : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون: ٤] .

د ـ يفرق بين الأحبه : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

هـ ـ ومن الفروق بيننا وبينهم : أنهم لا يتضلعون بماء زمزم : لا يعبون منه . ولا يحسون بشوق إليه .

و ـ والمنافق : يكره المجتمع كله . . وبخاصة الأخيار فيه : من تصدق بالقليل . قالوا : رياء : الله غنى عن صدقته ومن تصدق بالكثير قالوا : رياء . بينما المؤمن ينفق سراً وجهراً . . حبا منه للبذل ، . وتقديراً للمجتمع .

ز ـ المنافق يقول لك : وهو موقن أنه كذاب ويعاهدك وهم مصمم على نقض العهد وإخلاف الوعد .

وسر ذلك :

١ ـ أن المنافق : قد أناخ الجهل بكلكله فى عقولهم : ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . والحقد عشش فى قلوبهم « فهم لا يشعرون » .

ولهم فى الحياة نظرية وهى : ﴿ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ [المنافقون: ٧] .

ذلك بأنهم لا يعلمون أن فى قلوب المؤمنين ما هو أغلى من المال . . وهو العقيدة التى يهون فى سبيلها كل شىء .

ونحن بحكم الإيمان مأمورون بالتوحيد . . ثم بالوحدة مع الصادقين فى جبهة مؤمنة نتحدى بها الكفران .

نفاق الأمم:

ومن صور النفاق البغيض : ما يفعله الجبارون اليوم: إنهم يشعلون الحرب . . والتى بها يأكلون الأخضر واليابس . . ومع أنهم أقوياء . . إلا إنهم يحسون أنهم ضعفاء أمام سطوة الحق . .

ولأنهم ضعفاء . . فقد كانوا منافقين ، كانت الطائرة تتسرب . . ثم تحلق على ارتفاع منخفض . .

ثم تضرب الناس بالقنابل العنقودية . . فلا تذر من أب ولد أم أتت عليه إلا جعلته كالرميم .

فإذا بقى من بعد هؤلاء يتامى . . أنزلت عليهم نفس الطائرة « عناقيد العنب؟»!!

ولكن الذى حدث أن هؤلاء اليتامى فهموا اللعبة !

فرفضوا المعونة المدخولة . .

وفضلوا الموت الزؤام على أن يكونوا ضيوف حول مائدة اللئام !! .

أما بعد :

فإن الكافر فى الدرك السافل من النار لأنه عتيد . . جاحد . . غشوم . .

ولكنه عدو ظاهر . . فنحن نعد له عدته . . وننازله . . ونتقى شره .

أما المنافق :

فهو فى الدرك الأسفل من النار : لأنه : مخادع : غادر . . حقود.

إنه المرض الأخطر . . والذى يسرى فى البدن . . ولا نحسه.

ألا إن ألف عدو خارج البيت . . أهون من عدو واحد . . داخله !! وهبك وقيت السهم يأتيك ظاهراً فمن ذا الذى يقيك ما خفى؟!!

وقد قيل : لأن أكون بنصف وجه . . ونصف لسان : على ما فيهما من قبح المنظر . . خير لى من أن يكون لى وجهان ولسانان.

• • •

من سمات المجتمع المؤمن

يقول الله عز وجل : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١] .

تمهيد :

تحدد الآية الكريمة ملامح المجتمع المسلم . . والتى تبدو صورته من خلالها .

فهو مجتمع متناصح . . يتبادل أفراده النقد البناء : أمرا بالمعروف . . ونهيا عن المنكر . . يفر بهما المجتمع من عوامل الانحلال . . متسلحا بجميل الخصال .

وفى نفس الوقت : يحرص على أداء حق الله . . بالصلاة . . وحق عياله . . بالزكاة . . مضيا على طريق طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ . . ليكون بهذا الالتزام فى مساقط رحمة الله عز وجل : العزيز الحكيم .

وحتى يظل المجتمع كذلك . . عصيا على كيد الشيطان . . أبيا على كيد الأعداء . فقد كانت له ﷺ توجيهات تسدد الخطى . . وتمهد الطريق . .

ومنها : النهى عن كل ما ينقض ذلك . . ونقرأ فيه قوله ﷺ : « لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه . ثم يجلس فيه . ولكن توسعوا . وتفسحوا يفسح الله لكم » .

وهكذا : يحرص الإسلام على توثيق الروابط بين أفراد المجتمع توثيقا يجعلهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . ليكونوا فى النهاية كما وصفهم ربهم سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١] .

ثم هو فى نفس الوقت يجرد المجتمع من كل خصلة تورث الكراهية والحقد . . حفاظًا على هذا الصرح الممرد أن يظل راسخًا . . قادرًا على الصمود أمام مؤامرات أعدائه .

ومن هذه الخصال التى ينهى المسلمين عنها . . تلك العادة المرذولة . . والتى توغر الصدور حتى تثور .

ففى الأمكنة العامة . والتى لا يملكها أحد . . قد يحدث أحيانا : أن يأتيها رجل :

يشعر بأنه أكثر وجاهة . . أو أكبر منصبًا . . أو أكثر مالاً . . وأعز نفرًا .

وتحت تأثير هذه العوامل يحاول إثبات أن المباح لمن سبق ولكن الإسلام يقطع عليه الطريق . . مؤكدًا له أن هذه طبقية يرفضها الإسلام . .

وهى طبقية أشد فى آثارها من اغتصاب المال . . لأن هذا التصرف يعنى إهانة الإنسان . . الذى كانت كرامته أعز من المال ، والعيال . . والمنصب .

والمشروع هنا هو : أن يجلس حيث ينتهى به المجلس والأصل فى ذلك قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١] .

وهكذا تبدو روح الإسلام التى لا تهمل حتى ما نعدُّه نحن ضئيلاً . . مما لا نلقى له بالا . . بينما له أثره فى تبديل عافية الأمة . . وعلى المدى الطويل . .

وهكذا أيضًا . . تتراجع « أنا » . . لتحل محلها « نحن » لتتحقق الوحدة التى لا تقوى الأمة إلا بها . . ولا تغيظ أعداءها إلا بسلاحها .

ونذكر هنا قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩] .

فلابد على الطريق من رفقة الخير . . وأولئك هم الصادقون ، ولا يكفى أيها المسلم أن تكون منهم فقد تكون منهم : محسوبا عليهم لكنك فى الملمات تخذلهم . .

فكن معهم : شُدَّ من أزرهم ، فالصادق مع الصادق يشكلان وحدة . . تتجه إلى هدف واحد . .

أما الكذابان . . فهما متعارضان . . بل متناقضان . . بل يتناطحان!

وتلك سمة المجتمع المنافق !!

من هدى الرسول ﷺ :

وحرصا منه ﷺ على أن تكون الوحدة عملية كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .

فربما نزغ الغنىَّ من الشيطان نزغ . . فأحسن بأنه ما دام الأغنى . . فهو الأقوى . .

وربما أحس الفقير الضعيف بالهوان فى بيئة لا تقدرُ كرامة الإنسان قدرها . .

من أجل ذلك يؤاخى ﷺ بين الأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقراء . . وصولا إلى كيان واحد ، . تذوب فيه الفوارق :

حين يزايل الغنىَّ غرورُه . .

ثم يحس الضعيف بأن له فى المجتمع حضورًا ، عندئذ تضيق المسافة . . التى اختزلتها هذه المؤاخاة . .

لتكون الأمة فى ظلها كيانا كبيرًا له خطره . . وله كذلك هيبته فى أعين الأعداء الذين يحاولون ابتلاع الكيانات الصغيرة . . فلا يستطيعون .

وقد تجلت حكمته ﷺ وهو يحقق هذه المؤاخاة حتى تحقق آثارها فى عالم الواقع : كان عمه حمزة أخًا لمولاه : زيد وكان خالد أخا . . لبلال .

وكان زيد أميراً مقدمًا على ابن عمه جعفر فى غزوة مؤته.

وقد أمرَّ ﷺ « أسامة بن زيد » على جيش لغزو الروم . . فيه أبو بكر وعمر . .

بل إن أبا بكر استأذن أسامة أن يستبقى له عمر رضى الله عن الجميع .

ومن سنته ﷺ قوله : « **سلمان منا آل البيت** ».

وكان عمر يقول : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا ، بل إن بلالاً حاسب خالدا المنتصر حين وثقه بشال عمامته ؟

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

• • •

حدث فى شهر شوال

يقول الحق عز وجل : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨ ـ ١٤٠] .

والآيات المكرمة بيان كاشف : يزيل الشبه عن الناس جميعًا : المصدقين منهم والمكذبين . .

ثم هى إرشاد بالعمل . . وفيها ترقيق قلوب المتقين بالذات . . ليستقبلوا الأحداث بما يليق بهم :

فليس مع الإيمان وهن ولا حزن . . والتقوى تلزمهم بتحمل تبعاتها :

فليهتدوا وليتعظوا إن كانوا مؤمنين حقًا :

وليتأملوا أخْذ الله عز وجل لمن كان قبلهم من أهل الباطل . . وإن حققوا يومًا نصرًا خاطفًا .

ولا تهنوا فى جهاد أعدائكم الذين هم أعداء الله . . . فالله معكم عليهم .

وهم وإن ظهروا يوم أحد نوع ظهور . . فسترون إلى من يؤول الأمر .

أجل . . لا تهنوا والحال أنكم أنتم الأعلون : ذلك بأن الإيمان لكم صفة راسخة . ومن ثم لا تهنون : لأنكم بين إحدى الحسنيين : المآل السعيد . . أو أجر الشهيد .

غزوة أحد : دروس وعبر :

١ ـ قبيل الغزوة : كان رأى الشيوخ أن يبقوا فى المدينة . .

ولكن رأى الشباب كان محمولاً على موجات الحماس ،

فرأوا : الخروج إلى الأعداء . . لتدور المعركة على أرض مكشوفة ! ووافق

ﷺ على رأى الشباب :

أ ـ فهم الأكثر عددا . . من ناحية الكم .

ب ـ ثم من ناحية الكيف هم الأقوى . .

وهكذا برزت قيمة الشورى . . ليتحمل الجميع مسؤولية القرار .

٢ ـ فى نفس الوقت : تنادى الأعداء بالويل والثبور وعظائم الأمور :

أ ـ تواصوا ـ بعد بدر ـ بكتم أحزانهم . وعدم البكاء .

ب ـ ثم لم يستعجلوا فداء الأسرى . حتى لا يشعر المسلمون بأنهم ضعفاء .

جـ ـ تخالفوا مع المنافقين رغم اختلاف المعدن . مؤكدين القاعدة التى تقول: عدو العدو حبيب !!

د ـ تنازل الجميع عن أموال التجارة . . والتى نجا بها « سفيان بن حرب».

هـ ـ وعلى المستوى الفردى : جبير بن مطعم « يحرض » وحشيا على قتل حمزه. نظير تحريره من العبودية .

النساء يضربن بالدفوف محرضات . . بل واصطحب الأشراف نساءهم . . حتى لا يفروا إذا حمى وطيس المعركة.

و ـ ومن وراء ذلك كله : الإعدم ممثلا فى شاعرهم : أبو عزة الجمحى.

ورجوع ابن أبى بثلاثمائة مقاتل . . تثبيطا .

ز ـ ثم إشاعة موت الرسول ﷺ .

ولقد حقق الإعلام المعادى بعض النجاح . . ولكن الآى نزلت تترى فأجهضت هذا النجاح المؤقت . . من مثل قوله تعالى : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ ، ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾[آل عمران: ١٤١].

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾

[آل عمران: ١٤٤]. ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما..﴾ [آل عمران: ١٢٢]. ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير﴾ [آل عمران: ١٦٠].

جـ - بكى البكاؤون لما علموا بوفاة الرسول ﷺ .. لماذا ؟

لأنهم - وفى فورة الانفعال - خلطوا الرسالة بالرسول .. وكان عليهم أن يفصلوا بينهما :

فالرسالة .. باقية خالدة .

أما الرسول : فلأنه بشر .. فإنه يموت كما يموت سائر البشر:

ط - ولأنه بشر .. فإنه ليس مستثنى من سنن النصر والهزيمة : فقد شج وجهه . ورُمِى بحجر . فكسرت رباعيته . ثم وقع فى حفرة نصبها له عامر الفاسق.

هذا الفاسق الذى كان يسمى عامر الراهب . والذى كان يلبس مسوح الرهبان.. وفى قلبه غراب جارح .

ووقفت فاطمة رضى الله عنها تضمد جراح أبيها :

بما أحرقته من بقايا « حصير » قديم . فوقف نزيف الدم النازح من جسده الشريف .. واضعة بذلك أساسا من أسس الطب الحديث.

ى - كان هناك تنافس بين الغلمان على خوض غمرات القتال ..

تنافس أكّد أن أمتنا بالإيمان محتفظة أبدا بلياقتها العسكرية .. وأن إرادة القتال فيها تجرى فى عروقها دما ..

وتشتعل فى قلوبها شوقًا إلى الموت فى سبيل الله.. حتى على مستوى صبيان يزهدون فى « مجرد حياة » وصولا إلى دار هى الحيوان .. وإذا كانت الكليات العسكرية اليوم تشترط التفوق فى الرياضة فقد كان هؤلاء الفتيان واضعى هذا

الأساس .

ك ـ كانت هناك مخـابرات عامة بقيادة عمـه العباس رضى الله عنه . والذى كتم إسلامه وصولا إلي نجاح خطته . . وفى هذا من دروس الدعوة ما فيه :

أما بعد :

فقـد انتصر المسلمـون في بدر . . ثم هزموا فى أحد حكمـة منه عز وجل : فربما لو انتصروا لفجروا !!

• • •

حدث فى شهر شوال

تمهيد :

ظفرت بهذه السطور للمرحوم الشيخ « على الطنطاوى » فآثرت إثباتها كما هى . ليعلم شبابنا إلى أى حد نحن محتاجون إلى « تراحمنا » لندرك كيف كان علماؤنا ينظرون إلى الأحداث . .

قال رحمه الله فى كتابه « نفحات الحرم »:

صاح بى الدليل :

هيه . أنت يال كاتب ، اكتب : هذا أحد!

فصحت : إذن وصلنا ؟

فقال : ما قلت لك الظهر ؟ هذا أحد ، بقى نصف ساعة ؟

لم يكن يدرى الدليل الأعرابى أى ذكريات انبعثت فى نفسى حين قال : هذا أحد ! وأى عالم تجلى لعينى : رأيت المعركة قائمة ، والمسلمين ظافرين ، قد منحهم الله اكتاف العدو ، ورأيت الرماة إذ يزولون عن أماكنهم ، يبتدرون الغنائم، وخالدًا أحين يرتد بخيله على هؤلاء الذين عصوا أمر الرسول ، وغرتهم الدنيا ، ورأيت النبى ﷺ ثابتًا مثل أحد ، وحوله صحابته الغر الميامين يذبون عن الدين ويحمون حمى النبوة ، ثم أبصرت هندًا قائمة على جثة البطل السميدَع ، سيد الشهداء ، وكان قد أكل فى بدر كبدها ، فأرادت أن تأكل كبده ، فشقت عنها فاستخرجتها فلاكتها ، فلما وجدت بفيها صلادة الصوان لفظتها . وأبصرت النبى ﷺ واقفًا عليه يبكى ، فلما رأى ما مثل به شهق (بأبى هو وأمى) ولم يكن منظر أوجع لقلبه منه ، ثم قال : رحمك الله يا عم ، فلقد كنت وصولاً للرحم ، فعولاً للخيرات ، فوالله لئن أظفرنى الله بالقوم لأمثلن بسبعين منهم ، فما برح حتى هبط عليه الوحى فقام يتلوقول الله جل وعز : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦] .

فانصرف ﷺ وقد صبر وعفا . ورن فى أذنى صوت أبى سفيان يقول : أعل هبل ، فتلفت ، فما رأيت هبل ، ولا شيعة هبل . وإذا هو قد درج مع من درج، لم يبق إلا الله الأعلى الأجل ، ثم سمعت صوت أبى سفيان ، يرن فى أذنى مرة ثانية ، يخرج من هناك من أرض الشام ، التى فتحها لهم سيد العالم ، قويًا شديدًا ، ينادى فى المعركة الحمراء ، بصوت سمعه كل من فى اليرموك : «يا نصر الله اقترب ، الثبات الثبات ، يا معشر المسلمين » فثبتوا وجاءهم النصر وملكوا سورية من أقصاها إلى أقصاها ، فهى لهم ولأبنائهم إلى يوم القيامة ، ورأيت مئات من مثل هذه الصور ، فأحسست كأنما انتقلت إلى العهد الأول ، أشهد هبوط الوحى ، وأرى جلال النبوة وعزة الإسلام .

ونظرت ، فإذا أحد لا يزال بعيدًا ، يعترض هذا الوادى الذى نسير فيه مشرقًا بهيًا ، تومض عروقه المختلفة الألوان ، من الأخضر البهى ، إلى الأحمر المشرق، إلى الأزرق اللامع ، فتمتزج هذه الألوان وتختلط ، فيكون لها فى العين أبهى منظر ، وفى القلب أسمى شعور ، فازداد بى الشوق ، فأقبلت أحث السائق وأستعجله ، أود لو تطوى له الأرض طيًا ، أو يطير بنا إلى المدينة طيرانًا ، فلا أرى السيارة تريم مكانها ، وأجد أحدًا لا يزال بعيدًا ، فأعود فأستحث السائق . . ومالى لا أسرع إلى أحد وأحبه ، وقد قال رسول الله ﷺ : « **أحد جبل يحبنا ونحبه** » ، ومالى لا أزداد شوقًا إلى المدينة ، وليس بينى وبينها إلا ربع ساعة؟

وأعظم ما يكون الشوق يومًا إذا دنت الخيام من الخيام.

• • •

الفريضة الحج : الجامعة .. المانعة

تمهيد :

يقولون : إن القافلة إذا ضلت الطريق . . واحتوتها شعاب الوادى ،فعليها - إذا أرادت الوصول إلى الهدف المأمول . . عليها أن تعود إلى نفس النقطة التى بدأت منها السير . . فلعلها أن تحدد الوجهة من جديد . . لتصل إلى ما تريد . . متسلحة بالوعى بمخاطر الطريق . . وضرورة اختيار السبيل القاصد . . الواصل بها إلى ما تريد من المقاصد .

قالت نفسى : وها نحن أولاء ندخل فى أشهر الحج المعلومات . . فإلى أى حد كانت هذه التجربة سبيلنا إلى حج مبرور وذنب مغفوراً ؟

وقلت لنفسى : إنه إذا كان ذلك حقًا . . مع القافلة الصغيرة . . المحدودة الهدف . . فكيف إذا تعلق الأمر بقافلة البشرية . . والتى ضلت طريقها اليوم فضاع من أقدامها الطريق ؟! . . ولم تصل إلى هدفها الأكبر وهو : الوحدة . . المشتقة من التوحيد ؟!!

إن عليها أن تعود إلى نفس النقطة التى بدأت منها المسير إلى أكرم مصير : إلى بيت الله الحرام . . إلى قلب الكون الكبير والذى كان ولا يزال كما يقول المودودى يسحب الدم العكر من عروق الكون . . ثم ينفخه من جديد : نفيًا صافيًا !

إلى القرآن .. من جديد:

ولم تطل حيرتى . . عندما مددت يدى إلى المصحف الشريف . . فى محاولة للإمساك بالخيط . .

وإذا كان هناك فى منادح الظلام من يختار « الهوامش » فلماذا لا نتخذ «المتن» ركوبنا إلى المقصد الأسنى؟

فماذا فى القرآن من دليل .. يمضى بنا على سواء السبيل ؟

القرآن طوق النجاة:

تأملت سورة الفاتحة .. فإذا أنا .. وأنت ، والآخرون نكرر من آياتها قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦].

وبعد هذا « التكرير يجىء » « التقرير » هكذا : خذ طريقك فى الصحراء .. يا جملى .. وهذا دليلك : ﴿ الم ① ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١، ٢] .

من هنا .. كانت البداية :

يقول الله عز وجل فى سورة البقرة .. وفى أول حديث عن البيت : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ...﴾ الآيات [البقرة:١٢٥ ـ ١٢٨].

من الحب .. إلى الاحترام:

إنه البيت .. وليس مجرد بيت .. ليس « نزلا » يكون النازل فيه .. سحابة الصيف .. وإنما هو القرار .. والاستمرار :

زيّنة سبحانه لهم .. فمالوا إليه شوقًا .. فكان لهم مثابة .. ثم أضفى عليه من الجلال ثوبا .. فكان لهم أمْنا ..

أمْنا سابغا .. ضافى الذيل :

أ ـ أمْن لأهله .. بينما يُتخطف الناس من حولهم .

ب ـ أمْن لمن حجه من عذاب الآخرة .. لأن الحج يجبّ ما قبله .

جـ ـ يأمن فيه .. حتى « الجانى » الملتجئ إليه . وحتى يخرج من حِماه.

قيمة البيت:

وتخصيص الله تعالى ذلك البيت بالنسبة إلى ذاته المنزهة عن صفات الأجسام. . ليس لخصوصية فى موقعه ولا فى أحجاره . .

وإنما كان بيتًا لله ؛ لأن الله تعالى سماه بيته ، وأمر بأن يتوجه إليه المصلون . وبأن يُعبد فيه عبادةٌ خاصة . .

والحكمة فى ذلك :

أن البشر يعجزون عن التوجه إلى موجود غيبى مطلق . لا يتقيد بمكان . ولا ينحضر فى جهة.

وهم فى حاجة إلى التوجه إلى خالقهم وشكره . والتوسل إليه .

والثناء عليه : واستمداد رحمته ومعونته . لما فى ذلك من الفائدة لهم . ليرفع نفوسهم عن الرضا بالحياة الحيوانيه.

فله الحمد والمنة : أنْ عيَّن لهم مكانًا : نسَبَه إليه . . فسماه بيته رمزًا إلى أن ذاته المقدسة تحضرة :

فإذا كان الحضور الحقيقى محالا عليها . . فإنها تحضره رحمتهُ الإلهية .

ولذلك كان التوجه إليه بمنزلة التوجه إلى الذات العلية [1] .

إنه إذن بيت الله . . لا بيتُ أحد . . حتى من مَنْ بناه . . فهو لا يملكه . .

عهد الله تعالى ـ صاحبُ هذا البيت ـ إلى عبدين صالحين من عباده : أن يقوما بتطهيره . وإعداده للطائفين . والعاكفين والركوع السجود . . أى . . للحجاج الوافدين . .

والعاكفين من أهله فيه .

---

(١) المنار (٥/ ٣٨٠).

والذين يُصلون ويركعون ويسجدون .

وينتهى ذلك الشوط . . فى أول سورة . . وهى سورة « البقرة » مُنشئا فى قلوب المؤمنين مشاعر الولاء . . والانتماء . . والحب . . للبيت . . ورب البيت . سبحانه وتعالى . ليكون ذلك تمهيداً الخطوة التالية . . والتى جاءت فى السورة الثالثة فى ترتيب النزول « آل عمران » . . والتى يكون الحديث فيها عن فرض الحج . حديثًا جاء فى أوانه . . وبعد أن مالت النفوس إليه . . ثم أقبلت عليه .

• • •

من بركات البيت

يقول الله عز وجل فى سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وإذا كانت آيات سورة البقرة تحدثت عن عظمة البيت وقيمته . .

وأنه قد أُعِدَّ بإذن الله لاستقبال الوافدين من كل فج عميق . .

فإن آيات سورة آل عمران هذه تذكرّنا بأنه إذا كان هو « البيت » فهو أيضًا فى سلّم الأولويات : أولُ بيت وضع . . ليسع الناس جميعًا :

إنه بيت وسيع . . وسيع . . مستعد لاحتواء الناس جميعًا . . فاتح ذراعيه لاستقبالهم . . مهما كانت أعدادهم . .

وإذا كان بطن الأم . . يتسع للجنين : كلما كبِر وتَمدد . . فإن هذا البيت . . فى مكة « أمّ القرى » يتسع أيضًا . . ليضم إلى جناحاه الناس . . كل الناس:

أجل : كل الناس . . الذين كان لهم مثابة . . وكان لهم أمنا . . وفوق ذلك . . كان رمزًا لعقيدة التوحيد . . التى هى أعظم النعم جميعًا . . والتى وسعت البشر جميعًا . . فشملتهم بركتها التى فى رحابها ينعمون .

الناس : من شرق الأرض . . وغربها . . ومن جنوبها وشَمالها .

ثم هو محروس من هجمة الطغاة :

فهو ببكة التى تدك أعناق الجبابرة .

وهى بكة : من التباكّ : الازدحام . . التى يزرحم الناس فى أرجائها ازدحامًا لا يكون فى غيرها مثلُه ولا قريبًا منه . مما يضاعف الأمل فى أن يدُق هذا المبنى أعناق كل من ناوأه . ويزدحم الناس على دخول دينه ازدحامًا لم يُعهد مثله .

ثم هو : مبارك : كثير الخيرات . .

يتوِّج ذلك كلَّه أنه : هدى : هدى تذهب النفس فى تصوره كل مذهب . .

ومن هديه : مقام إبراهيم .

أ ـ تأثير القدم . . فى الحجر .

ب ـ ثم حفظه هذا الزمان المتطاول .

ثم إنه آية بينة : يحيلهم ربهم تعالى إليها : إلى شىء ظاهر يرونه بالعين المجردة . . ولا يُعنتهم بتكليفهم بما لا يستطيعون .

قيمة الأمن :

ومن الآيات البينات : هذا الأمن السابغ والذى لا نُحسُّة . . حتى وأنت فى بيتك : فمع أن الوادى ليس فيه حاكم رادع : يُفزع إليه فى الملمات . .

ولا رئيس يعوَّل عليه . . فهو عرضة للنَّهب والسلب ـ ومع ذلك :

﴿ ومن دخله كان آمنًا ﴾ . والأمين : أسكن للخواطر . وأجمع للفكر . . وأعون على التركيز . . وهذا البيت . . وإن كان لكل الناس . . إلا إنه منسجم مع طبيعة العرب خاصة وهى :

أن عاداتهم : زيادة منازل الأحباب . . والوقوفُ على الأطلال . . الأمر الذى يجعل من العرب طليعة الركب . . وفَرَطَ المشتاقين .

أبعاد هذا الأمن:

إنه الأمن « المطلق » الشامل :

أمْن الجماد . . فنحن نقبل الحجر .

أمْن النبات . . فلا يُقطع .

أمْن الحيوان . . فلا يصطاد .

أمْن الإنسان . . فلا يؤذَى .

ذلك بأن الجماد .. والنبات .. والحيوان .. أمم مثلنا : تسبح مثلنا : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ [الإسراء: ٤٤] .

وهكذا .. لأن الكون كله يضج بالتسبيح .. فهو لذلك على غاية ما يكون الأمان ..

وفى هذا الجو الطهور .. ماذا يحدث ؟

تتلخص نفوسنا من الأعشاب الضارة : من التوتر .. ومن الانحراف .

وعندئذ .. تكون فى لحظة إخصابها : قابلة للزراعة .. فتُلقى فيها بذور الطاعة ..

وإذا كان النجاح يولِّد النجاح .. فإنه كلما مارس المسلم الخير .. صار خيِّرا .. فى إطار من نشاطٍ مبارك .. مُبصر : واضح الرؤية .

متبصر : متبصرٍ .. فى العواقب ، يتجنب الإفراط .. فى تألقه .. والتقصيرَ .. فى لحظات ضعفه !

الحقائق : تعرض .. ولا تفرض:

ومع هذا الرزق المضمون : ماديًا ومعنويًا .. فقد كان المتوقع فرض الحج إلى هذا البيت بلا استثناء وصولاً إلى هذا الرزق بشعبتيه ..

ولكن الرحمن الرحيم يخفف عن عباده .. فلا يوجب الحج إلا على المستطيع .. ومن دروس ذلك : وللدعاة بالذات : أن كونك على الحق لا يعنى أن تفرضه .. وإنما قصاراك أن تعرضه : أن تزيِّنه .. فمن شاء فليؤمن .. ومن شاء فليكفر ..

إن فى الحج منافع .. تعود على المسلم نفسه:

فإذا لم تحج : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢] ، ﴿غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧] ،

﴿ وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ [التغابن: ٦] ، ﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ [يونس: ٦٨] ، ﴿ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥] .

وإذن : فالذين عجزت إرادتهم عن اتخاذ قرار الحج .. مع استطاعتهم مع كل هذه المغريات والمرغبات .. فهم أعداء أنفسهم ..

وعلى الذى حرم نفسه .. فرفض الدعوة إلى حضور هذا المؤتمر العظيم .. عليه أن يتحسس وجوده .. ليسعلم : هل بقى له وجود فى هذا الكون الكبير بعد هذا الجحود وهذا التحدى ؟!!

• • •

الذين يموتون قبل أن يموتوا !

ومن هذا : الذى مات . وقيل أن يموت !!

ذلكم هو الذى رفض ما تقضى له مصلحته . . وقيل ذلك تنكر لما تهفوا إليه فطرته ؟! حين دُعى إلى الحج فلم تنهض به همته . .

ذلك بأن زيارة البيت وإن لم تُفرض حجًا . . فإن شحنة الأشواق دافعة إليه . . ورائحة التاريخ دافعة إلى حيث بدأت القافلة تسير ! على ما يقول صاحب الظلال : إن الحج مؤتمر المسلمين السنوى العام :

يتلاقون فيه عند ذالبيت الذى صدرت لهم الدعوة منه . والذى بدأت منه الملة الحنيفية على يد أبيهم إبراهيم .

والذى جعله الله أول بيت فى الأرض لعبادته خالصًا : فهو تجمع له مغزاه . وله ذكرياته هذه . التى تطُوف كلها حول المعنى الكريم . . الذى يصل الناس بخالقهم العظيم : معنى العقيدة : استجابةُ الروح لله . الذى من نفخة روحه ثار الإنسان إنسانا .

وهو المعنى الذى يليق بالأناس أن يتجمعوا عليه .

وأن يتوافدوا كل عام . إلى المكان المقدس . الذى انبعث منه النداء للتجمع على هذا المعنى الكريم .

وتأمل معى هتاف اللحم الطرى . . إلى اللحم الطرى : هتافَ الشاعر ـ ابن الملّوح ـ حنينا إلى أطلال الماضى :

أمر على الديار ديار ليلى أقبلّ ذا الجدار . . وذا الجدار

وما حب الديار شغفن قلبى ولكن حب من سكن الديار!

ثم تأمل مرة أخرى وفاء العاشقين للعهود أن ينقضوها . .

لا . . لا أبوح بحب بثنة : إنها أخذت علىّ مواثقًا وعهودًا

تأمل هذا . . ثم اضرب كـفًا بكف . . بل كبرٍّ أربعًـا على قلب مات خلف الضلوع . . فلم يكن به شـوق إلى البيت الذى هيأه الله تـعالى . . وهو مسـتراد الأمل . . ومهوَى الأفئدة !

الحج .. الجامع .. المانع :

حقًا إن الحج جامع . . ومانع . . معا :

أما أنه جامع . . فلمـا يثمره من ثواب يساوى ثواب غـيره من الفرائض . . مجتمعة :

فالصلاة : تنهى عن الفحشاء والمنكر . .

والصيام . . سبيل إلى تحصيل ملكة التقوى . .

والزكاة : تطهير للنفس وتزكية .

والحـج : يحتوى على هذه المقاصد جميـعًا . . فأنت به تضرب مجموعة من العصافير . . وبحجر واحد !

فمن الناحية الأخلاقية : ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ثم هو محقق للتقوى : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧] .

إلى جانب نفقـات الحج التى قد يستدين الحاج من أجل فـريضة قد لا تكون فرضًا عليه . .

« الحاجّ »: ذلك القوس المشدود !

ألا إن مقياس الوجود الإنسانى . . علـى مقدار ما يلاقى من مشاق . . وهى مشـاق تنفيذ إلى أعـماق المسلم . . ثم تأخذ بزمـامه صاعـدة به إلى « فرق » من خلال انصّهاره فى بوتقة الآلام : لقد كـان المسلم الحاجّ من قبل . . كان كحارس الطاحونة : ينام على وقع الثور الرتيب . . ثم إذا به يستيقظ عندما يتوقف الثور :

عندما يخرج من رتابة العادة . . ليجد نفسه ، لا هذا الفتى المدلل : الذى يؤذيه لمس الحرير . . وتزعجه هَبة النسيم .

وإنما هو ذلك الملاح الذى يخوض المحيط المتلاطم الموج . . والذى يطمئن على الشاطئ الآخر . . مثل القوس المشدود : ينتظر السهم استعدادًا للانطلاق!

يحدث ذلك . . بينما المستطيع الخانع الخاضع لهواه ، مثلُ ورد النيل :

يطفو على ماء آسن : فهو لا يجرى . . ولا يروى!

الوجود .. الممتد:

ولك أن تغمض عينيك . . ثم تخيَّل وجود الحاج الممتدَّ والذى يملأ الفضاء طولا وعُرضا . بما يحصِّل من ثواب .

وما يحقق من منافع :

إنه يمارس رحلة تربوية . . بما فيها من ضوابط ثم هى رحلة علمية فى نفس الوقت : بما فيها من تجاريب : تتلاقح بين أجناس مختلفة . . تزداد بها خبرة الحاج : عمقا واتساعًا . .

والمنافع .. المشهودة هى:

أ ـ الانتماء . . لا للوطن . . وإنما للأمة الأعظم.

ب ـ متجاوزا حيِّزه المحدود . . وثقافته المحدودة . .

وإذا كان رسوله ﷺ بُعث « رحمة للعالمين » فقد صار بالحج مواطنًا عالميًا . .

جـ ـ ثم إن الصلاة . . بمائة ألف صلاة . .

د ـ وماء زمزم . . لما شرب له .

هـ ـ الإحساس المريح بأنك فى البلد العظيم . . الذى أقسم الله تعالى به فقال عز وجل : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ [البلد: ١] .

و ـ إلى جانب هذه المنافع الدينية . . والاجتماعية . . فهناك المنافع السياسية . . التى تفرض احترامنا على الآخرين . . حين يشاهدون هذا الجمع الحاشد . . والذى فرض عليهم أن يقولوا : هذا جيش . . لا يصمد أمامه جيش!

وذلك كله . . ما تكفلت ببيانه آيات سورة الحج : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج : ٢٧ ـ ٢٩].

أما بعد :

فإن المنافع فى الحج : مشهودة : إنها بين أيدينا . . وليست فى أيدينا . . وواجبنا أن نستعد بالحج للفوز بها . . وإنا لفائزون بإذن الله.

● ● ●

الحج

من المبانى .. إلى المعانى :

هذا الموكب الهادر .. الآتى من كل فج عميق : تسيل به الوهاد والنجاد.

هذه النفوس التى كانت بالأمس : قلعة .. متوترة الأعصاب .. تتجه اليوم إلى المنبت الخصيب : إلى التربة الصالحة .. والجو الملائم ..

حتى تبسق منها فروع .. وتنبت من كل زوج بهيج . ما الذى يجعلها كذلك؟

هناك اتهامات « معلَّبة » جاهزة . يطلقها المغرضون حول مشاعر الحج .. الذى ظنوه رجعة إلى الوراء : إلى عبادة الأحجار ؟

أنها تهم .. مرتدة .. مردودة .

ألا إن المسلم لا يعظم الحجارة :

وإنما يعظم ما ترمز إليه من معان وقيم .. تصب فى أعصابه قوة .. وتضخ فى عروقه دما .

ألا وإن الذى يعظم « علم بلاده » لا يعظمه لأنه قطعة من النسيج « وإنما لما يدل عليه » .. ويرمُز إليه.

إن الحَجَرَ فى منىً : رمز للشيطان..

وهو فى الحرم : رمز للإيمان ..

وإذن .. فلا قيمة للحَجَرِ فى ذاته .. وإنما لما يرمُز إليه من قيم ومعان .

لم يكن الحج .. سياحة :

إن رحلة الحج ليست رحلة « سياحية » بالمعنى المعروف اليوم ..

وإنما هى رحلة : تربوية .. وعلمية .. كما قلنا :

فالناس المدعوون : على مستوى القارات . . وعبر القرون : مكلَّفون بالاجتماع فى عرفات . . اجتماعًا تتحقق به الوحدة .

ولذلك . . لا تصح الأناية فيه . . ولابد من الالتزام بمكانه وزمانه . . فإنه الحج !! « الحج عرفة » .

دين الوحدة .. والقوة :

أجل . . إنه دين الوحدة . . وبشهادة الخصوم : والذين قالوا : « ليس هناك دين يجمع من أهله هذا الكم الهائل إلا الإسلام » .

وفى عرفات . . وبالطواف حول البيت . . يحس المسلم بالقوة . . على نحو يُشعر غيرنا بهذه القوة . . وهو معنى أن الحج جهاد . . من حيث نُرِى خصومنا من أنفسنا قوة . . بحيث لا يكون قتال بالمرة . حين نحقن بالحج دماء الإنسان حيثما كان .

وإذا كان هناك من دماء . . فهى دماء الأضاحى . . والتى تعنى : إراقة دماء الرذيلة . . التى تعلوها الفضيلة اليوم . . وإلى الأبد .

الجمال الحقيقى :

وإذ يبدو الحاج على غير هيئته المعتادة . . فإنه يذكرنا « بخُلوف » فم الصائم الذى هو أطيب عند الله من ريح المسك : إن « غبرة » الحاج . . جمال . . وشَعثه : وقار . .

الطواف .. والكون :

فإذا انضم الحاج إلى زميله . . طائفًا حول البيت . . فهو عضوٌ عامل فى هذا الموكب الضخم الفخم :

والذى يطوف سعيا على الأرض . . وفى نفس الوقت . . هو يساوق خطى موكب آخر هو : موكب الملائكة من فوقه . . وهم يطوفون بالبيت العتيق .

وعندئذ يتنامى إحساس الحاج . . الذى يشعر بأنه كائن كونى !!

وأنه ـ فى هذا المكون ـ ليس وحده . . شريطة أن يكون أهلاً لذلك بتحقيق ما يرمُز إليه بياض الإحرام . . من الحب يعمر به قلبه . . فى محاولة لانتزاع النفس من طين الأرض إلى قيم السماء .

وما يشير إليه « عرفات » من ترفع عن المغريات . .

وما يشير به « الرمى » من صدق العزيمة على رفض الشر . . بل واحتقاره ! بحيث تسفر الشعائر المتعددة شعوراً واحداً . . بالقوة . . والاعتزاز . . بهذا الدين الذى أكرمنا الله تعالى به . .

الرزق المعنوى :

وبهذا الرزق المعنوى الضخم . . يعود الحاج إلى بيته من الرحلة المباركة . . مضمومًا إليه غفران ذنوبه ليعود إلى مثل حاله كما ولدته أمه : صفحة بيضاء . . هو مكسب لو تعلمون عظيم . . وفرصة لا يتوفر خيرها العميم إلا لمن حج البيت بعدما ما استطاع إليه سبيلا .

وإذا كان من يطلب الدنيا . . يطلبه الموت حتى يخرجه منها . . فإن من طلب الآخرة . . سوف تلح الدنيا فى طلبه حتى يستوفى رزقه منها . .

وتلك بركة من بركات الحج . .

مسؤولية الأمة :

وإذا كان موسم الحج يذكّرنا بما قاله الله عز وجل وتلاه الرسول ﷺ فى حجة الوداع : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ... ﴾ [المائدة: ٣] .

فإن ذلك البيان الإلهى . . يحمّل الأمة مسؤوليتها . . ليستمر هذا الدين كاملا . . وتظلَّ النعمة تامة . . والإسلامُ مرفوعَ اللواء . .

الأمل فى نصر الله:

وإذا كان الواقع اليوم . . يبدأ وليلا أرخى سدوله . . فإننا بالأمل . . وبالعمل . . سوف نضىء منادح هذا الليل البهيم : ذلك بأن أظلم أوقات التاريخ هو الوقت الذى يسبق فجر اليقظة بقليل من السنوات . .

ثم تأتى اليقظة فى حينها :

وهذا هو عيدنا الأكبر

ثأر ألوف الشهداء ومـلايين الضحايا الأبرياء

ومأس اللاجئين الغرباء وبطولاتُ الجنودِ الشهداء

• • •

مكة المكرمة

البلد الحرام :

يقول ﷺ : « إن هذا بلد: حرَّم اللهُ يوم خلق السماوات والأرض .

وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة .

وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى .

ولم يحل لى إلا ساعة من نهار .

فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة: لا يُعضد شوكه،

ولا يُنفَّر صيده .

ولا يَلتقط لقطته إلا من عرّفها .

ولا يُختلى خلالها .

قال العباس : إلا الأذخِر . . فإنه لِقَيْنهم . ولبيوتهم . قال : **إلا الإدخر**» .

تمهيد :

من خصائص مكة : **ألا يحارَب أهلها** : فلو بغوا على أهل العدل ؛ فإن أمكن ردهم بغير قتال . . لم يجز [1] .

وقد أكد الرسول هذه الحرمة . . طبق سنته ﷺ فى الأمور المهمة التى كان يذكرها ثلاثًا . . والثلاث المؤكدات هنا هى :

١ ـ فهو حرام بحرمة الله .

٢ ـ فهو حرام حرمه الله .

٣ ـ ولم تحل لى إلا ساعة من نهار .

---

(١) فتح البارى .

ومن مظاهر حرمتها : لا يُختلى خلالها :

وهو الرطب من النبات واختلاؤه يعنى : قطعه ، واحتشاشه .

أما اليابس .. فيجوز رَعْيه واحتشاشه . . لأنه كالصيد الميت .

إلا الإذخر:

والإذخر : نبت معروف عند أهل مكة : طيب الريح ، به أصل مندفن وقضبان رقاق : ينبت فى السهل والحزن . .

وأهل مكة يسقّفون به البيوت بين الخشب . ويسدّون به الخلل ، بين اللبنات فى القبور .

ويستعملونه بدلا من الحلفاء فى الوقود .

ولهذا قال العباس : « فإنه لِقَيْنهم ». و« القَيْن» هو : الحداد .

من ثمرات الحديث :

١ ـ جواز مراجعة التلميذ للأستاذ . فيما يفيد شرعًا.

٢ ـ عناية الإنسان بوطنه . وحرصه على مصلحته . . كما يفهم من مراجعة العباس رضى الله عنه . وحب الوطن من الإيمان .

يقول الأستاذ « حمد الجاسر »:

ولقد كانت مكة ـ وما تزال ـ نقطة التقاء ومركز تجمع لجميع المسلمين من مختلف الأقطار الإسلامية ، ولهذا كانت من أقوى مراكز نشر الثقافة بين تلك الأقطار، وكانت صلة وصل بين علماء الأقطار الإسلامية فى شرق البلاد وغربها، وشمالها وجنوبها ، فى مختلف العصور الماضية ، ومع انصراف العلماء وغيرهم عن الجزيرة العربية بعد الهجرة بما يزيد على نصف قرن من الزمان ، أى منذ انتقال مركز الخلافة منها ، وبانتقال الخلافة والسلطان والدولة تنتقل الرغبات وتتجه الأبصار وتتركز الآمال ، حيث يوجد الملك والسلطان ، اللذان بهما تتيسر سبل

الحياة وتحصل الطمأنينة والهدوء فى كنفهما ـ مع ذلك الانصراف ، فإن مكة المكرمة لها مكانة دينية فى نفس كل مسلم ، تجعلها دائمًا ـ ما بقى المسلمون ـ مطمح أنظارهم فهى ـ فضلاً عن كونها تضم مشاعر الحج ـ وفيها بيت الله المعظم، الذى فرض الله حجه على كل مسلم بالغ قادر ، هى ملتقى للمسلمين من مختلف أقطارهم ، وهم بحكم دينيهم الحنيف ـ لا يمكن أن ينصرفوا عنها ، ولهذا فقد أصبحت منذ جاء الإسلام مركزًا للثقافة الإسلامية العربية ، يجتمع فيها من العلماء فى كل عام ما لا يجتمع فى أية مدينة أخرى من مدن الإسلام .

وكان العلماء فى العصور الأولى يقصدونها من مختلف أقطار العالم الإسلامى ، ليؤدوا ركنًا من أركان دينهم ، أداؤه فرض ، وليضيفوا إلى ذلك أمورًا . من أهمها التزود بزاد العلم والمعرفة ، فالعالم يفد إليها من أقصى المشرق أو المغرب فيلتقى بعالم آخر من بلاد بعيدة عن بلاده ، فيحصل من هذا الالتقاء تقارب وتفاهم . واستزادة علم ، وامتداد لروافد المعرفة ، وانتشار للأفكار بين مختلف الأقطار الإسلامية ، ولقد كان علماء الأندلس يفدون إلى مكة ، لا للحج وحدة ، ولكن لينشروا علمًا وليستزيدوا منه ، وليكونوا صلة بين شرق البلاد وغربها بالعلم والثقافة . ا . هـ.

• • •

مكة فى قلوب العاشقين

يقولون: إن الأمكنة التى نحب . . ليست جلاميد قدّت من صخر ، إنها بعض تاريخنا : بعض ذاكرتنا : إن أحدًا ليس كغيره من الجبال : إنه جبل يحبنا ونحبه .

فإذا كان ذلك المكان هو « مكة » . . فإن له فى وجداننا مذاقًا خاصًا . . بما يثير من وجد لا تخبو ناره . . وحنين لا يقر قراره . . حتى عينيك بها . . وتشحن فؤادك بطاقة الإيمان فى ربوعها . .

وإذا نجح الشعراء فى نقل « جغرافية المكان » فلن يستطيعوا تزويدك بطاقة الإيمان .

فليس من شأن هذه الأمكنة أن تمر بالذاكرة مرًا عابرًا . . ولكنها تشعل فينا ضروبا من الحنين . وتستقر فى النفوس كامن الأشواق.

وحتى فى الجاهلية الجهلاء . . كان لمكة المكرمة عظمتها . . التى تواصى الناس بها : ومن هؤلاء تلك الشاعرة الجاهلية « سبيعة بنت الأحب » ، والتى وصت ابنها « خالدًا » بتعظيم حرمة مكة . . وتنهاه عن البغى فيها :

ابنى : لا تظلم بمكة ... لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بنى ... ولا يغرنْك الغرور
أبُنى : من يَظلم بمكة : ... يلق أطراف الشرور
أبُنى : يُضرب وجهه ... ويلج بخديه السعير
ابنى : قد جربتها ... فوجدت ظالمها يبور
الله أمَّنها وما ... بُنيت بعرصتها قصور
والله أمّن طيرها ... والعصم تأمن فى ثبير
ولقد غزاها تبَّع ... فكسا بنيتها الحبير

وأذل ربـــى ملكـــــه فيهـــا . . فأوفى بالنذور
يمشـــى إليهـــا حـــافيـــاً بفنائهـــا ألفـــا بعيـــر
ويظـل يطعـــم أهلهـــا لحـم المهـارى والجـزور
يسقيهم العسل المصفـى والرحيض من الشعيـــر
والفيل : أهلك جيشـــه يرمَون فيهـــا بالصخـــور
فاسمع إذا حُدِّثت وافهم كيـف عاقبـــة الأمـــور

على جناح الشوق:

ودون الشعراء جميعًا . . كان « إقبال » ينقل ما فى قلبه إلى قلوبنا :

لقد كان الشاعر « إقبال » يحن إليـها . . ولكن المرض حال بينه وبينها فسافر إليها بخياله فقال : رحلت .

رغم شيـبى وضعفى . . أنشد أشـعارى . . فى سرور وحنين فـلا تعجب : فالطائر يحلق طول نهاره فى الصحراء والبوادى فإذا أدبَر النهار . . وأقبل الليل . . رفرف بجناحيه . . باحثا عن وكر يأوى إليه !

ما أسعـد المسافر الذى لا يحمل متـاعا : فتح الصدر بآهاته المحـرقة ، فآهة واحدة من آهاته تقضى على حزن مائة عام !!

المسلم . المكبلّ فى قيد الإفرنج: قلبه بداخله : مضطرب قلق : الجبين الذى وضعته على باب الغير لا يأتى بسجود « أبى ذر » «وسلمان».

لا أبغى هذا العالم أوذاك : فـيكفينى أن أعرف سر الروح ، أعطنـى سجودا أجلب بحرقته ونشوته الوجد للسماء والأرض .

قلت للناقة وقت السحر :

تهدِّ فى سيرك : فالراكب مجروح . ومريض ، وعجوز .

فسارت تخطو كسالسكران : حتى إنك تظن أن رمال الصحراء أضحت تحت قدميها حريرًا : شد اللجام . . أيها الجمّال :

فروحها بصيرة كروحنا .

عرفُت من تموجات سيرها أنها أسيرة مثلى . داخل طلسم القلب .

ما أجمل الصحراء التى تمضى فيها القوافل . وتتلى الصلوات فاسجد على رمالها المحرقه .

وأحرق الجبين . . حتى يبقى عليه الأثر . ما أجمل الصحراء .

فمساؤها صبح بسام :

ليلها قصير . . نهارها طويل .

خفف الوطء أيها السائر . . فإن كل ذرة من رمالها : محزونة . مهمومة . مثلنا .

لن أحكى عن عظمة مضت .

وعن قوة ذهبت وضاعت .

فأى فائدة فى شرح الأحوال الماضية ؟!

كان لى مصباح فى صدرى : انطفأ فىَّ فى مائة عام مضت .

وضعنا جبيننا لغير الله . . وغنّينا فى حضوره . . كالمجوس . .

لا أبكى على غيرنا .

بل أبكى على أهلنا . . إذْ لم نعد لأبقينّ بمقامك .

أنا مسلم غريب عن كل دار

ليس لى شأن بأولئك الخالدين ضعت : أصبحت بلا حول . . بلا قوة فقد اتجهت إلى غير الله .

فى ظلال البيت الحرام

من خصائص الكعبة المشرفة:

١ ـ لا تبنى العرب بيتًا مُربّعًا تعظيمًا لبيت الله عز وجل : (وكان ذلك فى الجاهلية).

٢ ـ ومع أنه بواد غير ذى زرع . . إلا أنه حافل بكل ثمرات الأشجار والزروع.

٣ ـ لا يسقط على الكعبة إلا الحمام العليل . . أما الصحيح : فلا . . .

٤ ـ إذا حازت الطيور الكعبة تفرقت فرقتين . . ولا تمر من فوقها .

٥ ـ لا يراه أحد ممن لم يروه قبلاً إلا ضحك . . أو بكى !

٦ ـ إذا أصاب المطر الباب من جهة العراق . . كان الخصب فى العراق.

وإذا أصابه من جهة الشام . . كان الخصب بالشام . .

وإذا أصابه من كل الجهات . . كان الخصب عامًّا .

مثابة للناس :

والبيت الحرام : مثابة للناس . . كل الناس من جميع الأجناس.

والمثابة : إما من المثابة : من الثوب الساتر.

أو : من الثواب . . بما يحصله زائره من الأجر . . أو هو : من الثوب : أى: العَوْد إلى الأصل . . بمعنى أن يعود الحاج بزيارته إلى طهره الأول : كيوم ولدته أمه : صحيفة بيضاء . . من غير سوء .

بل إن الأمة كلها لتعود إلى أصلها : " يوم خلقها الله عز وجل أمة واحدة: ﴿ **كان الناس أمه واحدة ...** ﴾ .

وإذْ هم مأمورون بأخذ الزينة عند كل مسجد : ﴿ **خذوا زينتكم عند كل**

مسجد ﷺ .

ولكنهم عند المسجد الحرام . . وفى الحج ، كلهم ملتزمون بلباس واحد . . بين أيديهم هدف واحد . .

وفى قلوبهم نية واحدة : الإخلاص لله عز وجل : عرض « التسترى » على صديق له أن يحج معه تطوعًا .

فاعتذر الصديق . . اعتذر منطلقًا من قاعدة كانوا يتواصون بها وهى : لأن أقف نفس على زراعة أرض مخلصا : . أفضل عندى من سبعين حجة . . لم أنوها .

يقول الشيخ محمد الغزالى فى كتابه « هذا ديننا »:

إلى أين تريد ؟ قلت : رحلى . قال : صل ركعتين ثم امض . فقلت : ما ينبغى ما رأيت أن يكون ما رأيت من عقل (هو) من عقل هذا الحجام ؟ فقلت : من أين ؟ لم ما أمرتنى به ؟ قال : رأيت عطاء بن أبى رباح يفعل ذلك .

وفى هذا دليل على أن أهل مكة حتى حلاقهم يعلم بالأمور المهمة ويحفظها وإن لم يكن عالمًا متخصصًا ، وما ذلك إلا لتلاصقهم بالحجاج وكثرة ما يرون من أعمالهم ومناسكهم فى الحج والعمرة .

ونظير ذلك ما يحكى أن حلاقًا بمكة كان حلال المشكلات والقضايا الاجتماعية المستعصية على أصحابها ، خاصة المشكلات الزوجية والاقتصادية ، فلا يكاد يحضر عنده من يريد حلق رأسه ويفاتحه عارضًا عليه مشكلته إلا ويجد عنده حلاً شافيًا ، وما هذا إلا من كثرة التجارب وكثرة ما يعرض الناس عليه رؤوسهم للحلاقة من أجناس وألوان ، ومن كل فج عميق وما تحويه رؤوسهم من عقول وأفكار وفطنة وذكاء ، فكأنه يجد تحت كل شعرة قضية حين يحلقها بآلته الحادة وتبقى فى حوزته وقتًا إلى أن يتصرف فيها بدفنها أو بإلقائها بعد أخذ الخلاصة المعنوية منها التى بقيت عنده .

ولعل من أولئك الحلاقين العباقرة الشيخ عبد القادر الصقعة ، حلاق مشهور بمكة فى القرن السابع عشر للهجرة . فهو من أصحاب الذكاء والفطنة والنوادر اللغوية والأدبية والنكات والحكايات الغريبة الاجتماعية والاقتصادية ، يعجز عن احتوائها عالم متخصص فى فنه أو ماهو فى صنعته بقى إلى عهد قريب وقد قارب عمره القرن أو يزيد ، وقد جلست إليه مرات ، وكان هذا بعد أن ترك مهنة الحلاقة ، رحمه الله . وكان والده حلاقًا فى الثلاثينيات من القرن الرابع عشر الهجرى ، وكان كما يذكر الشاعر أحمد إبراهيم الغزاوى فى شذرات الذهب أنه: (لا يحلق إلا للوجهاء والعلماء والأثرياء غالبًا وكان ظريفًا ذكيًا لطيفًا ، خفيف الروح والظل يرفه عن محدثيه وزبائنه المكروبين) .

ما العلاقة بين الإسلام وبين هذا المسجد الحرام؟

ولماذا يجب على كل قادر أن يقصد هذا البيت زائرًا معظمًا ؟

الواقع أن هناك عدة روابط تجعل لحج البيت منزلة كبيرة ، وترتب عليه آثارًا جليلة ، فالمسجد الحرام هو أول مسجد على ظهر الأرض بنى لعبادة الله بعد هدم الأصنام وإسقاط مكانتها . وكان بناؤه على أنقاض الوثنية البائدة دلالة على انتصار التوحيد ، وارتفاع رايته ، والبانى رجلان من كرام الأنبياء . أحدهما : رمى فى النار عقوبة له على نبذه عبادة الأصنام ، وهو إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذى قال : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ [الأنعام :٧٩، ٨٠] . والآخر إسماعيل الذى أسلم عنقه للذبح . . لما قال له أبوه : أمرت بذبحك : ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

هذان الرجلان الخالصان لله وحده ، المتفانيان فيه ، هما اللذان نهضا ببناء المسجد ـ المعروف بالكعبة ـ ليكون مثابة للمؤمنين يصلون فيه ، والتنويه بمكانة المسجد هذا أساسه أمر واضح.

وتلك ذكرى تستحق التكريم والإحياء ولعل من شكر الله إعزاز مسجد اقترن بناؤه الدعوات للأخلاف الذين لم يوجدوا .

من يدرى ؟ ربما كانت هدايتنا إلى الله جزءًا من بركة هذا النداء المقبول . . !

ثم إن الصلاة . وهى أولى العبادات العملية ـ مرتبطة بهذا البيت العتيق . وبديهى أن المسلم عندما يقف أو يركع أو يسجد لا يعرف إلا أنه بين يدى الله رب المشارق والمغارب .

وبديهى أن وجهه وحده هو المأمول فى أثناء التلاوة والتسبيح والتحميد . وبديهى أن الجهات كلها متساوية فى قيمتها المادية والأدبية ، وليس شىء منها مقصودًا بتقديس .

ولكن الله شاء أن يوجه الأمة جمعاء إلى قبلة واحدة ، ترتبط فيها مساجد القارات الخمس ، بأول مسجد ظهر على الأرض . . !!

وترتبط فيها الأمة الإسلامية بأبيها الأول إبراهيم ، لتعلن أنها بهذا الارتباط لا تشذ عن قواعد النبوات القديمة .

وإنما الذى شذ هو الذى أشرك وأفسد ، من المغضوب عليهم ، والضالين ! !

بهذه الصلات التاريخية والروحية أوجب الله على الأمة الإسلامية أن ينبعث منها كل مستطيع كى يزور تعاليم رقيقة ، محورها إذكاء مشاعر اليقين ، وتنمية عواطف الإخلاص لله رب العالمين .

والكلمات التى يجأر بها الحاج وهو منطلق صوب البيت تتضح بهذا المعنى العالى .

إنه يقول : « **لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك** ...» البخارى . هذه التلبية كأنها إجابة للدعوة التى لم يضعف صداها على مر القرون ، الدعوة التى أوحى الله بها لإبراهيم : ﴿ **وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ**

بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود (٢٦) وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر ﴾ [الحج: ٢٦، ٢٧] .

أجل إن الناس يأتون ولهم عجيج بالتلبية تشارك فيه كل الكائنات التى تسبح بحمد ربها ، فكأن الوجود فى هذه البقاع المعزولة الموحشة قد تحول بغتة إلى مظاهرات لا هتاف لها إلا الذكر والشكر والتمجيد والتحميد .

• • •

خواطـر.. في الحـج

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١] .

ويقول عز وجل : ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً ﴾ [الإنسان: ٢٧] .

لا بأس أن يحب المرء دنياه .. لأنها أمه : فمن ترابها خلق .. لكن البأس كل البأس أن تؤثر دنياه على أخراه .. مع أن المستقر هناك : والقرآن الكريم بذلك يعدنا لنكون من أبناء الآخرة خذ مثلا من سورة « الحج» :

فمع أن موضوع السورة الواضح هو : الحج ..

فقد كان المتوقع أن يستفتح السورة الكريمة بالحديث عنه ..

ولكن الحكيم الخبير يستفتح السورة بذكر أهوال القيامة .. ليعمق إحساس المكلف بهذه الأهوال المتوقعة .. حتى إذا ذهب لأداء شعائر الحج كان شعوره حيًا بما يمارس ويشاهد . مما يشبه أهوال القيامة وأحوالها .. ليكون حجة مبرورًا وسعيه مشكورًا .

من أسرار دعاء الخليل :

من دعاء الخليل عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] .

لقد ركزّ إبراهيم عليه السلام في دعائه على الجانب الأخلاقي : يعلمهم : وقاية لهم من الجهل .. وهو آفة العقل .

ويزكيهم : حماية للقلب من الانحراف .

لم يطلب المال وحده :

لأن ثروة المال لا تكفي : فإذا كنت لا تريد إلا المال .. فلن تجد سواه .

والذين يتنافسون لجمعه . . ينسون أن له هدفًا أبعد وإذا كنت قد تشترى الصحة بالمال . . فإنك لن تشترى به الحُب ! .

وإذا كان فقيرًا من ليس عنده مال . . فأفقر منه من ليس عنده إلا المال !

• • •

حلاقة مكة !!

تعلم أبو حنيفة من الحلاق لما أراد الحلق بعد الحج لما قال الحلاق له : هات شقك الأيمن فلما سكت . . قال له كبِّر ولما أراد الانصراف قال له صل ركعتين !

أما ابن أدهم . . فقد علَّم هو الحلاق . . وكان درسًا فى الأخلاق : اشتغل بالحصاد يومًا . . فجمع عشرين دينارًا ولما ذهب إلى الحلاق . . تخطاه فى الدور لرثاثة هيئته . .

ومع هذا فقد أعطى الحلاق المبلغ كله ؟

ولما سئل فى ذلك قال :

حتى لا يحتقر أحدًا بعدى !!

والحلاق فى مكة ، حلاق وحجام ومزين ـ الذى يختن الأولاد ـ لأن الحجامة كما يذكر صاحب المعجم المذكور أيضًا : تكون على ضربين أحدهما يحلق له شعر إذا كانت فى الرأس أو العنق أو موضع فيه شعر وضرب لا يحتاج إلى حلق شعر بأن يكون ظهر قدم أو ظهر موضع لا شعر فيه ، فأما إذا كانت فى موضع فيه شعر فعليه الفدية لإماطة الأذى بحلق الشعر ، والأصل فى جواز ذلك حديث أن النبى ﷺ ، احتجم فوق رأسه ، وهو نص والأصل فى وجوب الفدية عليه قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦] ولا يحتجم المحرم إلا من ضرورة . ولتلك العلاقة رأينا أبا حنيفة حينما أخطأ فى المناسك ، يذكر لنا الحجام دون لفظ الحلاق .

حلاق وفقيه:

ذكر ابن الجوزى فى كتابه (مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن) عن وكيع قال : قال أبو حنيفة النعمان بن ثابت رضى الله عنه : أخطأت فى خمسة أبواب من المناسك فعلمنيها حجام ، وذلك أنى حين أردت أن أحلق رأسى وقف على حجام ، فقلت له بكم تحلق رأسى ؟ فقال : أعراقى أنت ؟ قلت : نعم قال: النسك لا يشارط عليه ، اجلس فجلست منحرفًا عن القبلة ، فقال لى : حول وجهك إلى القبلة . فحولته ، وأردت أن أحلق من الجانب الأيسر ، فقال : أدر الشق الأيمن من رأسك فأدرته ، وجعل يحلق وأنا ساكت ، فقال : كبر فجعلت أكبر حتى قمت .

• • •

تأملات .. فى عرفات

تمهيد :

شاهدوا واحد من القوّاد الأجانب الحجـاج فى عرفات فقال : هذا جيش . . تصعب مقاومته !

وهذا اعتراف صـريح بسر من أسرار هذا الموقف العظيم . . والذى تبـدو فيه أمة الإسلام فى أفضل حالاتها :

يقول « محمد بن عبد الجبار النفرى » فى كتابه : المواقف والمخاطبات :

أوقَفَنَى فى الوقفة وقال لى : إن لم تظفر بى . . أليس يظفر بك سواى ؟

وقال لى : ومن وقف بى . . ألبسته الزينة . . فلم ير لشىء زينة .

وقال لى : تطهر للوقفة . . وإلا نفضتك .

وقال لى : الوقفة روح المعرفة . والمعرفة روح العلم . والعلم : روح الحياة.

وقال لى : يموت جسم الواقف . ولا يموت قلبه .

وقال لى : إذا نزل البلاء . . تخطى الواقف . . ونزل على مـعرفة العارف . وعلم العالم .

وقال لى : أنا أقـرب إلى كل شىء من نفسـه ، والواقف أقرب إلىّ من كل شىء .

ومن معانى ذلك : أنك . . وفى عرفات : وأنت جالس . . وأنت راقد . . وأنت مستلق . . أنت فى مرأى البصر : واقف بعرفات . .

ولكنك ـ بعين البصيرة ـ لا تمارس « وقفة » وإنما هى : وثبة !!

وثبة إلى أعلى . . مع الأمة كلها . .

بما تملك من طاقة إيمانية . . يمكن بها أن تحقق أمل الأمة فيك.

يوم العيد

يقول ابن الجوزى [١] : « رأيت الناس يوم العيد . فشبهت الحال بالقيامة :

فأنهم لما انتبهوا من نومهم . . خرجوا إلى عيدهم . . كخروج الموتى من قبورهم إلى حشرهم :

فمنهم من زينتهُ الغاية . . ومركُبه النهاية .

ومنهم المتوسط . . ومنهم المرذول . . وعلى هذا أحوال الناس يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ [مريم: ٨٥، ٦٨] . أى ركبانا: ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ ، أى عطاشا .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **يحشرون ركبانا . ومشاة وعلى وجوههم** » .

ومن الناس من يداس فى زحمة العيد .

وكذلك الظلمة : يطأهم الناس بأقدامهم فى القيامة .

ومن الناس يوم العيد : الغنىّ المتصدق :

كذلك يوم القيامة : أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة .

ومنهم الفقير السائل :

كذلك يوم الجزاء : أعددت شفاعتى لأهل الكبائر .

ومنهم من لا يعطف عليه ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١] والأعلام منشورة يوم العيد . . كذلك أعلام المتقين يوم القيامة .

العيد الحق :

ما هو العيد الحق كما تصوره فُضالة بن عبيد ؟

---

(١) صيد الخاطر : (٥٨٥، ٥٨٦).

لقد قال يوما : إن عيده الحق . . يوم يعلم أن الله تعالى قد تقبل منه عبادته ولو مثل حبة خردل . . فلما تعجب الناس قال : أن الله تعالى يقول : ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ [المائدة: ٢٧] .

وإذن . . فلو تقبل سبحانه وتعالى مني مثقال ذرة . . لعلمت أنني عنده تعالى من المتقين . . وتلك غاية المراد من رب العباد !

من علامات القبول :

قال عائشة رضى الله عنها : « إننى أعلم متى استجيب لى » .

قيل : وكيف ؟ قالت : « إذا اقشعر جسمى . وانتفضت ، وسالت دموعى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢] .

وفى ذلك فليتنافس المتنافسون :

لقد كانوا يفرحون . . ولكن بفضل الله . . لا بحطام الدنيا . .

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] .

وتأمل هذا التنافس المشكور بين عمر وأخيه زيد رضى الله عنهما : لم يكن تنافسا على الميراث ولا تقاتلا على منصب . .

لقد كان زيد « شقيق » الفاروق عمر . . وأسنّ منه : شهد المشاهد كلها . .

وقد شغلته المعارك عن الرواية . . فلم يرو فى عمره المديد إلا حديثًا واحدًا !

لقد كان مشغولا بالجهاد . . عن الاجتهاد ! بالناحية العسكرية . . عن الناحية النظرية . .

وكان عمر يقول : ما هبّت الصبا إلا وأنا أجد ريح زيد أخى ، وكان يغار منه قائلاً : رحم الله أخى زيدًا : أسلم قبلى . . واستشهد قبلى . .

ولقد اشتركا فى موقعة . فانكسر رمح زيد . . فعرض عليه أخوه عمر رمحه . . فاعتذر زيد . . شوقًا إلى الجنة ! .

الأضحية

حكمتها :

١ ـ التقرب إلى الله عز وجل .

٢ ـ إحياء سنة إبراهيم عليه السلام .

٣ ـ التوسعة على العيال . والفقراء ، والأصدقاء وبذلك تتسع مساحة السرور.

٤ ـ وفيها معنى الالتزام طاعة لله عز وجل . . وفائدتها تعود على الفرد والمجتمع .

يقول عز وجل : **﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾** [الحج:٣٧] .

ومن شكر نعمة تسخيرها . . والإفادة من أصوافها وأوبارها وألبانها . . أن نُسعد بها عياله سبحانه وتعالى . وفي كل أرجاء الدنيا . . كصورة من صور التحضر الإسلامي . والذي يتعامل فيه المسلم بقلبه الواسع مع كل أخ له في الإنسانية ، مهما كانت عقيدته . . ومهما يكن موقعه .

وهو بهذا العطاء المتراحب « محسن » ولو كان يذبح ويريق الدماء !!

محسن : بهذا الالتزام الصارم . . بالذبح : بعد الصلاة . . لا قبلها . . وإن استوى الأمران في مرأى العين ؟! وبادي الرأي.

لماذا « الأنعام» بالذات:

يقول الله عز وجل : **﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴾** [الشعراء: ١٣٢ ، ١٣٣] .

ويقول تعالى : **﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾** [النحل:٦٦] .

والأنعام هي : الضأن . والمعز . والإبل . والبقر .

والسؤال الذي يطرح نفسه هو : لماذا الأنعام بالذات كانت هي القربان . .

دون سواها ؟

وقد أجاب « أهل الذكر » من الأطباء المسلمين الحذاق . فقالوا : إن فى الأنعام من وجوه النعمة :

أنها تأكل مخلفات الزرع . مما يعافه غيرها من جنس الحيوان .

يساعدها على ذلك « كرش » يحوى ملايين الكائنات الحية الدقيقة : فلها تركيب خاص فى القناة الهضمية :

كل ذلك يساعد على هضم هذه المخلفات . التى يعافها الإنسان وكذلك يعافها غير الأنعام فى مملكة الحيوان .

وإذن . . فالأنعام . . دون الحيوانات جميعًا تتمتع بمِيْزتين :

أ ـ فهى أقل تكلفة .

ب ـ وفوق ذلك . . فهى أغزر نتاجًا .

جـ ـ بالإضافة أن لحمها يحتوى على مناعة ضد الأمراض .

د ـ وهو ضرورى للإنسان فى مراحل نموه .

هـ ـ ثم بالإضافة إلى أن لبن الماعز وجُبنَها : أسهل هضمًا . . وأكثر نفعًا للأطفال .

و ـ أما الإبل :

فإن البعير يحمل مثل وزنه . .

ثم هو مُعدّ لتدور به السواقى . .

ز ـ وفضلاً عن ذلك فهى تعمل . . وبلا عادم من دخان يؤذى الإنسان .

النحر:

يُعقل البعير من يده اليسرى . . قائمًا . . ثم يُطعن فى لَبَّته . .

ويقول الناحر : بسم الله . . الله أكبر .

وكان ابن عمر رضى الله عنه يجمع بين التسمية والتكبير ؛ لأن الله عز وجل

قال : ﴿ ولتُكبِّروا اللهَ على ما هداكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٥] .

واللَّبَّة هى : موضع القلادة من العنق .

وهو مفيد للذبيحة : لأن طعن الواقف يكون قريبًا من قلبه .. فيموت بسرعة . ولا يتعذب .

وبالنسبة للآكلين ويخرج الدم كله : لأن فتحة النحر قريبة من الجسم . فيخرج الدم كله .

وإلا لو بقى بعض الدم لتحوّل إلى سُم .. يضر الآكلين .

الذبح : تطرح الشاة على جنبها الأيسر .. مستقبلا بها القبلة استشعارًا عن بعد .. لمكة شرفها الله تعالى .

ثم لا تقطع الرأس كلها : فإن قطعت .. حل أكل الذبيحة .. وبلا كراهة ..

وقبل ذلك كله : إشاعة الذكر .. ومن إشاعته : الذهاب إلى المصلَّى من طريق .. ثم العودة من طريق ..

مع التكبير من ابتداء ليلة العيد .. إلى آخر أيام التشريق وهى : اليوم : الحادى عشر . والثانى عشر . والثالث عشر .

أما بعد :

فعندما فار البحر .. وعم الطوفان .. أشفق « القرد » على « السمكة » فاستخرجها ..

ولكنه بهذا الإخراج ـ قتلها .. بالجفاف ! وكذلك تفعل التربية الحديثة التى أفسدت الإنسان .

والمنقذ من هذا الطوفان هو : المسلم ..

فيا مسلم : يا بانى الحرم ..

يا خليفة إبراهيم : انهض وابن العالم من جديد ..!

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٣
تمهيد	٥
مع مجلة « هدى الإسلام »	٩
رأيت .. وسمعت	١١
فى حفل مسابقة القرآن الكريم	١٤
فى محافظة « الكرك »	١٤
فى محافظة « إربد »	١٦
أما ما سمعت	١٧
وعلى مستوى القمة	١٨
محققا آمال العدو الذى يرمينا بدائه .. ثم ينسل !	١٩
المشكلة والحل	١٩
فى جامعة اليرموك	٢٦
المجالس العلمية الهاشمية	٢٨
من حكمة الإرادة إلى عزيمة الإدارة	٢٩
رمضان وفرصتنا الذهبية	٣٠
من ذكريات رمضان	٣٢
الرأى النضيج	٣٢
الرد المسكت	٣٣
خواطر العيد	٣٣
بين الأمس واليوم	٣٤
يوم الجائزة	٣٤
الأمنية الكبرى	٣٥
إدراك العواقب	٣٦
الحيوان .. يرعى والإنسان .. يأكل	٣٩
واقعنا اليوم	٤١
رمضان .. ومستقبل الإنسان	٤٢
أيها الصائم .. إلى أين تسير ؟	٤٥
رمضان .. والأمة الإسلامية	٤٩
الجزاء	٥٤
المسلم الصائم من دنيا الراتعين إلى أفق الراكعين	٥٩

الموضوع	الصفحة
الصوم من التضحية إلى التسلية	٧٣
شهر الجمع والطرح	٧٦
القناعة هذا الكنز الثمين	٧٩
رمضان . . والأمة الإسلامية	٨٤
صور من تاريخنا	٨٥
من إنسانية الإسلام	٨٨
من موانع التورط فى المعاصى	٨٩
خلق الحياء	٩١
واقعية الإسلام	٩٢
خطأ الإرادة وخطيئة التصور	٩٥
الأمل فى عفو الله	٩٨
التوبة من التوبة	١٠٠
الحساب . . قبل الحساب	١٠٢
محكمة الضمير	١٠٦
المعصية داء والتوبة دواء	١١٠
مشكلة الطاعة وليست مشكلة المعصية	١١٣
حتى يعود العبد الآبق إلى سيده	١١٦
من معانى التوبة	١١٩
التوبة من ترك المأمور أولى : من التوبة من فعل المحظور	١٢٠
التوبة والميلاد الجديد	١٢٣
خلق الحياء	١٢٥
التوبة . . أو السلعة الغالية	١٢٦
الصلاة ومستقبل الأسرة	١٢٩
الأمل الأكبر	١٣٢
الصلاة ومستقبل الأسرة	١٣٣
من هنا يبدأ الإصلاح	١٣٦
وإلى الرجال تحذير خاص	١٣٨
الصالحون . . بالفعل	١٣٨
الطريق إلى قلب الزوج	١٤٠
لغة الزهور	١٤١
الطريق إلى قلب الزوج	١٤٣

الموضوع	الصفحة
القوامة ومخاوف الزوجة	١٤٦
القوامة ومخاوف الزوجة	١٥٠
من مظاهر القوة فى الأسرة المسلمة	١٥٣
الأسرة وصناعة المبادئ	١٥٧
يأكل الذئب من الغنم القاصية	١٦١
من دروس الحديث الشريف	١٦٢
يأكل الذئب من الغنم القاصية	١٦٥
تحذير من العقلاء	١٦٧
السماحة عندنا .. وعندهم	١٦٩
السماحة تحت سقف البيت	١٧٣
شبابنا إلى أين ؟	١٧٧
واقع الشباب	١٧٨
شبابنا إلى أين ؟ وقفات بين يدى الحديث الشريف	١٨٠
شبابنا إلى أين ؟	١٨٣
أولادنا أكبادنا	١٨٦
السهل الممتنع	١٨٦
دور المجتمع	١٨٦
آباء .. أوفياء	١٨٩
إلينا أيها الحائرون	١٩٠
الحل الإسلامى	١٩٣
من وسائل التربية .. المجدية	١٩٤
أولادنا يدافعون عن أنفسهم	١٩٨
حرمة البيوت	٢٠٣
من عقوق الآباء للأبناء	٢٠٧
من بر الآباء .. بالأبناء	٢١١
من عناصر القوة فى تكوين الأسرة	٢١٥
مسؤولية الزوجة عن سعادة الأسرة	٢١٩
عندما تكون « الكرة » فى ملعب الزوج !	٢٢٣
آدب المعاشرة	٢٢٨
إلى الإسلام من باب الطهارة	٢٣٠
من براءة الرحم إلى براءة القلب	٢٣٢

الموضوع	الصفحة
قيمة النظافة	٢٣٣
قليل من الحياء بعد غياب الحياة	٢٣٦
أم المؤمنين : « أم حبيبة » والامتحان الصعب	٢٤٠
من سمات المجتمع المنافق	٢٤٤
من سمات المجتمع المؤمن	٢٤٧
حدث فى شهر شوال	٢٥١
حدث فى شهر شوال	٢٥٥
الفريضة الحج : الجامعة .. المانعة	٢٥٧
من بركات البيت	٢٦١
الذين يموتون قبل أن يموتوا !	٢٦٥
الحج	٢٦٩
مكة المكرمة	٢٧٣
مكة فى قلوب العاشقين	٢٧٦
فى ظلال البيت الحرام	٢٧٩
خواطر .. فى الحج	٢٨٤
حلاقة مكة !!	٢٨٥
تأملات .. فى عرفات	٢٨٧
يوم العيد	٢٨٨
الأضحية	٢٩٠
فهرس الموضوعات	٢٩٣

تم الصف والإخراج الفني
بمركز الصفا للكمبيوتر
مصر ـ منية سمنود ـ دقهلية
ت : ٠٥٠٦٤٩٢١٧٨ ـ محمول : ٠١٢٧٥١١٠٠٣